ليو تولستوي

مصْرع إيفان إيليتش

وقصص أخرى

ترجمة

سامر كرّوم

منشورات الجمل

قصص

مكتبة
الفكر الجديد

ليو تولستوي: مضرع إيفان إيليتش

مكتبة
الفكر الجديد

ليو تولستوي

مصرع إيفان إيليتش

وقصص أخرى

ترجمة

سامر كرؤوم

منشورات الجمل

مكتبة
الفكر الجديد

ليو تولستوي: مضرع إيفان إيليتش وقصص أخرى

ترجمة وتعليق: سامر كرُّوم

الطبعة الأولى ٢٠١٦

كافة حقوق النشر والترجمة والاقتباس

محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت ٢٠١٦

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag 2016*

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany

www.al-kamel.de

E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مكتبة الفكر الجديد

سيرة مقتضبة

الكونت ليو نيكالايفيتش تولستوي، الأخ الأصغر من بين أربعة ابناء. ولد عام ١٨٢٨ في عزبة والده المسمّاة «ياسنيا بوليانا» في مقاطعة تولا على بعد مئتي ميل عن موسكو. توفيت والدته وهو لم يزل في الثانية من عمره وتوفي والده لدى بلوغه التاسعة. كان تولستوي مخلصاً لذكرى والديه فاستوحى منهما شخصية الأميرة ماري وشخصية نيكولاي روستوف في روايته المشهورة الحرب والسلام. كان ينتمي والداه إلى طبقة النبلاء في روسيا وبقى تولستوي دائماً وأبداً واعياً بإرثه الأرستقراطي حتى عندما تقدّم في السن وبدأ بتدريس تعاليم المسيحية وأخوية البشر.

خدم في الجيش في منطقتي القفقاس والقرم حيث كتب «أقاصيص سيفاستوبل» عندما كان ضابط مدفعية أثناء حصار المدينة. بعد إنهائه الخدمة في الجيش، سافر مطولاً ودرس نظريات التربية التي كان شغوفا بها. في عام ١٨٦٢، تزوج بصوفيا بيهرز وعاش حياة ساكنة أنتج فيها غالبية أعماله في فترة امتدت لخمسة عشر عاماً. أنهى كتابة «الحرب والسلام» عام ١٨٦٩ و«آنا كارينينا» عام ١٨٧٧. رُزق ثلاثة عشر طفلاً. وفي عام ١٨٧٩، عصفت به أزمة نفسية خانقة نتج عنها كتابه «إعتراف» وهو سيرة ذاتية مقتضبة. بعد ذلك، أصبح ممن يُعبّرون عن آرائهم

مكتبة الفكر الجديد

الخاصة في الدين والأخلاق ومناصرة السّلم واللاعنف وأصبح إنساناً روحانياً يقمع ملذات الجسد. إستمر في الكتابة ولكن على نحو متقطع. كان يكتب في تلك الفترة أقاصيص ومسرحيات وعظات - كتبها تولستوي «بيده اليسرى» على رأي ناقد روسي مشهور، رغم أنه أنهى رواية متأخرة سمّاها «البعث» ورواية أخرى من أجمل ما كتب: «الحاجّ مراد». وبسبب معتقداته وتلاميذه وشهرته التي طارت فملأت كلّ الآفاق لاسيّما ميوله السلمية وتبنّيه الحكمة، كلّ ذلك أثر سلبيا على علاقته بزوجه حيث أصبحت حياتهما الزوجية يشوبها الكثير من المشاكل. وأخيراً، في عام ١٩١٠، ولدى بلوغه الثانية والثمانين، هجر منزله وأسرته وساح في الأرض وقضى في محطة قطارات محلية بسبب مرض ذات الرئة.

مكتبة الفكر الجديد

تعليق

لطالما تأثر الناس بموت شخص بعينه عوضاً عن تأثرهم بموت مئات الأشخاص من جرّاء حادثة ما. ذلك لأن المرء يستطيع أن يتقمص شخصاً بمفرده ولا يستطيع أن يتقمص عدداً كبيراً من الناس. وقد يصبح الموت في كثير من الأحيان أمراً مألوفاً نتآلف معه ونفقد تأثيره علينا. لأن المرء يعتقد أنه سيموت بعد موت أقرانه ولا يدور في خلده أنه قد يموت قبلهم جميعا. ولهذا لا يأبه بالموت كثيراً رغم أنه قد يقع في براثنه في صباه أحياناً وفي كهولته في أحايين أخرى. هل فقِهتْ براسكوفيا ذلك؟ وهل زكّتْ نفسها وشعرت أنها نجت من الموت الذي اقتنص زوجها المسكين؟ ولكن كم من السنين عاشت بعد مماته؟

بيد أن الموت رحمة. فإذا انتفى الموت من الحياة امتدت العذابات إلى ما لا نهاية. تخيلوا معي امتداد حياة إيفان إيليتش والألم يعتصره صبح مساء إلى ما لا نهاية. فهم إيفان منذ البداية أن الموت هو تحرر للروح شريطة أن تكون حياة المرء مبنية على الأخلاق مستوفية لحق الرّب والعباد. ولهذا، إستهجن أشدّ الإستهجان تصرّفات المحيطين به إذ كان يعتقد أنه عاش وفقا لقواعد الأخلاق والقوانين واستوفى حق الإله وحق زوجته وأولاده. ولهذا غضب أشدّ الغضب لدى ملاحظته تجاهلهم له وعدم اكتراثهم بمرضه العضال. ولكنه عندما ساوره الشك في النهاية

مكتبة الفكر الجديد

وعلم أن استيفاءه لحق العباد والإله لم يكن، ربما، بالمستوى المطلوب إعتذر فوراً لزوجته والمحيطين به واعترف أمام القسيس عن أخطائه وقابل الموت بصدر رحب وفرح ورضاً في الساعة الأخيرة. وهذا في اعتقادي ما أنقذ روحه وجعلها ترى النور الإلهي في النهاية.

هل الموت باب أرحب للوصول إلى عالم آخر؟ إنه كذلك بلا شك. وإلا فإنّ المؤمنين بأنّ الحياة لعنة وأن الموت يفضي إلى عدم سيحيَوْن ويموتون في البؤس والشقاء. الموت عتق. ونحن جواهر ستلتحق بتاج المُلك في الآخرة من خلال بوابة الموت. لذا، يواجه المتفائلون الموت بشجاعة. وإيفان إيليتش فهم ذلك في آخر ساعة. وكما عاش الجنين في رحم أمه لينطلق إلى عالم آخر كان غائباً عنه، يعتقد المؤمنون اعتقاداً جازماً أن الدنيا هي أيضاً رحم تُفضي إلى حياة أخرى أبدية. ولهذا نتساءل بحسنا الرّوحي عن فترة ما بعد الموت. وهذا أصل بنيوي في تكوين البشر.

لكن المفارقة أن براسكوفيا لم ترغب بالتفكّر في الموت. وربما فعلت ذلك. ولكنّ، من المؤكّد أنها لم تُرِدْ أن يُنغّص مرضُ زوجها حياتها ولم ترغبْ بالتفكير ملياً في المحنة التي تعرّض لها إيفان إيليتش لتعتبر في حياتها وتستعدّ لآخرتها. بل تجاهلت مرضهُ بسبب ما عانته من تقلبات مزاجه وخلقه السيء وعراكه الدائم. فقد ألقت باللائمة عليه وجعلته سبباً رئيساً لتعاستها. وأرادت بعد وفاته شيئاً واحداً فقط من أصدقائه، وهو مساعدتها على الحصول من الحكومة على اكبر قدر متاح من المال كتعويض لقاء خدمة زوجها المديدة في السلك القضائي. هل كانت براسكوفيا محقة في ذلك؟ وهل يتعيّن على الزّوج أن يضحي

مكتبة الفكر الجديد

بسعادته الدنيوية من أجل شريك حياته؟ هل تعيّن عليها أن تتحوّل إلى ممرضة تقف على خدمة زوجها على مدار السّاعة؟ ومن يستطيع من النساء المترفات فعل ذلك؟

يرسم لنا تولستوي في «مصرع إيفان إيليتش» فاجعة الموت ويحوّلها إلى ملحمة أدبية. ويكشف لنا في الآن ذاته، بلا مواربة، عن قوة تأثير فتنة المال والجاه والسلطة على البشر. ويبرهن لنا أيضاً ضعف الإنسان وقلة حيلته مهما بلغ في حياته من قوة وسلطة ونفوذ. إيفان الذي كانت قاعات المحاكم ترتعد لسماع خطاه، أصبح طريح الفراش هزيلا ضعيفا لا حول له ولا قوة. شغله مصرانه الأعور أيّما انشغال وحال دون استمرار حياته على النحو الطبيعي. تذمّرت زوجته وابنته لأنهما أرادتا لحياتهما أن تستمر كما كانت من دون مكدِّرات. وأرادتا أن تستمتعان بسعة المنزل الفاره ورحلات التسوق الطويلة واتّباع الموضة والإختلاط بأفراد الطبقة المخملية في بطرسبورغ. مرض إيفان تحوّل إلى كابوس يقض مضجعهما. وفتنة المال والأنانية تكشفت بجلاء يثير العجب لا سيما في شخصيتي الزوجة والإبنة. أهو إذاً حبّ الحياة والإنجذاب نحو اخضرارها وفاكهتها؟ أم هي اللامبالاة والتسليم بقدر الله وانتظار التخلّص من أقرب الأقرباء؟ أم تراه عدم القدرة على الإعتناء فعلياً بالزوج المريض؟

تساؤلات ملحّة تضفي على علاقة الأزواج حيرة ووجل لدى التفكّر في احتمالية الوقوع في براثن المرض والحاجة إلى مواساة الطرف المتضرر والقيام على راحته؟ هل وجدت أوروبا الحلّ في دور العجزة التي تنتشر كالفطر في كل مكان؟ أو ربما، يتلخّص الحل في وجود

مكتبة الفكر الجديد

روح طيبة كروح جيراسيم الذي اعتنى بطريح الفراش إيفان من دون كلل أو ملل وبإيمان مطلق بالثواب في الآخرة؟ هل نجد مثيلاً لجيراسيم في مجتمعاتنا العربية الآن؟ أم أن الأمر لا يزال منوطاً بزوجة الابن المسكينة أو الزوجة الصالحة العليلة أو الخدّامات اللائي بدأ حضورهن يطغى على منازل بعض الموسرين؟ هل يلعب الفقر دوراً ايجابيا في مثل هذه الحالات بينما يلعب الثراء دوراً معاكسا؟ هل يفضى التّرف إلى الإنغماس في ملذات الحياة وتجاهل القضايا المهمة أو ربما الأكثر أهمية كالموت؟ هل يشكل الإيمان بالآخرة دافعا لعمل الخير ومحقاً للأنا في سبيل سعادة الآخر؟

وماذا عن إيفان إيليتش المريض الذي كان يعتقد أن سبب أزمته تتمثل في أولئك المحيطين به. فقد عاش حياته ملتزما بالقوانين والأخلاق ثم ما لبث أن افترسه المرض فتذمر ولم يصدّق أن ذلك حصل له. هل عوقب بسبب التزامه الصارم بالأخلاق والسلوك الحسن؟ أم تُراه عوقب أيضاً بسبب غروره وأنانيته؟ هل توجّب عليه أن يُذعن للمرض من دون تذمر؟ هل وجب عليه اللجوء إلى العفو والتسامح مع أفراد عائلته بغض النظر عن سلوكهم تجاهه(وهذا ما فعله قبل وفاته بالفعل)؟ وماذا عن اعترافه أمام القسيس في آخر المطاف؟ هل نحتاج إلى اللجوء إلى الخالق في الضرّاء فقط؟

هل أراد تولستوي أن يقول لنا أن اللجوء إلى الله هو حبل النجاة الأوحد في هذه الحياة المليئة بالكوارث والفواجع؟

أسئلة أضعها بين يدي القارىء للإجابة عنها والتفكر فيها.

مكتبة الفكر الجديد

لقد أضفت قصتين قصيرتين إلى قصة مقتل إيفان إيليتش، أرجو أن أكون قد وفقت في إدراجهما في هذا الكتاب.

أولها **«يُمهِل ولا يهمل»**، القصة التي تتناول حياة التاجر إيفان أكسيونوف الذي حُوكم ظلماً بتهمة القتل ونُفي إلى سيبيريا ليتعرّف بعد ست وعشرين سنة على القاتل الحقيقي ماكار سيميونوف في نفس السجن الذي يقبع فيه. تعكس القصة في جوهرها موضوع العفو والتسامح والغفران. إذ يصادف أن يرى أكسيونوف القاتل سيميونوف يحفر خندقا يريد الهروب منه إلى خارج السجن. يكشف أكسيونوف أمر ماكار مصادفة في إحدى الليالي. وتكتشف سلطات السجن خطة الهرب في اليوم التالي وتبدأ بالتحقيق مع السجناء. وعندما يُطلب من أكسيونوف أن يدلّ على الفاعل يفكّر في سرّه ويقول: «إذا لم أشِ به وأنجيته من هذه المصيبة، هل يجدي ذلك نفعا لا سيما أنه الشخص الذي دمّر حياتي؟ لا يتعين عليّ مسامحته؟ دعه يدفع مقابل ما عانيته. ولكن إذا وشيت به فإنهم سيجلدونه ويضربونه حتى الموت. وما هي الفائدة التي سأجنيها من ذلك؟». ومن ثم يُعرض عن كشف هوية الفاعل ويجيب بقوله: «لم أر شيئاً ولا أعرف شيئاً».

يحرك ذلك الموقف النبيل مشاعر ماكار الذي يطلب من أكسيونوف العفو عنه ومسامحته ويعده بالإعتراف بالحقيقة لكي يخرجه من السجن. لكن أكسيونوف لا منزل له ليعود إليه. ورغم شفقته على الشخص الذي تسبب في سجنه لم يستطع العفو عنه أولا. لكنه وفي نفس الجلسة يرى ماكار شخصاً مختلفا ينهار امامه ويجهش بالبكاء. يقتنع بأنه تاب وأناب وعندما يسمع نحيبه يبدأ هو بدوره بالنحيب. إذاً، شاطر أكسيونوف

مكتبة الفكر الجديد

معاناة ماكار وشاطره خطاياه أيضاً حين قال: «سيغفر لك الله!. ربما أنا أسوء منك بمئات المرّات». أكسيونوف لا يستطيع أن يحب عدوه ويغفر له إلا إذا أطاح بالحواجز التي تفصل بينهما، أي أزال الحقد من قلبه واعترف بذنوبه. وكما فعل الأمير أندريه في الحرب والسلام انتقل أكسيونوف من حالة الحب الإنساني إلى حالة الحب الإلهي. وبمجرّد أن قال «سيغفر لك الله» شعّ بعدها في قلبه نور وانفكّ من جميع الرغبات الدنيوية سوى رغبة الإنتقال إلى الرفيق الأعلى، تماماً كما حصل مع الأمير أندريه. وبعد ان اكتُشفت الحقيقة باعتراف ماكار إستجاب الله لدعاء أكسيونوف فمات في السجن.

في القصة الأخرى «**متى وجد الحبّ فثمَّ وجه الله**»، يتناول تولستوي موضوع العمل الصالح والعيش في كنف الله ولله وبالله. توجز القصة حياة إسكافي بسيط يدعى مارتن أفدييتش يلتقي في ساعة يأس بصوفي سائح ينتقده بقسوة لتخليه عن الإيمان ويكشف له سرّ السعادة غير المتعلق بتاتاً بإسعاد النفس بل بالعمل من أجل الله من خلال العطاء والعمل الصالح ومساعدة البشر. وينصحه بقراءة الإنجيل لمعرفة الطريقة المثلى للعيش في هذه الدنيا الفانية. يسبر مارتن أغوار الكتاب المقدّس ويبدأ بعملية التغيير التي تُتوج بلحظة معجزة خارقة تتمثل في رؤية تلوح له. يسمع فيها صوتاً يبدو له صوتُ المسيح الذي يعدهُ بزيارة في يوم الغد. يتلو تلك الرؤية سلسلة من اللقاءات في اليوم التالي مع جندي هرم فقير معوز وامرأة فقيرة مسكينة مع طفلها وامرأة عجوز تبيع التفاح. وفي كل لقاء يفي مارتن بحاجات من يلقاهم وفقا للكتاب المقدس الذي يحثه على رؤية المسيح في جميع البشر وتلبية حاجاتهم. يُقدم مارتن الشاي للجندي الهرم والطعام والملابس للمرأة ويلاعب طفلها ويحول

مكتبة الفكر الجديد

بين بائعة التفاح والصبي الذي حاول سرقتها. يقرأ الكتاب المقدس على الجميع وتدخل كلماته قلوب الجميع بلا إذن. ينصح المرأة العجوز بمسامحة الصبي. ترفض بادىء الأمر ومن ثم لا تلبث أن تسامحه لاستذكارها حفيدتها واقتناعها أن هذاالصبي مجرد طفل جائع. يخاطب المرأة العجوز قائلاً: «يا جدّة، يا جدّة، هذه طرائقنا. لكن طريقة الرّب تختلف. إذا أردت أن تجلديه بسبب تفاحة، ما سيكون عقاب خطايانا نحن بالله عليك؟». ينصت الصبي وتنصت العجوز. تسامح العجوز الصبي ويعرض الأخير مساعدته لها بحمل حزمة الحطب التي أثقلت كاهلها. يمضيان معا ويشعر مارتن بسعادة لا توصف. يعود ليستأنف عمله ويزوره المسيح ليشكره متمثلا بالجندي الهرم والمرأة والطفل والعجوز والصبي.

والله وليّ التوفيق

المترجم

سامر كرّوم

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

مصرع إيفان إيليتش

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

١

في مبنى محكمة العدل الضخم، وخلال الإستراحة بعد رفع الجلسة الخاصة بقضية ميلفينسكي، إجتمع أعضاء هيئة المحكمة ووكيل النيابة العام في مكتب إيفان يوغورفيتش شيبيك وتطرّقوا للحديث عن قضية كراسوفسكي ذائعة الصيت. حاجج فيودور فاسيليفيتش بالقول أن القضية تتعدى اختصاص المحكمة. أما إيفان يوغورفيتش فقد كان له رأي آخر تشبث به. بينما كان بيتر إيفانوفيتش، الذي لم يشترك في النقاش منذ البداية، يقرأ في نسخة من جريدة «الغازيتا» كانت قد وصلت للتوّ.

«أيها السّادة. لقد قضى إيفان إيليتش»

«هل توفّى حقا؟»

«هاك الجريدة. إقرأها بنفسك.» ومرّر بيتر إيفانوفيتش الجريدة، التي كان حبر المطبعة لا يزال يفوح منها، إلى زميله فيودور فاسيليفتش.

إحتوت الجريدة على إعلان مؤطر باللون الأسود يقول: «إنه وببالغ الأسى والحزن تحيط براسكوفيا فيودارفنا غالوفينا علماً الأسرة والأصدقاء أن زوجها الغالي الحبيب إيفان إيليتش غالوفين، عضو هيئة المحكمة، قد توفي يوم الرابع من فبراير من عام ١٨٨٢. وستجري مراسم الجنازة يوم الجمعة في الساعة الواحدة بعد الظهر».

مكتبة الفكر الجديد

كان إيفان إيليتش زميلا لهؤلاء السادة المجتمعين هنا. وكان الجميع يستلطفه. وقد عصَف به المرض منذ عدة أسابيع وقيل أنه مصابٌ بمرضٍ عُضال لا سبيل للشفاء منه. وقد احتُفظ بمنصبه في المحكمة ليعود ليشغله بعد شفائه. لكن الجميع كان يدرك أن أليكسييف سيشغل مكانه في حال وفاته كما سيحل فينيكوف أو شتابل مكان أليكسييف عندما ينقضى الأمر. وهكذا، وعلى وقع خبر الوفاة، أول ما جال في خاطر السادة هو تداعيات موت المسكين على وضعهم في العمل وفرصهم في التدرج الوظيفي والترقية.

فكر فيودور فاسيليفيتش وقال في سرّه: «سأخلف شتابل في وظيفته الآن، أو ربما فينيكوف. أنا على يقين من ذلك. لقد وُعدت بهذا المنصب منذ سنين. وترقية كهذه ستضيف إلى مدخولي ثمان مئة روبل في السنة بالإضافة إلى علاوة المصاريف».

وقدّر بيتر إيفانوفيتش وقال في سره: «يجب أن أتقدم بطلب لنقل صهري من كالوغا إلى هنا. ستشعر زوجتي بالبهجة الغامرة ولن تستطيع بعدها أن تكرر على مسامعي اسطوانتها وتقول أنني لم أقم بفعل أي شيء يصبّ في مصلحة عائلتها».

وأردف جهراً: «إعتقدت أن حالته الصحية كانت في طريقها نحو التحسن. إنه لأمر محزن».

«وما كانت عِلته تحديداً؟»

«لم يُحدّد الأطباء ذلك. أعني أنهم استطاعوا تشخيص المرض، كلٌ بمفرده، ولكنهم لم يتوصلوا إلى إجماع. إعتقدت عندما رأيته في آخر

مكتبة الفكر الجديد

مرة أنه سينجو من ذلك المرض الرّهيب لأنه بدا لي أن حالته كانت قد تحسنت».

«أما أنا فلم أزره منذ أعياد الميلاد. كنت أؤجل الأمر في كل مرة»

«هل كان وضعه المادي على ما يرام؟»

«أعتقد أن زوجته كانت تربض على بعض المال. مال يسير وحسب»

«حسنا، يجب علينا الذهاب لرؤيتها. إنهم يقطنون في مكان بعيد جدا»

«نعم. بالنسبة لك، تطول المسافة بالطبع. فكل مكان بعيد عن المكان الذي تعيش فيه»

«انظروا إليه. لا يستطيع أن يسامحني لأنني أقطن في ما وراء النهر» قالها بيتر إيفانوفيتش وهو يبتسم في وجه شابيك. ومن ثم انحرف مسار الحديث نحو تقييم المسافات المختلفة التي تفصل بين أجزاء المدينة. بعدها، عاد الجميع إلى قاعة المحكمة لاستئناف الجلسة.

وبعيدا عن التنبؤات والتخمينات بشأن الإنتقالات والتغييرات المحتملة التي أثارها موت زميلهم في نفوسهم فرداً فرداً، فإنّ حقيقة موت شخص قريب منهم أثار في نفوسهم أيضاً، وكما هو الحال دائماً، شعوراً بالسعادة لأنهم نجوا من براثن الموت الذي اختطف صديقهم إيفان إيليتش. فكل منهم فكر ثم قدر ثم قال في سريرة نفسه: «هكذا إذاً. لقد مات إيفان وأنا لم أزل حيا أرزق». إلاّ أن المقرّبين من الرّاحل، أو أولئك الموسومون بـ«أصدقاء إيفان إيليتش»، لم يستطيعوا أن يطردوا فكرة القيام بأداء التزامات اجتماعية مُملة الآن، كتعزية الأرملة وحضور الجنازة.

وأقرب «الأصدقاء» تمثل في فيودور فاسيليفيتش وبيتر إيفانوفيتش.

شعر الأخير، وهو صديق قديم منذ أيام كلية الحقوق، بأنه مدين لإيفان إيليتش. وقد أخبر زوجته، بينما كانا يتناولان الطعام، بموت إيفان إيليتش واحتمال انتقال أخيها إلى دائرتهم. مُستغنيا عن قيلولته المعتادة، قام بعدها بارتداء معطفه وتوجه إلى منزل إيفان إيليتش.

إصطفت عربة ومركبتا أجرة أمام مدخل المنزل. وفي الأسفل، عند مدخل الممر المؤدي إلى فناء المنزل، بمحاذاة المكان المخصص لتعليق المعاطف، أُسند إلى الجدار تابوت لمّاع يغطيه ديباج حريري تتدلى من حوافه خيوط مفتولة مزركشة وشرائط ذهبية. وقفت في ذلك المكان سيدتان متشحتان بالسواد كانتا تنزعان عنهما معاطف الفرو. عرف بيتر إيفانوفيتش إحدى السيدتين وكانت أخت الفقيد، لكنه لم يتعرّف على الأخرى. وكان زميله شوارتز، في تلك اللحظة، واقفا في أعلى السلم يستعد للنزول. ولكن عندما رأى بيتر توقف ليغمز له بإيعاز مفاده «لقد أحدث رحيل إيفان فوضى لم تكن لتكون كذلك في حال رحيلنا نحن»

وجْهُ شوارتز وشارباه الإنكليزيان اللذان يمتدان ليغطيا وجنتيه وقوامه النحيل ولباسه الرسمي، كل ذلك كان ينم عن جوّ من المهابة والوقار. ورغم أنّ الوقار قد فضح زيفه وشخصيته الهزلية إلا أن الجو هناك كان مؤثرا على نحو مؤلم حقاً، أو ربما بدا كذلك لبيتر إيفانوفيتش.

أفسح بيتر إيفانوفيتش المجال للسيدتين للمرور أمامه وتبعهما ببطء صعودا إلى أعلى الدرج. وعوضا عن الهبوط، توقف شوارتز في الأعلى منتظرا. عرف بيتر السبب: أراد شوارتز أن يُرتّب موعداً للعب الهويست

مكتبة الفكر الجديد

في مكان ما من تلك الليلة. إستمرت السيدتان في الصعود لرؤية الأرملة، أما شوارتز فقد قطب حاجبيه وزمّ شفتيه بجدية فائقة، بينما عبّرت عيناه عن نظرة عابثة مُناكدة واهتزّ حاجباه بينما كان يوجه بيتر بإيماءة من رأسه نحو جهة اليمين إلى الغرفة التي يرقد فيها الميت.

دخل بيتر إيفانوفيتش الغرفة وتردّد، كما يفعل الناسُ عادة في مثل هذه المواقف، ولم يدرِ ما ينبغي عليه فعله بالتحديد. لكنه أيقن أن الأمر الوحيد الذي لا ضير فيه في مناسبات كهذه هو رسم إشارة الصليب. أما الإنحناء بشكل يتزامن مع رسم الإشارة فلم يكن متأكداً منه. وعليه، توصّل بيتر إلى تسوية لم يقم وفقا لها بالإنحناء المفرط بل سار في الغرفة ببطء وانحنى قليلاً مع كل إشارة صليب كان يرسمها على صدره وجبينه ماسحاً في ذات الوقت الغرفة بعينيه ليرى الموجودين. رأى شابين، أبناء الأخ على ما يبدو، أحدهما لا يزال طالبا في المدرسة، كانا يرسمان إشارة الصليب وهما يغادران الغرفة وامرأة عجوزاً، صغيرة الحجم، تمسمرت في مكانها واقفة بلا حراك بينما كانت تهمس في أذنها سيدةٌ يرتسم على جبينها حاجبين مقوسين على نحو لافت. ورجل دين ودود ذو روح عالية وهمة كبيرة يرتدي الفراك ويقرأ بصوت مرتفع ونغمة مسترسلة متناغمة كخرير ماء الغدير. ورأى أيضاً جيراسيم الفلاح الذي كان ينتظر بمحاذاة المنضدة، واندفع كالسهم من أمام بيتر إيفانوفيتش وأخذ يرش شيئاً ما على الأرض. وإذ رأى هذا المشهد، إشتم بيتر على الفور رائحة طفيفة للحم متعفن ذكّرته بزيارته السابقة حيث رأى هذا الفلاح يعمل كممرض في غرفة إيفان وكان الرّاحل يكن لهذا الفلاح البسيط محبة خاصة.

مكتبة الفكر الجديد

إستمر بيتر إيفانوفيتش برسم إشارة الصليب مع القيام بانحناءات طفيفة في منتصف المسافة التي تفصل التابوت والقارىء والأيقونات المصطفة على زاوية المنضدة. توقف بعدها وعاين جثة الرّاحل عن كثب، وذلك عندما بدا له أن تكرار تلك الطقوس أصبح أمرا مبالغٌ فيه.

كان جثمان الرّاحل شبيها بجثامين الرجال الذين سبق أن اقتنصهم الموت من قبل. جثة ثقيلة على نحو غير مألوف وأطراف جاسئة تغوص في بطانة الكفن الناعمة ورأس منحنٍ على الوسادة انحناءة أبدية وجبهة مشمّعة باللون الأصفر (لون تجليات الموت على الجسد) وبقع ملساء خالية من الشعر على صدغيه الغائرين وأنف ناتىء بدا وكأنه يضغط بقوة على شفته العليا. تغيرت هيئة الراحل كثيراً مقارنة بتلك الهيئة التي رآه عليها بيتر إيفانوفينش في آخر مرة. فقد بدا جسده هزيلا ولكن وجهه اكتسب جمالا إضافيا أو بالأحرى أهمية إضافية أكثر مما كانت عليه الحال في فترة حياته. فتعابير وجهه كانت تنمّ عن الرضا وكأن لسان حاله يقول قمت بما كان ينبغي علي القيام به وقد قمت بذلك على أحسن وجه. وأكثر من ذلك، فقد عبرّت تقاسيم وجهه أيضاً عن نوع من اللّوم أو، على الأقل، تذكرة لمن يتذكر. تلك التذكرة التي لم يلقَ لها بيتر إيفانوفيتش بالاً أو على الأقل لم يشعر أنها تنطبق عليه شخصيا. إلاّ أن القشعريرة سرت في جسده فقام على الفور برسم إشارة الصليب. فعل ذلك بسرعة، بسرعة فائقة، وشعر أن السرعة تلك لم تكن لائقة بالمناسبة. عندها، التفّ وتوجه نحو الباب.

كان شوارتز ينتظره في الحجرة التالية مثبتاً قدميه على الأرض بزاوية منفرجة وعابثا بيديه، من وراء ظهره، في الطرف الأعلى من القبعة التي

مكتبة الفكر الجديد

كان يعتمرها. وبنظرة واحدة لمح من خلالها بيتر هيئة شوارتز الرشيقة وهندامه الأنيق ولغة جسده المشاكسة وعاد إليه ثباته وشعر بالطمأنينة الآنية لأن شوارتز لم يتأثر البتة بما حصل إذ كان منيعاً على أي أمر قد يدعو إلى الإكتئاب. فهيئته عكست الكثير والكثير: فموت إيفان إيليتش لم يكن ليُبطل ساعة سَمَرهم المعتادة بأي شكل من الأشكال. بمعنى آخر: لا شيء يمكن أن يمنعهم من فتح رزمة ورق جديدة وتوزيعها على اللاعبين في هذا المساء. فقد وكل الخادم بشراء الشموع ليشعلها ويعلن عن بدء اللعبة. ولم يكن ثمة سبب للتفكير بأن هذه المناسبة ستحول دون قضاء وقت ممتع في ذلك المساء. وذلك بالضبط ما همس به شوارتز في أذن بيتر إيفانوفيتش بينما مرّ الأخير من أمامه مقترحا مكان اللقاء في منزل فيودور فاسيليفيتش.

إلا أن الله لم يشأ أن يلعب بيتر إيفانوفيتش لعبة الهويست في ذلك المساء ذلك أن براسكوفيا فيودارفنا، وهي امرأة مكتنزة قصيرة القامة يتوسع جسدها عرضا من الكتفين نزولا، برغم محاولاتها المضنية لتفادي ذلك التضخم، تتشح بالسواد وتلف رأسها بشال أسود ويعتلي عينيها حاجبان بارزان مقوسان تماماً كحاجبي المرأة التي كانت تقف بمواجهة التابوت، خرجت من حجرتها مع بعض النسوة ورافقتهن إلى باب الغرفة التي يقبع فيها التابوت وقالت: «تفضلوا، مراسم الصلاة ستبدأ بعد قليل».

قام شوارتز بانحناءة مترددة وتسمّر في مكانه دون أن يقبل أو يرفض الدعوة. أما براسكوفيا فقد نظرت باتجاه بيتر إيفانوفيتش وتنهدت وتوجهت صوبه مباشرة وأمسكت بيده وقالت: «أعلم أنك كنت صديقا

مكتبة الفكر الجديد

جيداً لإيفان إيليتش....» ونظرت إليه متوقعة إجابة ترتقي إلى مستوى الحدث. أدرك بيتر إيفانوفيتش بالطبع، أن رسم اشارة الصليب كان أمرا ضروريا في المقام السابق وأن المقام الآن يستدعي أن يضغط برفق على يد براسكوفيا ويتنهد ويقول: «صدقيني... لقد.......» وهذا ما قام به. بعدها شعر أن كلامه أفضى إلى النتيجة المتوخاة فقد شعر كلاهما بمشاعر فياضة ترتقي إلى حجم المناسبة.

قالت الأرملة: «دعنا ندخل قبل أن يبدأوا. عليّ أن أخبرك بشيء. هاتِ ذراعك».

تشابكت ذراعا بيتر إيفانوفيتش وبراسكوفيا ودخلا معا إلى الغرف الداخلية، ومرّا بشوارتز الذي غمز بيتر غمزة متسمة بالتشاؤم والمشاكسة وكأنه يقول له: «إذاً. لن تستطيع اللعب هذا المساء. سنستبدل شخصاً آخر بك. أرجو أن لا تنزعج. وعندما يُطلق سراحك يمكنك بالطبع أن تنضم الينا كلاعب إحتياطي خامس».

تنهد بيتر إيفانوفيتش بعمق وأسى وعبّرت براسكوفيا عن امتنانها له من خلال الضغط مرّة أخرى على يده برفق. وصلت إلى غرفة الإستقبال التي زينتها أقمشة الكريتون زهرية اللون وأضيئت بمصباح يتيم خافت النور. جلسا بجانب المنضدة، هي على الأريكة وهو على مقعد دائري دون مُتكأ تتمايل من تحته، على نحو غير منتظم، مشابك الزّنبرك التالفة. أرادت براسكوفيا أن تحذره من الجلوس على ذلك المقعد وتطلب اختيار كرسي آخر لكن التحذير لم يبدُ مناسبا في ظروف كهذه لذلك لم تفعل. وبينما جلس بيتر إيفانوفيتش على ذلك المقعد الوطيء غير المتوازن، تذكر صديقه الرّاحل عندما كان يقوم بتزيين هذه الغرفة

مكتبة الفكر الجديد

وطلب آنذاك نصيحته بشأن قماش الكريتون الزهري الموشح بأوراق خضر. في طريقها للجلوس على الأريكة بمحاذاة المنضدة ـ في الغرفة التي كانت تضيق بالأثاث والحلي والزينة الصغيرة ذرعاً ـ تشابك رباط شال براسكوفيا الأسود بنتوء حادّ على حافة المنضدة. نهض بيتر إيفانوفيتش ليحرر الشال وبذلك حرّر المقعد الذي كان يجلس عليه فانتفض المقعد واندفع إلى الأعلى. بدأت الأرملة بتحرير رباط الشال بمفردها فعاد بيتر ليجلس مرة أخرى ساحقا المقعد المسكين وقامعا تمرده. إلاّ أن الأرملة لم تستطع إنهاء المهمة. فنهض بيتر مرة أخرى مخلفاً وراءه المقعد الثائر الذي أصبح يصرخ الآن محدثا صريرا. وعندما انتهت المهمة وفكّ الرباط، إستلت براسكوفيا منديلا قطنيا نظيفا ناعما من جيبها وانفجرت بالبكاء. بينما شعر بيتر إيفانوفيتش بالإرتياح بعض الشيء. فقد هدأت أعصابه قليلاً لاسيما بعد انتهاء معركة الرّباط وثورة المقعد المختل. جلس في مكانه مقطبا جبينه. إنقطع جوُّ الإحراج ذاك عندما دخل سوكولوف، خادم الرّاحل إيفان إيليتش، وقال أن بقعة الأرض التي اختارتها براسكوفيا في المقبرة ستكلف مئتا روبل. توقفت عند سماع ذلك الخبر عن النحيب ونظرت إلى بيتر إيفانوفيتش ممثلة دور الضحية وشرحت له بالفرنسية وضعها المالي الصعب. هزّ بيتر إيفانوفيتش برأسه من دون أن يتفوه بكلمة مُعرباً عن تفهمه التام واقتناعه المُطلق بصعوبة وضع الأرملة المالي.

«بوسعك أن تدخن إذا أحببت» قالتها براسكوفيا بنبرة صوت نبيل لكنه منبطح رتيب خال من الحماسة والإثارة بسبب الهزيمة. وذهبت بعدها لمناقشة موضوع المقبرة مع سوكولوف. وبينما باشر بيتر إيفانوفيتش بتدخين سيجارته سمع أن الأرملة قامت بجولات استعلامية

مكتبة الفكر الجديد

بغرض السؤال عن عدد من الأمكنة في عدد من المقابر قبل أن تختار هذه الأخيرة. ليس هذا فقط، بل ذهبت أيضاً لإجراء الترتيبات الخاصة بالكورال الغنائي عندما انتهت من حجز قطعة الأرض تلك. بعدها غادر سوكولوف.

«أقوم بكل شيء بمفردي» قالت لبيتر إيفانوفيتش وهي تدفع جانبا بعض الألبومات من على المنضدة. وبمجرد شعورها بأن المنضدة أصبحت معرّضة لخطر رماد سيجارة بيتر، هُرعت بسرعة وأحضرت منفضة وقالت: «أعتقد أنه إذا زعمت أنني غير قادرة على إدارة الأمور العملياتية بسبب حزني وأسفي فإن ذلك سيكون نفاقا. على العكس، فإن الأمر الذي.... لن أقول يواسيني، بل....يخفف من ألم التفكير المستمر، هو النظر في الأمور التي يجب انجازها كالجنازة وغيرها من أجل الرّاحل». إستلت منديلها مرّة أخرى وكأنها كانت على وشك أن تجهش بالبكاء، لكنها تمالكت نفسها على نحو فجائي وسيطرت على مشاعرها وقالت بهدوء: «ثمة أمر واحد أودّ مناقشته معكم»

طأطأ بيتر إيفانوفيتش رأسه وتحركت الزنبركات من تحته إلا أنه سيطر على حركتها.

«لقد عانى الأمرّين في آخر أيام حياته»

«هل عانى حقا؟» تساءل بيتر إيفانوفيتش

«آه نعم. على نحو مفجع. لم ينقطع عن الصّراخ في الدقائق الأخيرة، كلا، بل في الساعات الأخيرة. عمّ صراخه المنزل في آخر ثلاثة أيام من دون انقطاع. كان أمرا لا يطاق. لا أدري كيف استطعت

مكتبة الفكر الجديد

اجتياز تلك المحنة. كنت أسمع صراخه من على بُعد ثلاث غرف. يا إلهي، لقد عانيت المرارة من تلك التجربة».

«وهل كان في كامل وعيه؟» سأل بيتر

«أجل» همست براسكوفيا، «واعيا حتى لفظ أنفاسه الأخيرة. وقال وداعا قبل ربع ساعة من موته وكان مُصرا على أن نأخذ ابنه فالوديا بعيدا»

رغم دراية بيتر إيفانوفيتش بنفاقه الكريه، ونفاقها أيضاً، إلا أن التفكير فيما عاناه الرّاحل الذي عرفه بيتر عن قرب كشاب فرح مقبل على الحياة أولاً وكزميل في المدرسة وفي العمل لاحقا، خلّف ذلك كلّه لدى بيتر إيفانوفيتش شعورا بالرّعب. مرة أخرى، كان بمقدوره رؤية الجبين المشمّع الشاحب والأنف المتدلي الضاغط على الشفة العليا. شعر بنوبات من الخوف تستهدفه شخصيا.

«ثلاثة أيام وثلاث ليال من المعاناة القاسية. وبعدها الموت. فكّر في الأمر. قد يحصل ذلك معي في أي وقت، الآن» حدّث بيتر إيفانوفيتش نفسه وهلع أشدّ الهلع. إلا أنه أنقذ على الفور، من دون أن يدري، بمجرد اللجوء إلى الفكرة القديمة الشائعة التي تقول أن ذلك حصل لإيفان إيليتش شخصياً ولم يحصل له ولا يمكن أن يحصل ولن يحصل. ومجرّد التفكير في هذا المآل سيضعه في مزاج معكر لا داعي له الآن. والدليل ماثل أمامه في انبساط تقاسيم وجه شوارتز وعدم مبالاته. ووفقا لهذا النسق من التفكير هدأ بيتر إيفانوفيتش من روعه وبدأ يظهر اهتماما حثيثا بتفاصيل موت إيفان إيليتش وكأن موته كان صدفة قد تنطبق على إيفان إيليتش ولكنها لن تنطبق عليه بالطبع.

مكتبة الفكر الجديد

بعد أن سردت الأرملة روايتها المفصلة عن الآلام الجسدية المفجعة التي عانى منها زوجها قبل مماته (تفاصيل استمع إليها بيتر إيفانوفيتش من زاوية واحدة متصلة بتأثيراتها السلبية على براسكوفيا فقط) أيقنت أنه حان الوقت للخوض في الأمور العملية.

«آه بيتر إيفانوفيتش، الأمر فظيع، رهيب،...مؤلم حقا» انفجرت بالبكاء مجددا.

تنهّد بيتر إيفانوفيتش وانتظر أن تضع المنديل على أنفها وتنفخ. وعندما انتهت من تفريغ محتوى الجيوب الأنفية قال: «صدقيني.....». بعدها تكلمت مجددا وأخبرته عن السبب الحقيقي الذي دفعها لطلب مشورته: كانت الاستشارة المتوخاة إذاً مرتبطة بمساعدتها على استغلال حالة وفاة زوجها للحصول على بعض المال من وزارة المالية/ الخزانة. وقد جعلت الأمر يبدو وكأنه بالفعل طلب استشارة بخصوص المعاش التقاعدي. إلا أن بيتر إيفانوفيتش لاحظ أن معرفتها تفوق معرفته في هذا الشأن فقد كانت على دراية بأدق التفاصيل لاسيما تلك التفاصيل المرتبطة بالحصول على آخر فلس يمكن الحصول عليه من الخزانة على سبيل العلاوات الخاصة بالوفاة. ما أرادت معرفته هو امكانية الحصول على مال إضافي من خلال اتباع طرائق قد خفيت عنها. فكر بيتر إيفانوفيتش بطرق إضافية وقام بالأمر المناسب في مثل مناسبات كهذه، أعني شتيمة الحكومة على شُحّها، وخلُص إلى نتيجة مفادها أن الطرق الإضافية التي يمكن أن تطرق لحلب الحكومة هي طرق معدومة بالفعل. فقد استنفذت براسكوفيا جميع الطرق. تنهدت براسكوفيا لدى سماعها تلك النتيجة وعمدت إلى التخلص من جميع الضيوف. فهِم بيتر إيفانوفيتش الرسالة. أطفأ سيجارته. وقف وصافحها وتوجه إلى الردهة.

مكتبة الفكر الجديد

في حجرة الطعام، حيث تقف ساعة على الجدار لطالما تحدث عن شرائها إيفان إيليتش من سوق التحف، مرّ بيتر إيفانوفيتش بقسيس وبعض معارفه المشاركين في الجنازة. ورأى أيضاً شابة جميلة عرفها، ابنة الراحل. كانت ترتدي السواد من رأسها إلى أخمص قدميها. وخصرها النحيف بدا أكثر نحافة من ذي قبل. بدت كئيبة وحازمة وشرسة بعض الشيء. إنحنت قليلاً لدى رؤية بيتر إيفانوفيتش بطريقة شعر فيها أنها تلومه لأمر ما كان قد اقترفه. وقف خلف الشابة رجل شاب يبدو عليه مظهر الثراء ويعرف أيضاً باسم بيتر إيفانوفيتش. موظف في السلك القضائي. بدا أيضاً متجهما ومنزعجا. لا بد أنه خطيب الشابة الحسناء. قام بيتر إيفانوفيتش بانحناءة احترام باتجاههما تنم عن مشاعر الكآبة أيضاً وهمّ في التقدم نحو الغرفة التي يقبع فيها التابوت عندما ظهر ابن الراحل من وراء الدرج، طالب المدرسة الذي يشبه والده تماماً. إيفان إيليتش الصغير الذي تذكره بيتر إيفانوفيتش منذ أيام دراسة الحقوق في الجامعة. كانت عيناه المغرورقتان بالدموع تشي بعمره الذي لا يتعدى الثانية أو الثالثة عشر. طفل فقد براءته. شعر بالإحراج لدى رؤيته لبيتر إيفانوفيتش وقطّب حاجبيه بتجهم. هزّ بيتر إيفانوفيتش برأسه ودخل الغرفة التي يقبع فيها جثمان الراحل. مراسم الجنازة على وشك أن تبدأ ـ شموع وعويل ونواح وبخور ودموع وبكاء. وقف بيتر إيفانوفيتش في الغرفة عابسا يحدّق بأقدام الواقفين أمامه. لم ينظر البتة إلى الجثة ولم يستسلم لأية مشاعر ضعف. وكان أول المغادرين. خرج إلى الردهة التي كانت خالية تماماً. إنطلق جيراسيم، الفلاح الخادم، من الغرفة كالسّهم وبدأ بتقليب معاطف الفرْو بيديه القويّتين إلى أن وجد معطف بيتر إيفانوفيتش وسلمه له.

مكتبة الفكر الجديد

«جيراسيم. كيف حالك يا صبي؟ حزين بعض الشيء؟» سأل بيتر.

«إنها مشيئة الله، سيدي. كلّ من عليها فان» أجاب جيراسيم. كاشفا عن صف أبيض متسق من الأسنان. بعدها، وبشعور الرجل المنشغل بكثير من الأمور، فتح الباب بحدة ونادى سائق العربة وعاد بسرعة إلى درجات الرّواق يفكر في المهمة التالية.

شعر بيتر إيفانوفيتش بارتياح عظيم عندما لفح وجهه نسيم بارد عليل تدفق إلى قصبته الهوائية ليملأ رئتيه لاسيما بعد خروجه من جو البخور والجثة والفينول.

«أين وجهتك، سيدي؟» سأل سائق العربة

«ما زال الوقت مبكرا. أعتقد أنني سأمرّ على منزل فيودور فاسيليفيتش»، أجاب بيتر إيفانوفيتش.

وإلى ذاك المنزل توجه بالفعل. وها هم مجتمعون وقد أنهوا الجولة الأولى بالطبع. وقد وصل في توقيت حسن ليكون اللاعب الخامس المفقود.

مكتبة الفكر الجديد

٢

لقد كانت حياة إيفان إيليتش واضحة مباشِرة صادقة عادية ومخيفة في حدها الأقصى.

قضى إيفان إيليتش وهو في الخامسة والأربعين من عمره. وكان عضوا في هيئة المحكمة العدلية عندما وافته المنية. كان أباه موظفا حكوميا اضطلع بمسؤوليات عديدة في وزارات وإدارات مختلفة في بطرسبورغ وخطّ لنفسه مسارا وظيفيا يجعل العاملين فيه، برغم عدم قدرتهم على القيام بأي أمر مفيد، ملتصقين بكرسي الوظيفة لا يمكن فصلهم عنها بسبب طول خدمتهم ووضعهم الإجتماعي البارز. وعليه، فإنهم ينتقلون من وظيفة مختلقة إلى أخرى مزيّفة يحصلون فيها على رواتب حقيقية بعيدة تماماً عن الزّيف تتراوح بين ستة وعشرة آلاف روبل سنويا مما يؤهلهم للإستمرار في العيش وصولا إلى سنين متقدمة.

هكذا كانت حال إيليا يفيميفيتش جالوفين، عضو المجلس الإستشاري، عضو زائد عما هو ضروري في مؤسسات عديدة زائدة عما هو ضروري.

كان له ثلاثة أبناء أوسطهم إيفان إيليتش. أما الابن الأكبر فقد اتبع مسار أبيه وعمل في وزارات مختلفة وقد ارتقى الآن إلى المستوى المطلوب من الأقدمية التي تؤهله ليصبح ذو منصب لا يتطلب عملا

مكتبة الفكر الجديد

لكن يوفر دخلا جيداً. أما الابن الأصغر فكان فاشلا. إذ خاض غمار سلسلة من الوظائف حطّم في جميعها كافة احتمالات النجاح ويعمل الآن في مصلحة السكك الحديدية. لم يكن أباه وأخويه، لا سيما زوجاتهم، يكرهون اللقاء به وحسب بل نسوا وجوده أصلا إلا اللّهم إذا اضطروا إلى إحياء ذكراه. أما أختهم فكانت متزوجة بالبارون جريف وهو موظف حكومي في بطرسبرغ، نسخة طبق الأصل عن حماه، أبا زوجته. أما إيفان إيليتش فقد كانوا يسمونه بـ«عنقاء الأسرة». فهو لم يكن باردا متزمتا جامدا كأخيه الأكبر ولا متهورا مسرفا في الملذات ومبذرا كأخيه الأصغر. لقد كان بين بين ـ ذكي نابض بالحياة، جذاب، لطيف ودمث الأخلاق. التحق بجامعة الحقوق مع أخيه الأصغر الذي لم يستطع أن يكمل المشوار بل طُرد في السنة الخامسة بينما اجتاز إيفان الإختبارات وحصل على الإجازة مع مرتبة الشرف. لم تتغير شخصيته عما كانت عليه في سنين دراسته الجامعية. فقد كان رجلا مبتهجا قادرا لطيفا اجتماعيا مقتنعا بالحاجة لاتباع مسار تأدية الواجب ـ مما يعني الإلتزام بأي أمر تفوضه السلطات العليا. ابتعد إيفان إيليتش في صباه وكهولته تماماً عن التملق إلا أنه ومنذ أيامه الأولى كان منجذبا نحو رجال السلطة كما تنجذب فراشة الليل نحو وهج الضوء. لقد كان مفتوناً بهم وقد نسج على منوالهم في تصرفاتهم وفلسفتهم. وقد بنى علاقات طيبة معهم. أما لعب الطفولة ولهو الشباب فلم يتركا فيه أي أثر سلبي برغم استسلامه للمتع الحسية والغرور في بعض المواضع وانخراطه في صفوف الطبقات العليا والتفكير الليبيرالي. ومع ذلك فإن كل تلك الهفوات حصلت ضمن حدود معقولة رسَمها بإتقان اعتماداً على حسه الفطري.

مكتبة الفكر الجديد

ففي سنوات الدراسة، قام بأمور إعتقد أنها تبعث على الغثيان للوهلة الأولى. أمور جعلته يشعر بالإشمئزاز والنفور من نفسه حتى أثناء قيامه بها. ولكن، مع مرور الأيام، لاحظ أن الأمور ذاتها قد قام بها أشخاص ذوو مناصب رفيعة من دون تأنيب للضمير. وبرغم وخز ضميره من حين لآخر وعدم اعتبار تلك الأمور أمورا حسنة إلا أنه استطاع أن يتناساها ولم يشعر بعدها بالندم لدى استذكارها.

بعد تخرجه من الجامعة وتأهله بذلك للدرجة العاشرة من سلم درجات الخدمة المدنية واستلامه لمال كافٍ من أبيه ليبتاع الضروريات الأساسية، قام إيفان إيليتش بتفصيل ملابس جديدة من محلات شارمر الشهيرة وعلّق ميدالية على سلسلة ساعته حفرت عليها كلمتا «ريسبايس فاينيم» باللاتينية (أي تذكر أنك فان/ أو الأعمال بخواتيمها) وودّع الأمير والمدير وتناول طعام العشاء مع أصدقائه في مطعم دونون وسافر إلى إحدى الأقاليم حاملاً حقيبته المتسقة مع موضة ذلك الزمان بالإضافة إلى الملابس والأغطية الكتانية وعدّة الحلاقة وأغراض التزيين الشخصية (معجون الأسنان وفرشاة الشعر، الخ) وسجادة مخصصة للسفر، جميعها موصى عليها من أفخم المحلات، كل ذلك ليتقلد المنصب الذي أعدّه له والده: المساعد الخاص لحاكم الإقليم.

وفي الإقليم، لم يستغرق الأمر طويلا لكي ينعم إيفان إيليتش بأسلوب حياة مريح ومُرْضٍ شبيه بأسلوب حياته في جامعة الحقوق. فقد كان يقوم بمهمته ويرتقي في سلّم الوظيفة ويستمتع بأوقات فراغه من دون ضجيج. وقد ذهب في زيارات رسمية للمقاطعات الريفية بين الفينة والفينة فارضاً من خلالها شخصيته المحترمة على الأعلى والأدنى منه مرتبة إذ كان فخورا بالقيام بعمله على أحسن وجه لا سيما في القضايا

مكتبة الفكر الجديد

المتعلقة بمقاضاة المتهرطقين أو المنشقين عن الدين حيث عاملهم بإنصاف ونزاهة.

من خلال القيام بواجباته الرسمية، وبرغم شبابه وسلوكه القريب من الرعونة أحياناً، نجده محافظا وبيروقراطيا وحتى منفّرا في بعض الأحيان بينما نجده في حياته الإجتماعية مسليا وظريفا ودائما دمث الأخلاق ـ أو مُجسدا لما كان يصفه به الحاكم وزوجه «المرح المبتهج». وبالفعل فقد كان بالنسبة لهما فردا من أفراد العائلة.

وكان قد أقام علاقة غرامية مع سيدة متحمسة فقط لعلاقة مع محام شاب فطن. أقام أيضاً علاقة مع مصممة قبعات وشارك في جلسات الشراب مع ضباط مساعدين ورحلات مسائية لزيارة شارع ما في الضواحي. كان يتعين عليه العمل بجد لتقوية أواصر العلاقة مع مرؤوسيه «الحاكم وزوجه» ليكسب وُدّهما. إلا أن جميع تلك الأفعال كانت قد طُبعت بخاتم الإحترام اللامتناهي لدرجة أن تسمية الأمور بمسمياتها لم يكن وارداً، فكل شيء كان مباحا ومدعوما بالعبارة الفرنسية الأصل: «إنها فورة الشباب». وكل شيء كان يتم بأيدٍ نظيفة تحت ملاءات الأسرة النظيفة وعبارات اللغة الفرنسية الشائعة. والأهم من ذلك كله، أنها كانت تحدث في أوساط علية القوم، مما عكس رضا السلطات عن الوضع.

أمضى إيفان إيليتش في تلك الخدمة خمس سنوات حان الوقت بانقضائها إلى تغيير المسار. فقد فتحت مؤسسات قانونية جديدة أبوابها لرجال جدد كانت الحاجة إليهم ملحة.

أصبح إيفان إيليتش أحد الرجالات الجدد. حيث عرضت عليه وظيفة قاضي استجواب في السلك القضائي. وقد سرّه ذلك برغم ما عنى ذلك

مكتبة الفكر الجديد

من انتقال من إقليم إلى آخر وما يصحب ذلك من ابتعاد عن المعارف السابقين والبحث عن معارف لاحقين. نظمت حفلة وداع للرجل وقدم له أصدقاؤه علبة سجائر فضية والتقطوا صورة تذكارية جماعية قبل أن يهمّ بالرحيل.

وافقت وظيفة قاض الإستجواب إيفان إيليتش موافقة ملائمة جداً وقد عززت من مستوى الإحترام الذي حظي به. فهو أفضل من يفرق بين المهنة الرسمية والحياة الخاصة وهذا ما ساعده على النجاح في موقعه الجديد الذي كان أكثر متعة وأكثر جزاء من موقعه السابق. كان يروق له في السابق أن يختال في مشيته مرتديا بدلة شارمر ويمشي الهوينى ماراً بالموظفين الحاسدين وأصحاب التظلّمات المتذمرين متوجهاً مباشرة إلى مكتب الحاكم ليجلس ويحتسي الشاي معه ويدخن السجائر. وهو لم يكن مسؤولا عن كثير من الموظفين حينها، اللّهم سوى قادة أجهزة الشرطة في الأرياف والمرتدّين عن الديانة الذين تناول قضاياهم. وقد راق له أن يتعامل مع أولئك الأشخاص المستقلين بلباقة وروح أخوية في معظم الأوقات ليشعرهم أنه برغم قدرته على سحقهم بسلطته الفوقية إلا انه يريد ان يتصارح معهم ويشعرهم بأنهم أصدقاؤه. أما الآن، وبعد أن أصبح قاضي استجواب، فقد شعر أن الجميع تحت إمرته من دون استثناء حتى أصحاب الشأن والجاه. فبجرّة من قلمه على ورقة مروّسة بشعار المحكمة يستطيع أن يحضر أيا كان ليمثل أمامه كمدعى عليه أو كشاهد ليُستجوبَ واقفا على قدميه إذا لم يأذن له إيفان إيليتش بالجلوس.

ورغم كلّ ذلك، فإن إيفان إيليتش لم يستغل منصبه البتة وقام بكل

مكتبة الفكر الجديد

ما بوسعه للتقليل من جاذبية سلطته. فمعرفته بوجود تلك السلطة والقدرة على التقليل من وهجها جعل وظيفته الجديدة أكثر متعة وجاذبية. أتقن إيفان إيليتش بسرعة فائقة تقنية الإبتعاد عن كل التفاصيل التي لا محل لها من الإعراب في القضايا التي كان يتناولها. أتقن تلخيص القضايا بالغة التعقيد وتدوينها بشكل موضوعي، مستثنياً أي رأي شخصي له، بينما التزم بالشكليات الرسمية الأكثر أهمية في هذا المقام. هكذا كانت طريقة العمل الجديدة وهكذا أصبح إيفان إيليتش من أول رجال القانون الذين طبقوا القانون العدلي المعدل لسنة ١٨٦٤.

وقد عنى انتقاله إلى بلدة جديدة ومهنة جديدة التعرف إلى أناس جدد وبناء صداقات جديدة. وقد اتّبع سلوكا جديدا أيضاً، إذ غيّر من نبرة صوته بعض الشيء ونأى بنفسه بعيدا عن سلطات الإقليم بينما تقرّب من أوساط رجال القضاء والرجال الأثرياء في البلدة. وقد رافق هذا التحول الجديد عدم رضا طفيف إزاء الحكومة ودرجة من الليبيرالية وحس فائق بأهمية الواجب العام، وفقاً لتصورات الرجال المتحضرين. ولكن من دون التفريط في ذات الوقت بدقة هندامه وحسن مظهره الخارجي الذي أبقى فيه هذه المرّة على شعر ذقنه من دون حلاقة إذ سمح للشعر النابت في ذلك المكان بالنمو في أي اتجاه شاء.

استقر إيفان إيليتش في البلدة الجديدة على نحو جيد. إزداد راتبه أيضاً والأمر الذي جعل معيشته ممتعة على وجه الخصوص هو لعبة الهويست التي كان يلعبها الآن بمتعة لاعب ورق محترف سريع البديهة وفائز في غالب الأحيان.

قابل إيفان إيليتش زوجة المستقبل بعد سنتين من العمل في تلك

مكتبة الفكر الجديد

البلدة. كانت براسكوفيا فيودرافنا ميكايل الشابة الأكثر جاذبية وذكاء وبهجة في الوسط الإجتماعي الذي عاش فيه. فبالإضافة إلى قائمة قنوات اللهو والترفيه والراحة التي سلكها إيفان إيليتش كاستراحات من عمل قاضي الإستجواب المضني، شكّلت ملاطفة ومغازلة براسكوفيا إحدى الإضافات.

فيما مضى، شارك إيفان إيليتش في حفلات الرقص وكان راقصا جيداً عندما عمل كمساعد في لجان خاصة، أما الآن فقد قلّت مشاركاته الراقصة لا سيما بعد تقلده منصب قاضي الإستجواب. وفي تلك الحالات القليلة التي كان يدخل فيها حلبة الرقص كان لسان حاله يقول: «انظروا، أصبحت جزءاً من النظام الجديد، وحصلت على الدرجة الوظيفية الخامسة، ولكن إذا أردتم أن أظهر لكم مستوى مهارتي في الرّقص فإنني سأكون الأفضل». وعليه، فإنه كان يرقص أحياناً مع براسكوفيا في نهاية المساء ومن خلال تلك الرقصات فاز بقلبها. وقعت في غرامه. ولم يكن لديه في ذلك الوقت خطة واضحة محددة للزواج. ولكن عندما وقعت الفتاة في غرامه بدأ يتساءل: «لقد قلت كل شيء؟ هل اختبرت كل شيء؟ فلماذا لا أقدم على الزّواج إذاً؟»

كانت براسكوفيا فيودرافنا تنتمي إلى عائلة جيدة وكانت فائقة الجمال. وتملك بعض المال أيضاً. كان من الممكن لإيفان إيليتش أن يتريث وينتظر فرصة أخرى للإرتباط بفتاة تفوقها حُسنا ومكانة، لكن براسكوفيا كانت تتمتع بالكثير من الصفات البارزة إذ شكلت صفقة رابحة بالنسبة له. كان الأمر يدعو للإنسجام فعلا. فهي فتاة طيبة جميلة ومحترمة. يمكن تبرير الإدعاء القائل أن إيفان إيليتش تزوج لأنه وقع في غرام عروسه ورأى فيها شخصاً يشاطره وجهة نظره في الحياة. وعلى

مكتبة الفكر الجديد

نفس النسق أيضاً، يمكننا أن نبرر زواجه لأنه كان متسقاً مع أعراف المجتمع الذي كان يعيش فيه بحيث لاقى زواجه استحسانا وقبولا. في الحقيقة، تزوج إيفان إيليتش للسببين معاً. فقد كان يرضي غروره بالزواج من امرأة فاتنة كتلك بالإضافة إلى إرضاء مرؤوسيه والتكيف مع الأعراف السائدة التي يبجّلونها.

وهكذا تزوج إيفان إيليتش.

إن فترة زواجهما في الأيام الأولى وكلّ ما صاحب ذلك من ملاطفات ومخالطة أعضاء وأثاث جديد وأواني خزفية وفخارية وملاءات وكل شيء آخر لغاية الوصول إلى فترة حمل براسكوفيا، كل ذلك سرى بلطف وانسياب وهدوء لدرجة أن إيفان إيليتش اعتقد أن الزواج لن يعرقل أسلوب حياته السهل الممتع السّار أي بكلمات أخرى: أسلوب العيش المعتمد على «قواعد اللياقة أو آداب السلوك» التي يقرّها المجتمع والتي اعتبرها إيفان إيليتش جزءاً من الحياة عينها ـ الآداب التي ستحسن من مستوى الحياة أيضاً. إلاّ أن الأشهر الأولى من الحمل غيّرت هذه النظرة. فقد حصل أمر جديد وغير متوقع ومزعج وصعب ومقزز، شيء لم يكن من الممكن توقعه ولا سبيل للتخلص منه بأية طريقة كانت.

لم يستطع إيفان إيليتش أن يدرك كنه المسألة. لم يفهم السبب وكان يردد في سرّه عبارة فرنسية تشير إلى «غياب أي سبب». بدأت زوجته بالفعل بعرقلة حياته الممتعة الهادئة. وأصبحت تحسده شخصيا من دون سبب واضح. وطلبت منه رعايتها اللصيقة والإهتمام بها عن كثب. وبدأت بإثارة الخلافات والشجارات التي كانت فظة سوقيّة على نحو مزعج تماماً.

مكتبة الفكر الجديد

في البداية، كان إيفان إيليتش يأمل بالهروب من هذا الوضع المزعج الجديد من خلال اللجوء إلى إسلوب حياته المحترم الهادىء الخالي من الهمّ الذي لطالما استمتع به في السابق، إذ حاول تجاهل تقلب مزاج زوجته وكأنّ شيئاًلم يكن. واستمر في دعوة أصدقائه للعب الورق والخروج إلى النادي وزيارة المقربين. لكن الأمر تطور وأتت فترة بدأت فيها زوجته بالصراخ عليه بحدة عجيبة. وبدأت باستخدام ألفاظ نابية وكلمات سوقية وازداد تصميمها على الصراخ في وجهه كلما فشل في القيام بأمر طلبت منه القيام به وذلك بنية تحطيم معنوياته وصولاً إلى البقاء في المنزل ومشاطرتها العذاب ذاته الذي تشعر به وبالتالي الوصول إلى درجة الشعور بالرعب. أيقن إيفان إيليتش أن الحياة الزوجية ـ على الأقل حياته الزوجية ـ لم تعنِ دائماً الشعور بالمتعة والتزام الأدب. بل على العكس، إنها تنغّص الحياة الهادئة وتعرقل المتعة وتخلّ بالأدب. ويجب الإحتراس من ذلك. بدأ إيفان إيليتش يقلب عن طرق للإحتراس من ذلك. ووجد ضالته في عمله والإلتزامات المرتبطة به وواجه براسكوفيا بذلك مؤكداً على استقلاليته.

ومع ولادة الطفل الأول وما تبع ذلك من صعوبات الرضاعة والأمراض الحقيقية والإفتراضية التي تلحق بالطفل وأمه، تتطلب ذلك تدخل إيفان إيليتش وعطفه برغم جهله بكل تلك الأمور. إلا أن ذلك حثّه أيضاً على حماية استقلاله الذي أصبح ملحاً أكثر من أي وقت مضى.

وبينما ارتفع سقف طلبات زوجته وازدادت حدّة انفعالاتها، حوّل إيفان إيليتش تدريجيا مركز جاذبية حياته نحو عمله. فقد أحبّ عمله أكثر فأكثر وأصبح أكثر طموحا عما كان عليه في السابق.

مكتبة الفكر الجديد

لم يستغرق الأمر وقتا طويلا ـ سنة واحدة بعد الزواج ـ ليدرك إيفان إيليتش أنه برغم توفير الحياة الزوجية لبعض أسباب الراحة إلا أنها كانت في واقع الأمر أكثر تعقيدا وصعوبة مما كان يعتقد. وأدرك أيضاً أن طريق الواجب، أي الحياة اللائقة وفقا لمعتقدات المجتمع، يتطلب موقفا واضح المعالم، كما هو الحال في العمل.

وقد استطاع إيفان إيليتش أن يتخذ موقفا كهذا إزاء حياته الزوجية. وملخص موقفه هو أن يحصل على أي من أسباب الراحة المنزلية كوجبة ساخنة على الطاولة ومسكن لائق وسرير مريح والأهم من ذلك كله أن تعكس حياته الزوجية للمجتمع الخارجي الوجاهة الإجتماعية الضرورية التي تتمخض عن كون المرء متزوجاً وسعيداً داخل منزله، ولو زيفاً. أما خلاف ذلك، فقد كان يسعى لبعض المتع الحسية، إن وجدت. أما إن قوبل بالردّ والصدّ والمزاج النكد فقد كان ينسحب إلى عالمه المحصّن المستقل، عالم العمل الذي استقى منه متعة من نوع آخر.

أُعتبر إيفان إيليتش زميلا جيداً وقد حظي باحترام الجميع ورُقي خلال ثلاث سنوات ليصبح مساعد المدعي العام. ونتيجة لمهامّه الجديدة وأهميتها وكل ما يتصل بها من قدرة على إحضار المتهمين ليمثلوا أمام المحكمة وإرسالهم إلى السجن إن أدينوا وشهرة مرافعاته داخل المحكمة والنجاح الذي حظي به في جميع تلك المسائل، كل ذلك أفضى إلى زيادة الشعور بالمتعة في عمله.

أنجبت زوجته أطفالاً آخرين. وأصبحت تبعا لذلك أكثر انفعالا ونكدا. لكن موقف إيفان إيليتش الجديد إزاء حياته المنزلية جعله يتأثر بلا شك بحدة طبعها وسوء مزاجها.

مكتبة الفكر الجديد

فبعد انقضاء سبع سنوات في هذه الوظيفة إنتقل إيفان إيليتش إلى إقليم آخر وتقلّد منصب المدعي العام. إنتقلت العائلة إلى المكان الجديد الذي لم يرُق لزوجته بالإضافة إلى عدم كفاية المال الذي كان بحوزتهم. فكما ازداد راتبه ازدادت مصاريف العائلة أيضاً. وفوق ذلك كله، توفي طفلان من أطفالهما، مما جعل حياته العائلية أكثر قساوة وتكديراً للنفس.

ألقت براسكوفيا باللائمة على إيفان إيليتش لكل النكسات التي عانى منها في مكان سكنهم الجديد. وكانت جميع المواضيع التي كانت تطرح للمحادثة بشأن تربية الأطفال وما شابه ذلك تفضي إلى أسئلة تؤدي بدورها إلى إثارة شجارات الأمس والإستعداد لإشعال شجارات طازجة جديدة. وبرغم وصولهما أحياناً من خلال هذه الجلسات الصاخبة إلى فترات من الإنهاك وربما الإنجذاب نحو الجنس، إلا أن هذه الفترات الحميمية تلك لم تستمر طويلا. كانت تلك الفترات المقتضبة شبيهة بجزر صغيرة ترسو سفينتهما فيها لبعض الوقت ثم تعود مسرعة لشق عباب البحر اللجّي المظلم المليء بالعداوات والضغائن التي تفصل سفينته عن سفينتها مسافات رهيبة. كان يمكن لهذا الإنفصال والتباعد أن يقضّ مضجع إيفان إيليتش لو علم أن ذلك يشكل خطأ فادحاً. إلاّ أنه لم يعتبر ذلك التباعد أمرا طبيعيا وحسب بل مثّل بالنسبة له الدور الذي يجب أن يضطلع به في الأسرة. فدوره أن يبتعد تماماً وعلى نحو مضطرد عن أي منغّصات بل ويحترم تلك المنغّصات من دون أن يرفّ له جفن. وهكذا وصل إلى مبتغاه من خلال تقليص الوقت الذي يجمعه بأسرته وإذا ما اضطر أن يكون مع أسرته فإنه يلجأ إلى تحصين موقعه من خلال وجود طرف ثالث. لكن الأمر الأساسي أن إيفان إيليتش كان يعمل. ومن

مكتبة الفكر الجديد

خلال عالمه العملي إستطاع أن يتشبث بالحياة ويستقي منها المتعة. وهذا ما كان يعكف عليه بشراسة. فمعرفته بالنفوذ الذي يمارسه وقدرته على تحطيم أي شخص أراد تحطيمه والهيبة التي كانت تفوح من تحركاته عندما كان يمشي إلى قاعة المحكمة وهالة الإحترام التي كان يفرضها على من دونه والنجاح الذي كان يتمتع به مع من فوقه ودونه على السواء ـ وأكثر من ذلك كله، إتقانه وبراعته في تناول القضايا ـ كل ذلك أدخل السرور إلى قلبه وملأ حياته بالإضافة طبعاً إلى تجاذب أطراف الحديث مع الزملاء وحفلات العشاء ولعب الهويست ـ كل ذلك ملأ أوقات فراغه. وهكذا مضت الحياة كما اعتقَد أنها ستمضي ـ بلطف وكياسة واحترام وهيبة.

عاش كذلك سبع سنوات إضافية. وقد بلغت ابنته الكبرى ست عشرة سنة. توفي طفل ثالث وعاش له ولد أصبح فيما بعد مثار جدل عقيم بينه وبين زوجته. أراد إيفان إيليتش أن يرسله للدراسة في كلية الحقوق لكن براسكوفيا تحدّت زوجها وأرسلته إلى الكلية العليا. أما الإبنة فدرست في المنزل وتطورت بشكل جيد. والإبن أيضاً أبلى بلاء حسناً في دراسته.

مكتبة الفكر الجديد

٣

وهكذا اتبع إيفان إيليتش ذلكم المسار الذي اختطّه لنفسه على مدى سبعة عشر عاماً بعد زفافه. فقد أصبح الآن وكيل نيابة أول. وقد رفض العديد من فرص الإنتقال إلى مهنة أخرى لأنه أراد أن يرتقي سلم هذه المهنة ليبلغ ذروتها. لكن ظروفا فجائية قاسية عصفت به وبدت أنها ستزعزع أركان التقدم السلمي في حياته على نحو كامل. كان إيفان يتوقع أن يُعيّن كرئيس للقضاة في مقاطعة الجامعة في الحكومة المحلية لكن هوبْ هزمه وحصل على الوظيفة. إستشاط إيفان غضبا ولمّح في أحاديثه عن عدم رضاه عن تعيين هوب وقرار مرؤوسيه المباشرين. ولكنه قوبل بتوبيخ تقشعر له الأبدان وتم تجاوزه أيضاً عندما سنحت فرصة أخرى للتعيين.

حصل ذلك سنة ١٨٨٠، السنة الأشد قساوة عليه. فقد اتضح أنه لم يستطع خلالها أن يفي بالتزاماته المادية ولم يستطع أن يدافع عن موقفه، إذ ظن أنه وقع فريسة الإجحاف المؤلم بينما رأى جميع زملائه أن العدالة قد شقت طريقها ولم يكن ثمة ظلم وقع عليه ولم يكن ضحية البتة. حتى أباه لم يقتنع أن من واجبه مساعدته. هجره الجميع واعتقدوا أن وضعه وراتبه البالغ ٣٥٠٠ روبل كان وضعا طبيعيا بل وضعا يحسد عليه. لكنه كان الشخص الوحيد الذي علم يقينا أن وضعه لم يكن طبيعيا

مكتبة الفكر الجديد

بسبب ما تعرّض له من ظلم وما سمعه مرارا وتكرارا من زوجه اللجوج اللحوح وما استدانه من أموال جعلته يقع في مصيدة الدّيْن بسبب عدم التوافق بين ما كان يصرفه وما كان يتقاضاه.

ولكي يخفف من وطأة المصاريف، حصل في هذا الصيف على إجازة واصطحب زوجته لقضاء عطلة في الريف في منزل صهره. وهناك، جرّب إيفان، ولأول مرة، ليس فقط معنى الملل بل العذاب الذي لا يطاق بسبب عدم انهماكه في العمل كما كان يفعل. وقرر أنه لا يستطيع الإستمرار على تلك الحال بل يجب اتخاذ تدابير لتفادي الوضع القائم.

وخلال ليلة أرق، أمضاها غدوا ورواحا في الشرفة الخارجية، قرر أن يذهب إلى مدينة بطرسبورغ ليقدم اعتراضاته. سوف ينتقم من أولئك الذين قللوا من شأنه ويطلب نقلاً من مهنتة الحالية إلى مهنة أخرى في إحدى الوزارات المختلفة. في الصباح التالي، تحدّى اعتراضات زوجته وأخيها وانطلق إلى بطرسبورغ.

غادر إيفان وفي جعبته هدف أوحد: أن يحصل على وظيفة تدرّ عليه ٥ آلاف روبل في السنة. لم يكن إيفان يُدين بالولاء لأية وزارة أو فئة من الموظفين أو مهمة بعينها. كل ما أراده هو الحصول على وظيفة براتب مجموعه ٥ آلاف روبل سنويا. فلتكن وظيفة إدارية أو في المصرف أو في مصلحة السكك الحديدية أو في المؤسسات الخيرية التي أسستها أرملة الآمبراطور دويجر «ماريا» أو حتى في مصلحة الجمارك. كلّ ما كان يعنيه هو مبلغ الخمسة آلاف روبل سنويا ونقل فوري من الوزارة التي ما قدروه فيها حق قدره.

مكتبة الفكر الجديد

وبالفعل، تُوِّجتْ رحلته بنجاح غير متوقع ويصعب تصديقه. ففي كورسك، صادف أن جلس معه في نفس المقطورة شخص كان يعرفه في زمن سابق واسمه فيودور سيميونوفيتش إيلِيين وقد أخبره هذا أن حاكم الإقليم استلم لتوه برقيّة تخبره بإجراء تعديلات وزارية وأن إيفان سيميونيفيتش كان قد استبدل ببيتر إيفانوفيتش.

وقد عنى ذلك التغيير، بصرف النظر عن تأثيراته على عموم روسيا، عنى ذلك شيئاً خاصا لإيفان إيليتش: فبروز نجم بيتر بيتروفيتش وصديقه بالطبع زاخار إيفانوفيتش مثل خبراً ساراً جداً له. فقد كان زاخار إيفانوفيتش صديقا وزميلا له.

تم التأكيد على هذه الأنباء في موسكو. وبعد وصوله إلى بطرسبورغ التقى إيفان بزاخار الذي وعده بمنصب في وزارته السابقة، وزارة العدل.

وخلال أسبوع إستطاع إيفان أن يرسل البرقيّة التالية لزوجته: عُيّن زاخار مكان ميلر. وسأعيّن أنا مع الدفعة الأولى. وفعلا، وبسبب هذه التغييرات، عُيّن إيفان، وعلى نحو مفاجىء، في منصب في وزارته السابقة، إرتقى من خلاله درجتين مقارنة مع زملائه. وقد خوّله هذا المنصب الجديد الحصول على ٥ آلاف روبل كراتب سنوي و٣٥٠٠ روبل بدل نفقات النقل. وقد تبدد شعور الضغينة إزاء أعدائه في الوزارة عموما بمجرد استلامه لمنصبه الجديد وأصبح إيفان إيليتش رجلا سعيدا مجددا.

قفل راجعاً إلى الرّيف بروح معنوية عالية وبرضا لم يشعر به منذ وقت طويل. وقد انعكس ذلك على معنويات براسكوفيا وأعلن عن هدنة بينهما. وقد وصف إيفان شعوره بالفخر إبان وجوده في بطرسبرغ

مكتبة الفكر الجديد

وشعور أعدائه السابقين بالعار الذي دفعهم لأن يلعقوا حذاءه الآن ويحسدونه على منصبه الجديد وفوق هذا كله تحدّث عن تداول اسمه في كافة أرجاء بطرسبورغ وتعزيز شهرته بذلك.

وقد أطرقت براسكوفيا سمعها متكلفة تصديق كل كلامه لكن همّها الوحيد كان مُنصباً على رسم مسار جديد وأسلوب حياة مغاير في المدينة التي سينتقلون إليها. وقد غمرت إيفان الفرحة عندما أيقن أن خطط زوجته توافقت مع خططه وأنهما أصبحا الآن في لحمة واحدة كزوج وزوجة وأن تعرُّضه لنكسة سابقة لن يعكر صفو الحياة القادمة المليئة بالسعادة والإحترام والمكانة الإجتماعية المرموقة.

لم يمكث إيفان في الرّيف لفترة طويلة. بل عاد إلى بطرسبورغ حيث باشر عمله في العاشر من أيلول / سبتمبر.

كان على إيفان أن ينتقل إلى بطرسبورغ ليستلم مهامه في العاشر من سبتمبر. ولكن قبل ذلك تعين عليه أن ينقل متاعه من الإقليم إلى مسكنه الجديد ويشتري ما ينقصه ـ بمعنى آخر، كان عليه أن يؤسس بيتاً وفقاً لتصوراته وخططه التي تطابقت مع تصورات وخطط زوجته.

والآن، وبعد نجاح التحضيرات واتساق أهداف الزوج والزوجة اللذين لم تكن علاقتهما على ما يرام في الآونة الأخيرة، تحسنت علاقتهما أكثر من أي وقت مضى منذ بداية الزواج. فكر إيفان في الإنتقال مع عائلته على الفور ولكن بعد إلحاح أخت زوجته وأخيها، اللذين حاولا التقرب منه في تلك الفترة على نحو مفاجىء، تقرر أن يذهب إيفان بمفرده.

غادر إيفان إلى بطرسبورغ بمفرده ولم تفارقه طيلة الرحلة مشاعر

مكتبة الفكر الجديد

السعادة التي ولّدتها نجاحاته وقربه من زوجته. ووجد مكانا مريحا مبهجا تمثّل في شقة الأحلام له ولزوجته. غرف الضيوف الواسعة ذات السقوف العالية والديكور القديم الفخم التقليدي وغرفة المكتب الرائعة وغرف الزوجة والإبنة وغرفة دراسة ابنه ـ كلها بدت وكأنها صُممت خصيصا لهم. وكأنها فصلت على مقاسهم. وقد اضطلع إيفان بمهمة تنظيم وترتيب الأثاث واختار ورق الجدران واشترى اثاثا من الطراز القديم رأى فيه ملامح ملائمة جداً لأسلوب حياته. وشيئاً فشيئاً اكتمل عقد الشقة بكمال ورونق خطط له وأصاب. حتى أن الأمور فاقت توقعاته مع إنهاء نصف المهمة ـ مهمة تجديد المنزل وتأثيثه. وقد استشرف الجمال الذي سيصبغ المنزل لدى إنهائه من دون بذخ ولا مبالغة. وعندما خلد إلى النوم تقاطرت عليه الأفكار حول ما ستبدو عليه غرفة الجلوس بعد إنهائها وبينما نظر في غرفة الإستقبال غير المكتملة تخيل المدفأة والستار الفاصل ومجموعة الرفوف لحلي الزينة والكراسي صغيرة الحجم الملتفّة حول الغرفة والصحون والأطباق وأواني النحاس، كل شيء في مكانه بترتيب وانتظام. وفكّر في مفاجأة باشا وليزانكا (ابنه وابنته) وانبهارهما بالمنزل وهما اللذان لا ينقصهما الحس الجمالي بالأشياء. ولكن هذا المنزل سيفوق توقعاتهما. وقد وُفّق إيفان في اختيار ما يلزم لا سيما التحف التي اشتراها بأسعار مناسبة جداً والتي أضفت على المكان سحرا خاصا. وقد حاول ان يقلل من قيمة ما كان يفعله في مكاتباته لعائلته لكي يصابوا بالدهشة قبل أن يروا الأمر على حقيقته. وقد طغت عليه مشاعره المتصلة بتأثيث المنزل ومضاعفة رونقه أكثر من عمله الذي أحبه وكان شغوفا به. فقد كان يجمح خياله وهو في المحكمة ويصل به إلى التفكير في صباغة إفريز الستائر أو عدم صباغته. وأصبح منهمكاً في

مكتبة الفكر الجديد

ذلكم الأمر لدرجة أنه قام بنفسه بأعمال معيّنة في المنزل كتغيير موقع الأثاث أو إعادة تثبيت الستائر أو ما شابه. ففي احدى المرات، صعد السلم ليبيِّن لمنجد أثاث خفيف الذهن كيفية تعليق قماش الستائر فانزلق ووقع، ورغم قوته ورشاقته إلاّ أنه وقع على خاصرته وارتطم بنتوء إطار النافذة. شعر بالألم من جراء الكدمة إلاّ أن الألم ما لبث أن اختفى بسرعة. واستمر بالتمتع بصحة جيدة ومعنويات عالية طيلة تلك الفترة. «يبدو وكأنني عدت إلى سن الشباب.. أشعر أنني اختزلت من عمري الفعلي خمسة عشر عاما» كتب ذلك في إحدى رسائله لعائلته. وقد خطط لإنهاء الترتيبات بانتهاء شهر سبتمبر بينما انتهى من ذلك فعلياً في منتصف اكتوبر. وقد شكل ذلك نجاحا باهرا ليس من وجهة نظره فقط بل من وجهة نظر الجميع.

ولكن كل تلك الترتيبات المنزلية الخارجية والداخلية كانت في ذلك العصر تمثل مُراداً لجميع البشر الذين يريدون أن يظهروا بمظهر الأغنياء لكنهم في الواقع ليسوا كذلك. وكل ما يستطيعون فعله هو أن يتماثلوا مع غيرهم من الأُسر: الدِّمقس والأبنوس والنباتات والسجاد والبرونز واي شيء باهت اللون أو مظلم ـ كل شيء يحدثه جميع الناس من طبقة معينة ليصبحوا متماثلين مع جميع الناس الآخرين المنتمين إلى طبقة معينة. وكل ما قام به إيفان هو ترتيبات منزلية ظن أنها مميزة ولكنها في الحقيقة كانت شبيهة جداً بترتيبات الآخرين بحيث فقدت بريقها. فعندما استقبل عائلته في محطة القطار وجاء بهم إلى المنزل وقادهم إلى الشقة المضاءة وعندما فتح لهم الباب بوابٌ بربطة عنق بيضاء ودخلوا الردهة المزينة بالأزهار وغرفة الإستقبال والمكتبة وتأوهوا وتعجبوا وانبهروا شعر إيفان بفرحة لا تعادلها فرحة. وبدأ يظهر لهم حسن اختياراته

مكتبة الفكر الجديد

مستمتعاً بالمديح المنهال عليه مالئاً قلبه بالفخر والسرور. وبينما كانت العائلة تحتسي الشاي في ذلك المساء سألته براسكوفيا عن إصابته على نحو عرضي ضحك إيفان وشرح موقفه عندما طار من على السلم ودبّ الذعر في قلب المُنجّد المسكين. وأردف إيفان: «من المفيد أنني شخص رياضي. ولو أن شخصاً آخر كان في مكاني للقي حتفه ولكنني أصبت بكدمة بسيطة هنا. تؤلمني عندما ألمس موضع الرّضة ولكنها تتحسن. هي مجرد كدمة»

وهكذا بدأت الحياة في المنزل الجديد. وطبعا، كما يحصل دائماً مع من ينتقل للعيش في مكان جديد، وجدت العائلة نفسها بحاجة إلى غرفة إضافية لكن الراتب الجديد لا يفي بتكاليفها بالطبع رغم أن تكفلة ذلك يستدعي وجود ٥٠٠ روبل اضافية فقط. ولكن، لا يهم، فقد استمتعت العائلة بالبيت الجديد لا سيما في الأيام الأولى التي تخللتها عمليات شراء وتعديل وحجز وإعادة ترتيب وتعديل لسدّ ثغرات لم تكن قد سُدّت بعد. وقد طفت على السطح بعض الإختلافات الطفيفة بين الزوج وزوجته، مرة أو مرتين، ما لبثت أن حُلّت ليستمتع الطرفان بأوقاتهما من دون نكد ولا محاججات مقيتة. ومع سدّ جميع الثغرات وإنهاء جميع المهمات شعرت العائلة أنّ ثمة أمر ناقص. بدأ الملل يتسرب إلى أركان المنزل ولكن لحسن الحظ تعرفت الأسرة على أشخاص جُدد وتبنّت عادات جديدة دفعت حياتهم إلى الأمام ونحّت الملل جانبا.

كان دأب إيفان أن يأتي المنزل لتناول وجبة الغداء بعد أن يقضي الفترة الصباحية في المحكمة وكان يميل إلى المزاج الطيب لا سيما في

مكتبة الفكر الجديد

الأيام الأولى: أما ما كان يعكر صفو مزاجه قليلاً فكان يأتي من داخل المنزل (كلطخة رآها على غطاء الطاولة أو قماش الأثاث، أو خيط متهدل من قماش الستائر. كل ذلك كان يزعجه لأنه بذل جهدا عظيما في ترتيب الأثاث وأي خلل بسيط فيه كان يزعجه). ولكن الحياة وما اعتبره مهما فيها كان ماضيا على قدم وساق بحسب الخطة ـ على نحو سلس ولطيف ولائق. كان إيفان يستيقظ في التاسعة، يحتسي بعض القهوة ويقرأ الجريدة ويضع بعدها زي العمل ويتوجه إلى المحكمة. وفي العمل، بدت الأمور اعتيادية بالنسبة له فقد كان قد تعود عليها. وما لبث أن طاب له سبر أغوار التفاصيل: المتخاصمون، المدّعون، الإستعلامات، التحقيقات، الطلبات، المكتب، الجلسات العامة، والإجتماعات الإدارية. وفي كل ما كان يقوم به كان الأمر يقتضي التخلص من عناصر الحياة اليومية التي تعطل مسار العمل الرسمي السلس. فلا يسمح، على سبيل المثال، ببناء علاقات خارج الإطار الرسمي والسبب وراء ترسيخ أية علاقة يجب أن يكون سببا رسميا محضا إذ تغدو العلاقة بالتالي رسمية محضة. فعلى سبيل المثال، لو أن شخصاً ما أراد معرفة أمر ما. فهذا لا يندرج ضمن مسؤوليات إيفان وعليه فلا علاقة تربطه بالسائل. ولكن لو ان شخصاً آخر أراد مقابلته بصفته فردا من العاملين في السلك القضائي مصطحبا رسالة ذات ترويسة تُبين مكان عمله. ففي حدود تلك العلاقة يستطيع إيفان ان يقوم بالمطلوب على نحو محدد بينما يحافظ على شيء شبيه بالعلاقات الإنسانية اللطيفة في حدود المجاملة واللباقة فقط. لا أكثر ولا لأقل. إنّ مهارة الفصل بين ما هو شخصي وما هو رسمي كانت مهارة يتمتع بها إيفان لأعلى درجة. فالممارسة المديدة والموهبة الخالصة جعلته قادرا

على تشذيب تلك المهارة لدرجة تخوله ان يلعب دور شبيها بدور العازف الموسيقي البارع الذي يسمح لنفسه أحياناً بالخلط بين ما هو رسمي وشخصي عن طريق الدعابة ويسمح لنفسه بذلك لإنه يعلم تماماً أنّ باستطاعته التفريق بين الرسمي والشخصي والتخلي عن اللاحق متى شاء. هذه الموهبة كانت تتعدى أن تكون مجرد شيء لطيف أو سهل بل أمرٌ مرتبط بأداء شخص خبير. خلال فترات الإستراحة، كان إيفان يُدخن ويحتسي الشاي ويحاور الآخرين ويعلق بكلمة أو كلمتين على السياسة وشؤون الساعة ولعب الورق ويتحدث كثيراً عن الأشخاص الذين دخلوا المحكمة وأولئك الذين غادروها. يذهب إلى المنزل تعباً ولكن يشعر وكأنه عالِمٌ في فن الموسيقى وملكٌ في العزف على الكمان في أوركسترا ذات أداء باهر. وفي المنزل تكون زوجته وابنتها في زيارة لمنزل آخر أو في استقبال ضيوف بينما ابنه يكون عائدا من المدرسة يمضي حصة تدريسية في المنزل مع مدرّسه ومن ثم يجلس لاجترار ما تحصل عليه من علم في ذلك اليوم. كل شيء كان على ما يرام. وبعد العشاء إذا لم يكن ثمة زوّار يطالع إيفان كتابا أتى على ذكره أحدهم. بعدها يقوم بأداء بعض العمل ويقرأ الجرائد ويدرس القانون ويقارن بين الإفادات والشهادات المقرونة بقسم ويفرزهم وفقا للنظام الأساسي. لم يكن ليشعر بالملل إزاء عمل كهذا ولا يشعر بالتسلية أيضاً. كان يشعر بالملل عندما يلعب الهويْست أحيانا. ولكن كان ذلك أفضل من أن يجلس بمفرده أو مع زوجته. ولكن الأمر الذي كان يشعره بالرضا واللذة أكثر من غيره هو تنظيم حفلات عشاء يدعو فيها النساء والرجال من الطبقات الإجتماعية المرموقة ليمضي معهم الوقت كما يمضي الوقت عادةً في

مكتبة الفكر الجديد

مناسبات كهذه وبالطريقة ذاتها في غرف استقبال شبيهة بغرف استقبال أخرى في غيرها من المنازل.

نظّم إيفان إيليتش حفلة عشاء راقصة. وأمضى وقتا ممتعا باستثناء مشاجرة شبت بينه وبين زوجته سببها الحلويات والكعك. فقد كان لدى براسكوفيا أفكارها الخاصة إلاّ أن إيفان أصرّ على استقدام صانعي حلويات وفّروا كماً لا بأس به من الحلويات. أما ما تبقى فقد كان سببا وراء المشاجرة لأن فاتورة الحلويات وصلت إلى ٤٥ روبل. لقد كانت مشاجرة قذرة وفاحشة وقد انتهت إلى نعت إيفان بالغبي الأحمق بينما هو وضع يديه على رأسه وتمتم بشيء من قبيل الطلاق. ومع ذلك، فقد استمتع بالحفلة. فقد كان الحاضرون من عِلية القوم وقد راقص إيفان الأميرة تروفونوفا أخت السيدة التي أسست مؤسسة خيرية أسمتها «إذهب بحزني بعيدا». اللذة التي كان يستقيها إيفان من عمله كانت لذة ذاتية أما لذة الحفلات فكانت لذة ترضي غروره. وقد كان مستعداً للإعتراف بذلك. ورغم وجود منغّصات كثيرة فإنّ اللذة التي تفوقت على غيرها بامتياز وشكلت منارة يهتدي بها هي الجلوس إلى طاولة الهويست مع ثلاثة لاعبين آخرين هادئين حاذقين (أما إن كان اللاعبون خمسة فمن يتفرج يشعر بالممل مع تصنع غير ذلك) واللعب بجدية وباحتراف (عندما يحالفك الحظ بالطبع) قبل الإنتقال لتناول طعام العشاء مع كأس من النبيذ. وبعد انتهاء اللعب لا سيما اذا كان من الرابحين لمبلغ يسير (الفوز بمبالغ طائلة ليس جيدا) يخلد إيفان إلى النوم بمعنويات رائعة.

وهكذا كانت حياتهم. معارف من الطبقات الراقية واستقبال لأناس رفيعي المقام ومجموعات من الشباب.

مكتبة الفكر الجديد

إجتمعت الزوجة والزوج والإبنة على رأي واحد فيما يتعلق بمدّ الجسور مع دائرة معارفهم. ومن دون أي تواطؤ، قام كل واحد منهم وبالطريقة ذاتها بتجاهل الأصدقاء والأقارب الذين لا يرتقون إلى مستوى معارفهم والذين أصروا على زيارتهم لرؤية منزلهم ورؤية الأطباق اليابانية التي تلف الجدران. لم يستمر الأمر طويلا قبل أن يكفّ أولئك الأصدقاء البسطاء والأقارب المتطفلين عن الزيارة إذ تركوا عائلة جولوفين وشأنها يجتمعون بما يفرزه المجتمع من أفراد ينتمون إلى الطبقات المخملية. أثارت ابنتهم ليزا إعجاب الشباب لا سيما قاضٍ في المحكمة الإبتدائية يدعى بيتريشتشيف وهو ابن ديمتري إيفانوفيتش بيتريشتشيف ووريثه الوحيد. فقد تقرب ذلك الشاب من ليزا لدرجة ان إيفان لاحظ ذلك وذكره لزوجته مرة أو مرتين متسائلاً عن إمكانية أن يذهبوا جميعاً في نزهة في عربة يجرها ثلاثة أحصنة أو ربما أن يذهبوا إلى المسرح. هكذا عاشوا. لم يتغير شيء. كل شيء كان على ما يرام.

٤

تمتع جميعهم بصحة جيدة. وحقيقة أن إيفان إيليتش كان يشكو من مذاق غريب في فمه وشعور غريب في خاصرته اليسرى لم يعتبر ذلك أي منهم مدعاة للقلق.

ولكن ما حصل أن هذا الشعور الغريب بدأ يسوء ويتحول إلى، إن لم نقل ألم، إحساس مرهق مستمر في خاصرته أثّر على مزاجه سلبياً. ومزاجه المعكّر هذا ازداد سوءاً وبدأ يُعكر صفو حياة عائلة جالوفين المحترمة. تأزمت العلاقة بين الزوجين وعصفت بها شجارات متتالية أدت إلى اختفاء الحياة اللطيفة السلسة باستثناء تصنع وجودها للإبقاء على نوع من الحشمة في التعامل مع الآخرين. كل ما تبقّى للزوجين هو الحدّ الأدنى من التوافق بينهما على بعض الأمور اليسيرة أما غالبية الأمور الأخرى فكانت تُشعل النزاع بينهما.

والآن بدأت براسكوفيا تقول وبدون مبرر أن زوجها رجل صعب المراس. ووفقا لقدرتها الإعتيادية على المبالغة فإنها ادّعت أنه كان دائماً وأبدا رجلاً كريها بغيضا وإنّ طبيعتها الحسنة وقلبها الطيب مكّناها من تحمّل ذلك طيلة العشرين سنة الماضية. كان صحيحاً أنه هو الذي كان يشعل جميع المشاجرات. إذ كان يبدأ بسخريته واستهزائه بمجرد جلوسهم إلى طاولة الغداء وغالبا مع تناول الحساء. ودائما ما كان يجد

مكتبة الفكر الجديد

عيبا في أمر ما ـ فإن لم يكن ذلك العيب مرتبطاً بآنية خزف متصدّعة أو طبق طعام لم يحلُ له فسيكون متعلقا بالطريقة التي يضع فيها ابنه مرفقيه على الطاولة أو الطريقة التي تزين فيها ابنته شعرها. وكل خطأ دائماً وأبداً مصدره براسكوفيا. كانت تنتفض براسكوفيا وتجادله وتتفوه بكلام قذر في البداية ولكنها بعد أن شهدت في مناسبتين إصابته بنوبة غضب شديد أيقنت أن الأمر عارض لحالة مرضية ما مرتبطة بتناول الطعام وعليه فإنها ابتلعت السكين وكفت عن الإعتراض والمشاجرة والتهمت طعامها بأسرع وقت ممكن. وباقتناعها أنّ زوجها رجل كريه مقزز حوّل حياتها إلى جحيم وبؤس لا يطاق أصبحت الآن أسفة على نفسها. وكلما ارتفع سقف أسفها على نفسها أرتفع سقف كرهها لزوجها. وبدأت تتمنى هلاكه ومن ثم تتمنى بقاءه لأنها من دونه ستفقد المدخول المادي الذي يتقاضاه. كل ذلك جعلها أكثر سخطاً وحنقاً عليه. فقد شعرت بالبؤس العارم لفكرة أنه حتى موته لن ينقذها. شعرت بالغيظ لكنها كتمته لكن ذلك الكتمان عزز من تفاقم درجة الغيظ لدى زوجها.

في مناسبة من تلك المناسبات كان إيفان ايليتش مجحفاً تماماً وبعد ان اعترف بذلك وقال انه كان مغتاظاً وادّعى أن ذلك مرده أنه كان مريضاً قالت له زوجته إنه يتعين عليه تلقي العلاج إذا كان مريضا وأصرت على ذهابه لرؤية طبيب مشهور. وقد فعل ذلك. وقد جرت المقابلة تماماً كما كان يتوقعها وكما تجري عادة. طلب منه أن ينتظر وكان الطبيب متبجحاً يملؤه الشعور بالأهمية ـ وهذا شعور يعرفه إيفان جيداً لأنه كان يتمثله في المحكمة ـ بعد ذلك أتى دور الفحص السريري وطرح الأسئلة المتعمدة والإجابة عنها بشكل مفرط والنظرة الثاقبة التي تقول، «إستسلم لنا ونحن سننجز الأمر على أحسن وجه، نحن نعلم

مكتبة الفكر الجديد

صنعتنا جيداً ولا شك في أننا نستطيع القيام بواجبنا بغض النظر عن اسم المريض.. مهمتنا معالجة المرضى.. كن مطمئنا» كان الأمر شبيها بالمحكمة. فالطريقة التي كان ينظر فيها إيفان إلى المتهم هي ذات الطريقة التي ينظر فيها الطبيب المشهور الآن إليه.

بيّن الطبيب التالي: هذا وذاك يظهر أن ثمة ذلكم وذلكم في جسدك ولكن اذا لم تثبت التحاليل ذلكم وذلكم فعليك عندها أن تخضع لتلكم وتلكم من الإجراءات، بعدها.. وهكذا دواليك. لكن ما كان يدور في خلد إيفان هو سؤال واحد فقط: «هل حالتي المرضية تهدد حياتي بالفناء.. هل هي حالة مستعصية خطيرة؟ لكن الطبيب تعامل مع هذا السؤال على أنه لا محل له من الإعراب. وهكذا تجاهله. فمن وجهة نظره كان سؤالا لا معنى له وغير خليق بالنقاش. الأمر الوحيد القابل للنقاش هو موازنة الإحتمالات: كلية عائمة أو التهاب قولوني مزمن أو مشاكل مرتبطة بالمصران الأعور عند بداية المعى. أما سؤال استمرار حياة إيفان أو انقضاؤها فلم يُثر. ثمة فقط تضارب بين حالتين: الكلية المتدلّية أو العائمة أو المصران الأعور. وقد حل الطبيب هذا التضارب وقتها ومال إلى تشخيص الكلى العائمة بشرط واحد هو ظهور دليل جديد مغاير يتأتى من فحص البول. وإذا حصل ذلك فإنّ الحالة ستستعرض من جديد. كانت المعاينة من البداية إلى النهاية أشبه بما كان يقوم به إيفان في المحكمة وبعبقرية كعبقرية الطبيب. بالفعل، تمثّلت عبقرية الطبيب في تلخيص الموقف عندما نظر من وراء نظاراته بفخر وسرور وشعور بالإنتصار إلى سجينه القابع في قفص الإتهام. ومن ذاك التلخيص إستنتج إيفان محصّلة واحدة: أنّ حالته الصحية مزرية ولم يعبأ بها الطبيب كثيراً ولم يكن ليكترث بها أحد لكنه علم أنّ حالته مزرية

مكتبة الفكر الجديد

بالفعل. وهذه الخلاصة جعلته يشعر بالغثيان وملأت قلبه بالشفقة على حاله وجعلته يضمر العداء المستحكم للطبيب الذي أظهر لامبالاة مقيتة إزاء قضية مهمة للغاية.

لكن إيفان لم يتفوه بشيء. إنتصب على قدميه ووضع النقود على المنضدة وقال متنهداً: «أنا متأكد أنه عندما نقع فريسة المرض فإننا نطرح أسئلة كثيرة لا معنى لها. ولكن، آآآ، هل حالتي المرضية تهدد بالموت أم لا.......؟»

نظر إليه الطبيب شزراً بعين واحدة من وراء نظاراته وكأنه أراد أن يقول: «أيها السجين في قفص الإتهام. اذا لم تجب عن الأسئلة الموجهة اليك فإنك ستضطرني إلى طردك من قاعة المحكمة».

«لقد قلت لك ما أعتبره ضروريا ومناسبا. وأي شيء آخر ستكشف عنه الفحوصات» إنحنى الطبيب بعد تلك الإجابة وخرج إيفان ايليتش ببطء وصعد إلى العربة بكآبة وانطلق إلى المنزل. وفي الطريق أخذ يقلب ويستذكر ما قاله الطبيب ويحاول أن يترجم كلامه المعقد المرتبك إلى كلام بسيط يفهمه ليجد فيه ما يشفي غليله ليجيب عن السؤال الأوحد: هل حالتي مزرية... سيئة للغاية.. أم أنه لا يوجد شيء يدعو للقلق الآن؟ وبدا له أن الرسالة التي يمكن أن يستخلصها من كل ما قاله الطبيب هي: نعم.. أنت في حالة مرضية سيئة. لاح وجه سائق العربة وبدا له مغمّاً كئيباً، كما بدت البيوت والمشاة والمحال التجارية. وعلى ضوء ما صرح به الطبيب من أمور متشابكة، زاره الألم الكليل المستمر من جديد وتفاقمت درجته ليصبح محل تركيز إيفان ومصدرا لانقباض الصدر والإكتئاب.

مكتبة الفكر الجديد

عاد إلى المنزل وبدأ بسرد ما حصل لزوجته. أنصتت الزوجة باهتمام ولكن في منتصف الحديث قدمت ابنتهما معتمرة قبعة صغيرة الحجم. وقد كانت مستعدة لمرافقة أمها للذهاب إلى مكان ما. بذلت الفتاة جهدا في الجلوس وسماع قصة أبيها المملة، ولكنها لم تستطع أن تتمالك نفسها مطولاً كما أن أمها توقفت عن الإنصات وقالت: «حسنا، أنا مسرورة لذهابك إلى الطبيب. ولكن، أنصت لي الآن. تأكد من تناول الدواء بانتظام. أعطني الوصفة الطبية وسأرسل جيراسيم إلى الصيدلية». بعدها انفصمت لترتدي ملابسها وتغادر مع ابنتها.

كان إيفان يتحدث إليها بشغف وبالكاد توقف عن الكلام ليلتقط أنفاسه. وعندما ذهبت عنه أطلق إلى السماء تنهيدة عميقة وقال: «حسنا. ربما الأمر كذلك... لا شيء يدعو للقلق الآن...».

وبدأ يتناول الدواء ويلتزم بتوجيهات الطبيب التي قد تتغير بتغير نتيجة فحص البول. ولكن في تلك المرحلة، إتضح أن هنالك خلط في الفحص ذاته وما يترتب عليه من نتائج. ومن دون زيارة الطبيب إتضح أن الأمور انقلبت إلى غير ما توقعه الطبيب. يبدو أنه تجاوز عن أمر ما أو كذب في أمر آخر أو ربما أخفى أمراً ثالثاً.

ورغم ذلك، بدأ إيفان باتباع توجيهات الطبيب وبذلك استمد بعض الإرتياح لبعض الوقت. فمنذ زيارته الأخيرة أخذ على عاتقه اتباع توجيهات الطبيب حرفيا وأصبح ذلك شغله الشاغل لا سيما في أمور النظافة وتناول الدواء والتركيز على موضع الألم ومراقبة جميع وظائف الأعضاء. وأصبحت اهتماماته الرئيسة منصبة على صحة الإنسان وعلله. وعندما تناهى إلى مسامعه أن شخصاً مرض أو مات أو تعافى لا سيما

مكتبة الفكر الجديد

اذا كان المرض شبيها بمرضه، حاول أن يكظم انزعاجه وأنصت باهتمام بالغ وطرح الأسئلة وطبّق ما سمعه على حالته المرضية.

لم تخفّ حدة الألم ولكن إيفان لم يألُ جهدا لإقناع نفسه أنّ وضعه يتحسن. واستطاع أن يوهم نفسه بذلك طالما لم يعكر صفو مزاجه شيء. ولكن بمجرد ما تشاجر مع زوجته أو بمجرد ما حصل خطب ما في العمل أو تعثر حظه في لعبة الهويست شعر بوطأة المرض كما لم يشعر به من قبل. كان بمقدوره، في فترات سابقة، أن يتحمل نكسات كهذه متوقعا تصحيح الأمور قريباً واجتياز المرحلة والنجاح مجددا. أما الآن، فإن أية انتكاسة طفيفة زعزعت ركائز الأرض من تحته ودفعته إلى اليأس. يحدث نفسه فيهمس: «أُنظر إلى ما يحصل. كنت على وشك التحسن والدواء بدأ يأخذ مفعوله أما الآن فإن هذا الأمر الملعون أصابني بالهلع، هذا الحظ النتن...» ويصاب بنوبة غضب تنصبّ على حظه العاثر أو على أولئك الذين شكلوا السبب وراء مشاكله ليقتلوه ببطء. شعر أن غضبه هو المسؤول عن قتله، ولكن لم يستطع أن يحرك ساكنا ليكظمه. كان من البديهي أن يعرف أنّ غيظه وغضبه إزاء من حوله يغذي مرضه، ولذلك يتعين عليه تجاهل أية تطورات تفضي إلى ذلك الغضب، لكنه فكر بالعكس تماماً. قال لنفسه إنه يحتاج إلى راحة البال؛ وعليه أي شيء ينغص عليه عيشته كان سببا كافيا لمحاربته والشعور بالغضب ازاءه. وأصبحت حاله أسوء لأنه انهمك في قراءة الكتب الطبية وبدأ باستشارة الأطباء. وحصل أن حالته تدهورت تدريجيا ولم يستطع سوى أن يوهم نفسه أن لا فرق بين اليوم والغد لأن حالته بدت وكأنها تراوح مكانها، لكن في الحقيقة كانت تتدهور ببطء تدريجي. وفي

مكتبة الفكر الجديد

اللحظة التي كان يستشير فيها طبيبا كان يشعر بالتدهور السريع. ورغم ذلك استمر في استشارة الأطباء.

ذهب في الشهر الماضي لرؤية طبيب ذائع الصيت. وقال له ذاك الطبيب كما قال له الطبيب السابق ولكن بأسلوب كلام مختلف وقد أكدت هذه الإستشارة شكوكه ومخاوفه. شخَّص صديقٌ لصديق، وهو طبيب بارع، مرضه على نحو مغاير تماماً وبرغم أنه أقسم على إمكانية تحسن صحته إلاّ أنّ افتراضاته وأسئلته زادت من تشوش ذهن إيفان وعمقت من شكوكه. معالجٌ آخر قدم تشخيصا آخر ووصف له بعض الأدوية التي تناولها إيفان لمدة أسبوع من دون إخبار أحد. ولكن مع نهاية الأسبوع وعدم تحسن حالته وتضعضع إيمانه بجميع طرق العلاج السابقة واللاحقة عمق ذلك من شعوره باليأس. في يوم آخر تحدثت معه امرأة من معارفه عن القوة العلاجية للأيقونات. إكتشف إيفان أنه كان يصغي لها باهتمام بالغ وبدأ بقبول ذلك كحقيقة واقعة. وقد أخافه ذلك وبدأ يحدث نفسه: «هل أُصبت بخبل عقلي؟ كلا. هذا أمر خرافي. كلام لا طائل تحته ولا فوقه. لن أقع في فخ تصديق خرافات كهذه. من الأفضل أن التزم بتعليمات طبيب واحد فقط. سأقوم بذلك. هذا كل شيء. لن أفكر بالأمر بل سأتبع تعليمات الطبيب بحذافيرها لغاية الصيف. وسنرى بعدها ما ستؤول إليه الأمور. لا تسويف بعد اليوم». قول ذلك كان سهلا لكن تطبيقه كان مستحيلا. فالألم في خاصرته بدأ ينهكه وأخذ يتفاقم على نحو مستمر مزعج بينما بدأ مذاق فمه يأخذ منحىً أكثر حدّة وقد شعر أنه يعاني من البَخَرْ مما أثر على شهيته وأدى إلى ضعف قواه البدنية. لقد مضى زمن التغافل والضحك على الذقون، بدأ إيفان يشعر بأمر جديد جلل. أمر أكثر أهمية من أي شيء آخر في

مكتبة الفكر الجديد

حياته. وكان هو الشخص الوحيد الذي يعلمه. والناس من حوله غافلون عنه أو لم يريدوا أن يعلموا واعتقدوا أن كل شيء في الحياة هو كما هو من قبل. وهذا ما عذب إيفان أكثر من أي شيء آخر. فقد كان يرى عائلته، لا سيما زوجته وابنتها، وهما في خضمّ موسم الزيارات والنزهات وسواه، لم يعبئا بأمره إطلاقا. وقد أزعجتهم حاله وجديته وقلة مرحه ومطالبه الكثيرة وكأنه سبب المصائب. وبرغم جهودهما في إخفاء مشاعرهما تجاهه إلا أنه كان يرى أن وجوده يشكل عائقا أمامهما. وقد طورت زوجته سلوكا إزاء مرضه بغض النظر عما كان يقوله لها. وسلوكها كان كالتالي: تقول لصديقاتها: «تعلمون كيف تجري الأمور. إيفان إيليتش لا يشبه غيره من الرجال. فهو لا يلتزم بعلاجه. أحياناً يتناول العقار ويأكل ما ينبغي عليه أكله ويخلد إلى النوم في الوقت المعين ولكن في اليوم التالي إذا لم أراقبه فهو لا يتناول العاقير ويأكل سمك الحفش غير المسموح به ويسهر لغاية الواحدة صباحا يلعب الهويست».

يجيبها إيفان: «لا تبالغي في الأمر. لقد فعلت ذلك مرة فقط مع بيتر إيفانوفيتش».

«وماذا عن البارحة مع شيبيك؟» تنتفض براسكوفيا

«لم يحدث ذلك أي فرق. لم أستطع النوم بسبب الألم...» يجيب إيفان،

«حسنا.. لا يهمني السبب. ولكنك لن تتحسن اذا ما استمررت على هذا المنوال. وهذا يؤثر علينا سلبا» تعظه زوجته.

كان سلوك براسكوفيا إزاء مرضه، وهذا أمر لم تخفِه على أحد،

مكتبة الفكر الجديد

يتلخص في أنّ كل شيء كان يحصل لإيفان كان إيفان نفسه ملوماً فيه وأنه، مرة أخرى، كان يحوّل حياتها إلى جحيم. وكان إيفان يعتقد أنها كانت تقوم بذلك على نحو غير واعٍ. إلا أن ذلك لم يسهّل الأمور عليه إطلاقا.

لاحظ إيفان، أو اعتقد أنه لاحظ، السلوك ذاته تجاهه في المحكمة. شعر أحياناً أن هنالك أُناس يراقبونه عن كثب ويتربصون به كشخص سيتنازل عن وظيفته قريبا. وفي مناسبات أخرى يقوم بعض زملائه بإطلاق دعابات حول خوفه الشديد من تدهور صحته وكأن هذا الشيء المخيف المرعب، الشيء الذي لم يستطع طبيب معرفة سببه، الشيء الذي ينخر في داخله على نحو لا ينقطع شيء محط ضحك ودعابة. والشخص الذي كان يغيظه أكثر من أي شخص آخر كان شوارتز بألاعيبه وشعوره الدائم ببهجة الحياة واستذكاره لإيفان ومهابته طيلة العشر سنوات الماضية.

حضر أصدقاؤه للعب جولة ورق. جلسوا في أماكنهم ووزعوا الورق. حصل إيفان على سبعة أوراق من فئة الديناري وما لبث شريكه أن ساعده بورقتين إضافيتين من الفئة ذاتها. حظ عظيم إذاً.ينبغي لهذه اللحظة أن تكون لحظة سرور رائعة ـ فقد يفوز بالجولة بكاملها. لكنه شعر فجأة بالألم الشديد وعاد ذاك المذاق في فمه وفقد أعصابه بسبب تلك المفارقة بين لزوم الشعور بالبهجة بسبب احتمال الفوز الساحق من جهة والشعور بالكآبة بسبب المرض والتوعك والألم.

نظر إلى شريكه ميخائيل ميخالوفيتش الذي كان يطرق بأنامله على الطاولة منتظراً نهاية الجولة ليدفع بمجموعة الأوراق بأدب ولطف نحو

مكتبة الفكر الجديد

شريكه ليخفف عنه عناء التقاطها من على الطاولة ويحول دون جهد تحريك جسده إلى الأمام قليلا.

«هل يعتقد أنني ضعيف واهن لهذه الدرجة؟ هل يعتقد انني لا أستطيع الوصول إلى الأوراق؟» فكّر إيفان ونسي قواعد اللعبة والطرنيب طارحاً على الطاولة ورقة طرنيب أعلى من ورقة شريكه مفضياً بذلك إلى استحالة الفوز بجولة ساحقة بسبب حاجة الشريكين إلى ثلاثة أوراق طرنيب أخرى للفوز. وأسوء من ذلك كله، يرى إيفان بوضوح استياء وحزن ميخائيل لكنه لا يعبأ به. ومن المزعج التفكير في أنه أصبح لا يعبأ به.

لاحظ الجميع أنه قلق ومضطرب وقالوا له: «يمكننا أن نتوقف عن اللعب إذا كنت تشعر بالتعب. إذهب وخذ قسطاً من الراحة؟ راحة؟ كلا. هو على ما يرام...... ومن ثم تابعوا اللعب. وأصيب الجميع بتعكر المزاج والصمت. شعر إيفان أنه سبب ذلك ولم يستطع أن يغير الجو الكئيب. تناولوا طعام العشاء وذهبوا إلى منازلهم. وبقي إيفان وحيدا مع علمه ان حياته أصبحت مسممة وتسمم حياة الآخرين وهذا السم لا يذهب بعيدا بل ينخر فيه ويلوثه حتى النخاع.

ويذهب مع هذه المعرفة إلى النوم وحيدا مصطحبا الرعب والألم وغالبا ما لا يستطيع النوم بسبب الألم. وفي الصباح التالي، يتعين عليه الإستيقاظ وارتداء ملابسه والذهاب إلى المحكمة ليتحدث ويكتب وإذا لم يذهب يتأبط الساعات الأربع والعشرين واحدة واحدة الشعور بالمعاناة. يعيش هكذا على حافة الدمار وحيدا دون وجود أي شخص يتفهمه ويشفق عليه.

مكتبة الفكر الجديد

٥

مضى شهر على هذه الحال. ومضى آخر. قدم إلى المدينة صهر إيفان ونزل عندهم للإحتفال بأعياد رأس السنة الجديدة. كان إيفان في المحكمة عندما وصل صهره وكانت براسكوفيا أيضاً خارج المنزل في رحلة تسوق. دخل إيفان إلى مكتبته لدى عودته من العمل ووجد صهره قابعاً فيها. رجل قوي البنية ذو لياقة بدنية عالية كان يفتح حقيبة سفره. نظر إلى الأعلى عند سماع خطوات إيفان وتوجه إليه وحدّق في عينيه للحظة. تلك النظرة كشفت كل شيء لإيفان. فتح صهره فاه ليصرخ ولكن ما لبث أن ضبط نفسه. تلك الحركة أكدت كل شيء. «لقد تغير شكلي.. صحيح؟»

«بالفعل... لقد تغيرت بالفعل»

بعدها، كلما حاول إيفان أن يطرح موضوعاً يتعلق بشكله والتغيرات التي طرأت عليه يصمت صهره ولا يعقب بكلمة. أتت براسكوفيا إلى المنزل وسارع أخاها ليستقبلها. أقفل إيفان الباب وذهب ليمحّص هيئته أمام المرآة. الوجه بكامله أولا ومن ثم جانبيه. إستل صورة فوتوغرافية له ولزوجته وقارن بين هيئته الحالية في المرآة وما كانت عليه سابقاً في الصورة. كان الفرق هائلا. بعد ذلك، شمّر عن ساعديه ونظر إليهما ومن

مكتبة الفكر الجديد

ثم أعاد القميص لتغطيتهما وجلس على الأريكة وقد انقلب لونه إلى سواد أحلك من سواد الليل.

«لا ينبغي عليّ الجلوس» حدّث نفسه وهرع إلى مكتبه وفتح ملفا وبدأ يقرأ ولكن لم يستطع الإستمرار في القراءة. فتح الباب وخرج إلى الرّواق. كان باب غرفة الإستقبال موصدا. مشى على أطراف أصابع قدميه وبدأ يصغي.

«كلا.. كلا.. أنت تبالغ» قالت براسكوفيا. «ماذا تعني.. أبالغ» «هل عميتِ عما هو واضح. إنه يموت ببطء. إقتربت نهايته. هل حدّقت في عينيه؟ لا ضوء ينعكس منهما. ما هو مُصابه بالتحديد؟»

«لا أحد يعلم مصابه. نيكولاي (طبيب آخر) قال شيئاً ولكن لا أعرف ما هو. ليشيتيتسكي (الطبيب المشهور) قال العكس تماماً...».

قفل إيفان راجعا إلى غرفته. تمدّد على ظهره وأخذ يقلب الأمور. «الكلى، الكلى العائمة». كان بمقدوره أن يستذكر كل ما قاله له الأطباء بخصوص الكلية المنفكة عن موضعها والسائحة في أحشائه. وبعد بذل جهود تخيّلية إستطاع افتراضيا أن يُمسك بالكلية ويوقفها من التحرك ويثبتها في مكانها الأصلي. وافتراضيا مخاطباً صديقة بيتر إيفانوفيتش (صديقه الذي كان صديق الطبيب) قال: «كلا..... عليّ ان اعود إليه». بعدها، قرع الجرس وطلب العربة وجهز نفسه للخروج.

«جينيا (وهو اسم يُخاطب به إيفان عندما ترفع الكلفة)، إلى أين؟» سألته زوجته وعلى سحنتها كآبة وفي صوتها لطف ليس من عادتها. هذا اللطف المصطنع أثار حفيظته فنظر إليها شزرا باستهجان وقال: «علي الذهاب لرؤية بيتر إيفانوفيتش».

مكتبة الفكر الجديد

ذهب إيفان لرؤية صديقه، صديق الطبيب. ومن ثم توجها إلى الطبيب. وجد إيفان الطبيب في عيادته وتحدثا مطولاً. وبعد أن غاص الطبيب في تفاصيل علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وشرح له ما يعتبره حاصلا في أحشائه مما جعل الأمور تتضح بجلاء بالنسبة لإيفان.

كان ثمة بضعة من شيء صغير الحجم في مصرانه الأعور. ويمكن تصحيح الخلل من خلال رفع مستوى الطاقة في عضو ما إزاء تخفيض النشاط في عضو آخر مما يؤدي إلى تحسن الإمتصاص وتعديل الوضع وتحسن الحالة. عاد إيفان إلى المنزل متأخرا قليلاً عن موعد الغداء. لكنه تحدث بمرح بعد تناوله الغداء ولفترة من الوقت لم تسعفه صحته للعودة إلى المكتب ومزاولة العمل. ولكنه نجح اخيرا في ذلك وبدأ بالعمل. قرأ في بعض الملفات، لكنه لم يستطع أن يطرد الأفكار المتعلقة بحالته الشخصية بل كان على دراية ان ثمة امورا شخصية مهمة غير ناجزة يجب الإيفاء بها في نهاية المطاف. عندما انتهى من الملفات تذكر أن تلك الأمور المهمة المتعلقة بحالته الشخصية لم تكن سوى التفكير في مصرانه الأعور. ولكن عوضاً عن الإستسلام لهذه الفكرة المُلحّة خرج من المكتب لاحتساء الشاي في غرفة الإستقبال. وفيها كانت براسكوفيا تستقبل ضيوفا ومنها كانت تنطلق الأحاديث وتنبعث نغمات البيانو وصدى الأغاني. كان من ضمن الزوار ذلك القاضي الشاب الذي مثل توأما روحيا لابنته. إنضم إيفان إلى الحاضرين وقد استمتع بالسهرة بخلاف عادته كما بيّنت براسكوفيا لاحقا بينما كان هو يفكر باستمرار بأن أمراً شخصياً مهما لم ينته منه بعد، إنّه مصرانه الأعور. في الحادية عشرة مساء، إستأذن الحاضرين وذهب إلى غرفته، وكان قد اعتاد على النوم بمفرده في غرفة صغيرة الحجم بجانب مكتبه. دخل الغرفة وبدّل

مكتبة الفكر الجديد

ملابسه وتناول رواية من روايات زولا، لكن عوضا عن قراءتها غاص في التفكير. وفي خيالاته شُفي مصرانه الأعور، الشفاء الذي طالما تاق اليه. فقد عقب الإمتصاص دورة من غسل وتفريغ المصران إلى أن عاد لعمله كما كان. «نعم هكذا أصلُ إلى التعافي» حدث نفسه بذلك. «كل ما يتعين عليك فعله هو اتّباع تعليمات الطبيب والرضوخ للنتائج التي يقرّرها الرّب». تذكر الدواء وتناوله بالفعل. ومن ثم مدد جسده على السرير ونام على ظهره وأخذ يركز على نجاعة الدواء والطريقة التي يستطيع من خلالها أن يُنحي الألم جانبا. «استمرْ في تناول الدواء واجتنبْ أي شيء ضار. أشعرُ بتحسن الآن. تحسن كبير» أخذ يردد. ومن ثم تحسّس خاصرته ـ لا ألم مع التحسُّس «كلا. لا يوجد شعور هنا. بالفعل. الوضع يتحسن بشكل كبير». أطفأ الشمعة ونام على جنبه.

عملية الإمتصاص الفيزيولوجية.يا لها من عملية مهمة. المصران الأعور يصحح نفسه بنفسه. بعدها، وعلى حين غرة، بدأ الألم يتسلل إليه مجدداً. تماماً كما في السابق. ألمٌ ثقيل كليل مزعج ساكن خطير لا يهدأ. والمذاق الكريه ذاته في الفم. شعر بالإحباط في قلبه وفي روحه. «يا إلهي..يا إلهي» تمتم «ها هو الألم مجددا.. لم يبرح أحشائي أبدا» وفجأة نظر في الأمور من زاوية مختلفة تماماً. «المصران الأعور. الكلى «حدث نفسه» كلا.. لا صلة للأمر بالكلى أو المصران... إن القضية قضية حياة أو....... موت. نعم، كنت أنبض بالحياة. أما الآن فإن الحياة تفارقني شيئاً فشيئاً.. ولا أستطيع الإحتفاظ بها. كلا. لا سبيل لخداع نفسي بعد الآن. هل فقد الجميع البصيرة؟ هل يعلمون ـ كما أعلم أنا ـ أنني أموت؟ انها مسألة أسابيع فقط أو أيام أو ربما لحظات. قد ألقى حتفي الآن. وهج النهار كان مسلّطاً عليّ أما الآن فظلمة الليل تفترسني.

مكتبة الفكر الجديد

كنت هنا والآن أغدو هناك. أين؟ إقشعرّ بدنه وتوقف عن التنفس. لم يستطع سماع شيء سوى نبضات قلبه.

«ماذا سيحصل بعد أن أموت؟ لن يحصل أي شيء. إذاً، أين سأكون عندما لا أكون هنا؟ هل هذه سكرات الموت؟ كلا، لن أستسلم». قفز من مكانه وحاول إشعال الشمعة. تحسس ما حوله بتوتر وحيرة وبدأت يداه ترتجفان. أسقط الشمعة على الأرض وارتمى بتثاقل على وسادته. «ولِمَ الإكتراث؟ لن يُحدث ذلك فرقاً». قال لنفسه، وهو ينظر في الظلام الدامس بعينين مفتوحتين واسعتين. «الموت. نعم، إنه الموت. ولا يعلم ذلك أحدٌ منهم ولا يريد أن يعلم. عديمو الشفقة. مشغولون باللهو. (فمن خلال الباب كان بمقدوره سماع أصوات الغناء البعيدة والأمور المصاحبة) لا يعبأون بي. لكنهم سيموتون جميعا. حمقى. أنا أوّلهم. ومن ثم سيلحق بي الجميع. الموت يتربص بهم جميعا. لكنهم مُعرضون. لاهون. يتمتعون. أنعام بل أضل سبيلا!!!!» قال ذلك وفي حلقه غصة حُبلى بالضغينة. وشعر بموجة شقاء مؤلمة لا تطاق. لا يمكن أن يصاب جميع البشر في جميع الأمكنة بهذه اللعنة من الرُّعب المقيت. نهض وقال في سره «ثمة خطب ما. علي أن أهدأ وأفكر في الأمر منذ البداية» وبدأ يفكر. وقال: «نعم. منذ بداية المرض. سقطت من على السُّلم ووقعت على خاصرتي. ولكنّ إحساس ذلك اليوم لم يختلف عن إحساس اليوم الذي تلاه. ربما، شيء من عدم الإرتياح. تفاقم بعدها. ومن ثم جاء دور الأطباء والإكتئاب والقلق، وخلال تلك الفترة وما بعدها ولغاية الآن كنت وما زلت أقترب أكثر فأكثر من خط النهاية. خارت قواي تدريجيا. شيئاً فشيئاً. بدأت بالذبول. إختفى النور من عينيّ. الموت ماثل أمامي. كنت قلق بشأن المعي والأحشاء. قلق بشأن تحسين

مكتبة الفكر الجديد

حالة مصراني الأعور. وها هو الموت الأعمى ماثل أمامي. هل هو حقاً الموت؟»

طغى عليه الرُعب مجددا. حاول التقاط أنفاسه. إنحنى إلى الأمام يبحث على غير هدى عن علبة الثقاب ويتكئ على كوعه المثبت على حافة الطاولة الجانبية. شعر بالألم من جراء تلك الوضعية، فقد أعصابه واضعاً كل ثقله على كوعه مجددا بسخط ونقمة، لم يستطع الإستمرار وانسلّت كوعه من على الطاولة. وبالكاد يتنفس، عاد وارتمى متثاقلا على ظهره متوقعا أن تُقبض روحه في أية لحظة.

وفي الأثناء، وبينما بدأ الضيوف بالرحيل، سمعت براسكوفيا شيئاً يسقط وهي تودّعهم، فأتت على الفور

«ما الخطب؟»

«لا شيء. فقط أسقطتُ شيئا».

خرجت الزّوجة وعادت تحمل شمعة مضاءة. كان إيفان ممددا في غرفته يشهق ويزفر بصعوبة بالغة وكأنه عدّاء قطع ميلا لتوّه. كان يحدق بزوجته.

«جينيا..ما الخطب؟»

«لا شيء. أو..... قعتها من يدي». (لا جدوى من الحديث إليها.. فهي لن تتفهم الوضع) فكر إيفان في سره.

وبالفعل. لم تكن براسكوفيا متفهّمة للوضع. أخذت الشمعة من يده وأشعلتها له وهرعت إلى الخارج لتودع بقية الزوار. وعندما عادت كان إيفان لا يزال مستلقيا على ظهره يحدق في السقف.

مكتبة الفكر الجديد

«ماذا دهاك؟ هل تشعر بالألم؟»

«نعم»

هزت برأسها وجلست. «إسمع. جينيا. ربما يتعين علينا أن نطلب من ليشيتيتسكي أن يزورك هنا في البيت». وقد عنى ذلك أن يتكبد إيفان تكاليف زيارة ذلك الطبيب المشهور. إبتسم إيفان ابتسامة صفراء لاذعة وقال «كلا».

جلستْ معه لبعض الوقت وقبلته بعدها على جبينه. وقد كانت كل خلية من خلايا جسده تنبض بكراهيتها وتشمئز من تلك القبلة المخادعة. أراد أن يدفعها عنه ولكن قواه لم تسعفه لفعل ذلك.

«تصبح على خير. سوف تهنأ بنوم عميق انشاء الله»

«وهو كذلك»

مكتبة الفكر الجديد

٦

كان إيفان يعلم، في أعماق أعماقه، أنه مقبل على الموت وكان يشعر دائماً باليأس. ولم يستطع أن يتآلف مع تلك الفكرة وحسب بل لم يستطع فهمها. لم يستطع فهمها اطلاقا.

أما القياس المنطقي الذي تعلمه من قراءة منطق كيزيوَتر وملخصه أن يوليوس قيصر رجل. وجميع الرجال فانون. إذاً، يوليوس قيصر رجلٌ فانٍ. بدا ذلك القياس منطبقا على يوليوس قيصر فقط وليس عليه. فهنالك الرجل يوليوس والبشر بشكل عام. لكن إيفان لم يكن يوليوس الرجل ولم يكن البشر بشكل عام. لقد كان دائماً مخلوقا خاصا، مختلفا تماماً عن الآخرين. لقد كان يُسمّيه الجميع، أمه وأبيه وفيتيا وفالوديا وسائق العربة وكاتيا الصغيرة، بفانْيا في مرحلة طفولته وصباه وشبابه،. فانْيا، بجميع ما كان يختلجه من الأسارير والأحزان. هل كان لدى يوليوس قيصر علاقة من قريب أو بعيد برائحة الكرة الصغيرة المخططة المصنوعة من الجلد التي كان يحبها فانْيا حبّاً جماً؟ هل قبّل قيصر يد أمه بهذا الحنان؟ وهل كانت لديه علاقة بحفيف طيات الحرير في فستان أمه عندما كانت تمشي بعيدا؟ هل كان الشخص الذي تمرد في جامعة القانون بسبب مشكلة في عملية توفير الشطائر؟ هل وقع قيصر في الغرام

مكتبة الفكر الجديد

كما فعل هو؟ هل يستطيع ان يتولى شؤون جلسة المحكمة كما يفعل هو؟

نعم، قيصر رجل فانٍ ولا ضير في أن يموت لكن ليس أنا، فانيا إيفان إيليتش، وكل مشاعري وأفكاري ـ فالأمر مختلف بالنسبة لي. لا يمكن أن يصطادني الموت أنا شخصيا. وإلاّ سيكون ذلك مخيفا.

طغت تلك المشاعر عليه.

إذا ما كنت كقيصر وكنت في طريقي نحو الموت فإنه يتعين عليّ معرفة ذلك. صوت في داخلي يتعين أن يقول لي ذلك ولكن لا يوجد صوت ينبعث من داخلي ليقول لي أنت ميت. دائماً ما كنت أعتقد ـ ورفاقي أيضاً ـ أننا لسنا كقيصر. ولكن أنظرْ ماذا يحدث الآن. قال لنفسه كلا، مستحيل. كلا مستحيل. لا بل ممكن. وكيف يمكن ذلك؟ ما هو شكل الموت، إذاً؟

لم يستطع أن يفهم وحاول تبديد الفكرة ـ واستبدال الأفكار الصحيّة الملائمة بالأفكار الزائفة الخاطئة ـ لكن الأفكار ذاتها تحولت إلى شيء يبدو واقعيا. أفكار اجتاحته وواجهته دائماً.

ولكي يبدد تلك الأفكار، بدأ يستدعي أفكاراً أخرى متتابعة آملا أن يواسي نفسه بها. حاول أن يعود ألى نمط تفكيره القديم الذي حماه من التفكير في الموت في وقت مضى. ولكن من الغريب القول أنّ أية طريقة سابقة كان يعتمدها لتحميه من التفكير من خلال إخفاء أو إتلاف أي وعي خاص بالموت لم تكن لتنفع الآن. في الأيام القليلة الماضية أمضى إيفان معظم أوقاته يحاول العودة إلى الطرائق السابقة في إثارة المشاعر التي كانت تحميه من الموت. يقول لنفسه: «يجب أن أعود إلى العمل.

مكتبة الفكر الجديد

لقد تكشفت الأمور جميعها. لا داعي لتكرار الإسطوانة والتفكير مجددا بما هو حاصل».

يعود بعد اتخاذ القرار إلى المحكمة، وينحي جانبا جميع الشكوك ويبدأ بالحديث مع زملائه وأحيانا يلزم مقعده كما كان يفعل في السابق، ويستغرق في تأمل الجمهور أمامه ويُرخي يديه التعبتان على أذرع الكرسي المصنوعة من خشب السنديان. ويَنحني جانبا كعادته ليهمس في أذُن زميل له، بينما ينظر في الملف قبل أن يرفع نظره إلى الأعلى ويعتدل في جلسته ليتفوه بعدها بالكلمات التي اعتاد على ترديدها ويبدأ الجلسة. ولكن، يبدأ الألم فجأة في خاصرته بغض النظر عمّا وصلت إليه اجراءات الجلسة ويتعكر صفو مزاجه. يركز إيفان على الألم ثم يحاول أن يتناساه ولكن الألم يُلح عليه ذهابا وإيابا ويحدق في روحه بينما يجلس إيفان متصلبا ويبدأ الشرر ينطلق من عينيه ويبدأ بالتفكير فيما لو كان الموت القريب هو الحقيقة المطلقة الوحيدة في هذا العالم. يراقبه زملاؤه ومرؤوسوه وتأخذهم الدهشة كل مأخذ عندما يكتشفون أن إيفان، الذكي المجتهد الرائع المهني العليم بأمور الأحكام والقانون، يختلط عليه الأمر ويبدأ باقتراف الأخطاء. يتمالك نفسه ويحاول ان يُنهي الجلسة ليعود حزينا إلى منزله مدركا أن عمله في القضاء لم يعد يسعفه في إخفاء الحقيقة كما كان في السابق ولم يعد ينفع في حمايته من اجتياح الألم والموت. والأسوء من ذلك كله، أن العمل في المحكمة لم ينفع في عونه على تجنب التفكير في الموت فقط بل، على العكس، زاد الطين بلة ودفعه ليحدق في الموت وينظر إليه وجها لوجه ولا يحرك ساكنا بل ينتظره بألم وعذاب لا يطاق.

ولكي يهرب من هذا المأزق حاول إيفان ان يلتمس أشكالا أخرى

مكتبة الفكر الجديد

من مواساة النفس كأن يفكّر في حواجز تطيح بوضعه الحرج وتساعده على نسيانه. بدت تلك الحواجز ناجعة للوهلة الأولى لكن التفكير في الموت كان من القوة بمكان بحيث استطاع أن يخترق كيانه ولم يدمر فقط تلك الحواجز الواهية، التي بدت وكأنها تفصله عن الموت، بل اخترق كل خطوط الدفاع التي قد تعترض سبيله.

كان يذهب أحياناً إلى غرفة الإستقبال (الغرفة التي أثثها بنفسه ـ والتي أصيب بالكدمة من جراء وقوعه عن السلم فيها ـ الغرفة التي أضحكته وأبكته لأنه علم الآن أن مرضه بدأ بتلك الكدمة ـ الغرفة التي أنفق حياته لكي يؤثثها) ويلحظ خدْشاً، على الطاولة المطلية باللك في الزاوية العليا من الجهة اليسرى، نتج عن شيء حاد ـ وينظر في السبب فيجده في الإطار البرونزي الناتىء لألبوم الصور. يتناول الألبوم ـ البومٌ باهظ الثمن جَمَعَ فيه الصور بعناية ـ وينزعج بسبب عدم مبالاة ابنته وصديقاتها. فقد مُزق الألبوم من بعض جوانبه وقُلبت بعض الصور رأسا على عقب. يتحمل عناء تصحيحه ويعيد الأطار البرونزي إلى سابق عهده.

ويفكر بعدها بتغيير مكان هذه الألبومات ليضعها في الزاوية بجانب الأزهار. ينادى الخادم. تأتي ابنته أو زوجته لمساعدته. فيشب النزاع ويعارضان وضع الألبومات في المكان الجديد.يفقد صوابه ويحاججهم بعنف ـ ولكن لا بأس لأنه في تلك اللحظات نسي قضية الموت. إذ لا يراه يحوم حوله.. لا بأس.

ولكن في احدى المرّات التي كان يحاول نقل شيء ما ليضعه في مكان آخر قالت له زوجته «دع الخادم يفعل ذلك. سترهق نفسك».

مكتبة الفكر الجديد

وفجأة زاره الموت في مخيلته ـ رآه. رآه ينظر إليه وتمنى أن يختفي ولكنه مثُلَ أمامه وركز مجددا على خاصرته. الألم ذاته ما زال موجوداً ـ هنا ـ الألم الذي لا يمكن تجاهله. يحدق فيه من وراء الأزهار. ما هذا؟

وهذه هي حقيقته. أفنيت حياتي هنا على هذه الستائر، أرض المعركة. هل ذهبت حياتي من دون رجعة؟ مخيف.. عابث.. مستحيل!!! مستحيل!!! لكن.. انظر إليه.. م ازال يرتع هنا...

يذهب إلى مكتبه يستلقي.. ويجد نفسه وحيدا مجددا مع الموت.. وجها لوجه.. لا يمكن فعل أي شيء حياله.. فقط التحديق فيه والشعور بالبرد.

مكتبة الفكر الجديد

٧

في الشهر الثالث من مرض إيفان، وعلى نحو تدريجي غير مفهوم، إكتشف جميع المحيطين به، زوجته وابنته وابنه والخادم والأصدقاء والأطباء، والأهم من جميعهم، إيفان شخصيا، إكتشفوا أن الأمر اللاّفت الوحيد المتعلق به هو أنه سيترك شاغرا في المحكمة سيملؤه شخص آخر والشيء الوحيد الذي كان يرتقبه الجميع هو الزمن الذي سيستغرقه إيفان ليلفظ آخر أنفاسه ويريح، أخيرا، الأحياء من الظلم الواقع عليهم بسبب وجوده وينجو هو من العذاب والألم.

أصبح إيفان يعاني من الأرق أكثر فأكثر. عولج بالأفيون وحُقن بالمورفين، لكن كلا المادتين لم تجديا نفعاً. ففي بداية الأمر، كان يشعر بالإرتياح لأن ثمة عقاقير جديدة إعتقَد أنها ستنحّي جانبا ذلك الشعور بالألم الكليل المصحوب بحالة فقدان الوعي الجزئي لكن الألم ما لبث أن عاد كما كان بعد فترة من تناول تلك المخدرات، وربما، ازداد سوءاً.

قدم له أطعمة خاصة مطهية بحسب الوصفات الطبية لكن الطعام فقد مذاقه تدريجيا ومن ثم سبّب له الاشمئزاز. أما بالنسبة لتفريغ الأمعاء والحاجة الطبيعية لذلك فقد وُضعت لها ترتيبات معينة لكنها كانت تؤدي إلى العذاب في كل مرة. وكان الكرب يتأتى من طريق الأوساخ

مكتبة الفكر الجديد

والفضلات وبشاعة المنظر والروائح ومعرفته أن شخصاً آخر لا بد أن يعينه على فعل ذلك.

لكن المفارقة تمثلت في أن هذه الحاجة الطبيعية الكريهة جلبت له بعض المواساة، لأن الشخص الذي كان يساعده ويأتي لإزالة الفضلات والتصرف بها خارج المنزل كان شخصاً يدعى جيراسيم، الفلاح الخادم الذي كان يخدم العائلة ويعمل كنادل يقوم على خدمتهم لا سيما أثناء تناول الطعام.

كان جيراسيم شابا قويا فلاحا حسن الهندام نظيف البَدن حسن المزاج وحاد الذهن يميل إلى السمنة لتناوله الكثير من أطعمة المدينة. كان يعتري إيفان، في البداية، شعورٌ بالخجل لمجرد مراقبة هذا الشاب، حسن الهندام، لدى قيامه بعمل قبيح كالتخلص من فضلاته. في أحد الأيام عندما حاول إيفان الوقوف من على المبولة غير قادر على استجماع قواه ليرفع بنطاله إنهار ووقع على كرسي طريّ المجلس ونظر بهلع على فخذيه الواهنتين ذات العضلات البارزة على نحو مفجع.

ومَنْ غيرُ جيراسيم يدخل في تلك اللحظات؟ دخل الفلاح منتعلا حذاءً سميكاً ذو رقبة ترشح منه رائحة القطران الحسنة وهواء الشتاء المنعش، مرتدياً إزاراً هسيا ألمانيا نظيفا وقميص قطن نظيف، مشمّراً عن ساعديه القويّين ومن دون أن ينظر إلى إيفان، لكي لا يُحرجه، قامعاً الشعور بالشباب المفعم بالحيوية الذي يشع من وجهه، إقترب من المبولة ليتخلص مما فيها.

«جيراسيم» نادى إيفان بفتور همة واضح

شعر جيراسيم أنه ارتكب خطأ ما وبحركة سريعة نظر إلى الرجل

مكتبة الفكر الجديد

المريض بوجهه المنعش اللطيف الشاب الذي كان يظهر بوادر لحية خفيفة، وأجاب: «نعم سيدي».

«إنه عمل قبيح، أليس كذلك؟ عليك أن تغفر لي. لا أستطيع القيام بالأمر على نحو مخالف» عقّب إيفان.

«أرجو أن لا تهتم للأمر، سيدي. لا مشكلة إطلاقا. أنت رجل مريض» أجاب جيراسيم مبتسماً ونور عينيه يتلألأ.

وبسرعة قام بما تعين عليه القيام به وانسحب إلى خارج الغرفة بخطوات سريعة. بعد خمس دقائق عاد إلى الغرفة بخطوات سريعة معهودة عنه.

كان إيفان لا يزال في مكانه. «جيراسيم» قال إيفان، بعد أن فرغ الشاب من إعادة المبولة مغسولة نظيفة. «هل لك أن تعينني؟. هنا. هنا. ساعدني على القيام. لا استطيع ذلك بمفردي. أرسلت ديميتري في طلب ما».

تقدم جيراسيم وبحركة واحدة يسيرة وضع ذراعيه حوله بلطف ورفعه ممسكاً به بيد واحدة رافعاً بنطاله باليد الأخرى محاولاً أن يعيده إلى مكانه لكن إيفان طلب ان يجلسه على الأريكة. ومن دون عناء يذكر ومن دون أن يشق عليه إطلاقا أخذه جيراسيم إلى الأريكة وكأنه يحمله وأجلسه عليها.

«شكرا لك.. انت ماهر في القيام بالأشياء..من دون جلبة.. وبيسر رائع..».

إبتسم جيراسيم مرة أخرى وأراد أن يخرج من الغرفة لكن إيفان شعر بالإرتياح الفائق معه لدرجة أنه لم يُرِدْ له أن يغادر.

مكتبة الفكر الجديد

«هكذا أفضل.. هلا نقلت ذاك الكرسي إلى هنا؟ لا، ذاك. ضعْهُ تحت ساقيّ. أشعر بالإرتياح عندما أرفع ساقيّ».

أحضر جيراسيم الكرسي، ثبتها على الأرض من دون إصدار أدنى صوت ورفع ساقي إيفان ووضعهما على الكرسي. وما لبث أن شعر إيفان بانحسار الألم على الفور.

«أشعر بتحسن عندما أرفع ساقي. هلا وضعت تلك المخدة تحتهما؟»

قام بذلك جيراسيم. رفع ساقيه مجددا ووضع المخدة تحتهما. مرة أخرى شعر إيفان بتحسن بمجرد أن رفع جيراسيم ساقيه. وعندما أرخاهما شعر بالسوء.

«جيراسيم. هل أنت مشغول الآن؟»

«لا. إطلاقا، سيدي» أجاب جيراسيم بعد أن تعلم من أهل المدن كيفية التحدث مع السادة.

«ماذا لديك من عمل تقوم به الآن؟»

«ماذا لدي من عمل؟ لقد انتهيت من كافة المهام ـ باستثناء نشر الحطب ليُستخدم في الغد».

«حسنا. أريدك أن تمسك بقدميّ وترفع ساقيّ إلى الأعلى. هل من مانع لفعل ذلك؟»

«كلا. بالطبع لا مانع لدي». رفع جيراسيم ساقيْ إيفان وكان بإمكان الأخير أن يُقسم أن الألم قد اختفى في تلك الوضعية.

«ولكن ماذا بشأن الحطب؟»

مكتبة الفكر الجديد

«لا تقلق بشأن الحطب، سيدي. سأتصرف».

طلب إيفان منه أن يجلس ويرفع ساقيه في ذات الوقت. وبدأ بالحديث معه. ويا للغرابة، شعر إيفان بالفعل أنّ الألم قد بارحه.

بعد تلك المناسبة، أصبح إيفان يطلب جيراسيم بين الفينة والفينة أن يرفع ساقيه ويثبتهما على كتفيه. وقد راق له الحديث مع جيراسيم. وقد قام بذلك جيراسيم في كل مرة بسهولة ورغبة ولطف أثار مشاعر إيفان. لقد كان إيفان يحسد صحة وقوة وحيوية جميع من حوله باستثناء جيراسيم. فقوته وحيويته وفّرتا له الراحة عوضاً عن الإمتعاض.

كان إيفان يتألم من العذاب بسبب الكذب المحيط به ـ فالجميع كان يكذب بشأن دنو أجله. إذ كانوا يقولون أنه مجرد مريض سيشفى. وكل ما عليه فعله هو أن يحافظ على رباطة جأشه ويلتزم بتعاليم الأطباء. بعدها سيشعر بالتحسن ويشفى. بينما كان يعلم إيفان علم اليقين أن لا شيء يُفضي إلى التحسن بل إلى العذاب والكرب والمعاناة والموت. كانت تلك الأكاذيب تعذبه لأنّ أحداً لم يرغب بالإعتراف بما كان يعرفه. بل أراد جميع من يحيط به أن يكذب عليه ويتغافل عن وضعه الحرج وأرادوه ـ بل أرغموه ـ على أن يصبح جزءاً من تلك الكذبة. كانت تلك الأكاذيب توازن بين أمر جلل ـ وهو وقار الموت ونهاية الأجل من جهة، وأموراً اجتماعية بسيطة أخرى كنوع أقمشة الستائر أو سمك الحفش على مائدة العشاء من جهة أخرى...... وذلك ما لم يكن إيفان يطيقه. وعلى نحو يدعو للغرابة، في كثير من الأحيان، عندما كانوا يمثّلون هذا الدور الساخر والمهزلة المقيتة أمام عينيه، كان على وشك الصراخ في وجههم: «كفّوا عن هذه الأكاذيب!! أنتم تعلمون أنني ميت.

مكتبة الفكر الجديد

وأقل شيء يمكن فعله هو أن تتوقفوا عن هذه الأكاذيب». ولكنه لم يجرؤ في أي مناسبة على قول ذلك. كان يرى أن دنوّ الأجل وعملية الموت البطيء البشعة المرعبة كان قد قزّمها جميع من يحيط به إلى مجرّد حادث يؤسف له أو حادث عرضي غير لائق (كأنْ يأتي أحدهم في غرفة الجلوس بريح تخرج غازات كريهة من الأمعاء) وهذا بحد ذاته يستغل مبدأ الحشمة واللياقة استغلالاً بشعاً، تلك المبادىء التي عاش طيلة حياته ملتزما بها. كان يرى غياب الشفقة في قلوبهم جميعاً لأنهم لا يريدون أن يتفهموا وضعه. جيراسيم كان الشخص الوحيد الذي تفهم وضعه تماماً. وكان يشفق عليه. لهذا شعر بالإرتياح معه فقط. كان يشعر بارتياح بالغ عندما كان يسهر جيراسيم في بعض الأحايين طيلة الليل رافعا ساقيه على كتفيه رافضا الخلود إلى النوم قائلاً: «أرجو أن لا تقلق، سيّدِ إيفان إيليتش. سأعوّض نقص النوم في فترات لاحقة». أو يحادثه على نحو فجائي في أحايين أخرى ويقول: «سيكون الأمر مختلفا إذا كنتَ سليما معافا. ولكن، في وضعك هذا، لماذا لا ينبغي عليّ مساعدتك؟». جيراسيم كان الشخص الوحيد الذي لم يقترف الكذب. وكل شيء دلّ على أنه كان الشخص الوحيد الذي فهم مآل الأمور ودنو أجل إيفان. شعر جيراسيم بالشفقة على سيده لأنه ضعيف هزيل. وقد لخّص المسألة بصراحة، في إحدى المناسبات عندما طلب منه إيفان الإنصراف، فقال: «سيذوق جميعنا الموت يوما ما. فلماذا أتقاعس عن خدمتك؟». وقد عنى ذلك أنه تعين على جيراسيم أن لا يُحدث جلبة بشأن مساعدة إيفان: فقد فعل ذلك مع رجل قد اقترب أجله وتمنى عندما يشيخ ويقع في نفس الموقف أن يجد شخصاً ما يساعده في محنته كما ساعد هو إيفان في شبابه.

مكتبة الفكر الجديد

أما الأمر الذي عذّب إيفان أكثر من أي شيء آخر، بخلاف الأكاذيب، أو ربما بسببها، هو حقيقة تغافلِ الجميع عن إظهار الشفقة عليه بالطريقة التي أرادها. ورغم شعوره بالإحراج لدى اعترافه بطغيان بعض المشاعر على روحه الهائمة، فقد كان يمرّ بلحظات، لا سيما بعد فترات طويلة من المعاناة، يحتاج فيها، أكثر من أي شيء آخر، إلى شخص حنون رؤوف يتراحم معه كما لو أنه طفل مريض. أراد أن يُقبِّلَ ويُعانقَ ويبكي بالطريقة التي يعانق فيها الأطفال ويقبّلون ويبكون. كان يعلم أنه شيخ اعتراه الشيب في لحيته مما جعل ذلك مستحيلا ولكن كان ذلك ما أراد. أما علاقته بجيراسيم فقد وفرت له شيئاً قريباً من ذلك. وهكذا وجد راحته معه فقط.

وهكذا، نجد إيفان متعطشا للنّواح، راغبا بالعناق يذرف الدموع من حين لآخر وحيدا في غرفته. أما عندما يأتي صديقه شيبيك لزيارته نجده ينقلب إلى شخص جاد تتجهّم سنحات وجهه ويتقطّب حاجباه عوضاً عن البكاء والرغبة في العناق والترويح عن النفس. وينغمس في تأمل ما يجري من أحداث في السلك القضائي إذ يعقب ـ بحكم عادته ـ على أهمية قرار ما أصدرته محكمة النقض ويدافع عنه بشراسة.

تمثيل الأدوار المصطنعة واحتراف الكذب وعدم مواجهة الحقيقة العارية كان أكثر الأمور التي لوّثت آخر أيام إيفان إيليتش على هذه البسيطة.

٨

أقبل الصباح. علم إيفان ذلك لأن جيراسيم لم يكن موجودا بل كان بيتر الخادم يضع الشموع في مكانها ويفتح الستائر ويوضب المكان بهدوء. لم يكن التوقيت يعنى له شيئا، سواء كانت فترة الصباح أو المساء، نهار الأحد أو الجمعة..... لا يهم.... ما يهم هو الألم المفجع الرهيب المتواصل والعلم اليقيني بأن الحياة تتسرب من بين يديه ببطء. الحقيقة الوحيدة هي اقتراب الموت الكريه المرعب. والجميع من حوله يكذب بصفاقة. وبالتالي، فما فائدة الأيام والأسابيع والشهور؟

«هل أحضر لكم بعض الشاي، سيدي؟» سأل بيتر وهو يفكر في حبّ سيده للنظام والترتيب. إذ أقرّ في ذهنه أن احتساء الشاي في الصباح أمر في غاية الأهمية. لكن إيفان أجاب بالنفي.

«هل بإمكانك الإنتقال إلى الأريكة، سيدي؟» سأل بيتر.

«نعم..يريد أن يوضب الغرفة وأنا أعترض طريقه فأنا قذارة.. وحجر عثرة في وجهه الآن» فكر إيفان وقال: «كلا. دعني بمفردي».

تابع الخادم عمله. مدّ إيفان يده إلى بيتر. قدم بيتر وسأل: «في خدمتك سيدي»

«ساعتي»

مكتبة الفكر الجديد

التقط بيتر الساعة وقدمها لسيده

«الثامنة والنصف. هل لا يزال الجميع راقدا؟»

«كلا، سيدي.. السيد فاسيلي (الإبن) ذهب إلى المدرسة ومدام براسكوفيا طلبت مني إيقاظها إذا أردتَ منها شيئا»

«لا يهم». فكر إيفان في احتساء بعض الشاي «أحضر بعض الشاي».

توجه بيتر نحو الباب وارتعب إيفان من فكرة بقائه وحيدا. كيف يمكنه إيقافه من الخروج؟ آه، نعم. الدواء. «بيتر. هلا ناولتني الدواء؟» ولم لا. فالدواء قد يساعدني. أبتلع ملعقة. لا لن يساعدني الدواء. هراء. ضحك على الذقون. حرثٌ في الماء. وتأكد من غياب النفع لأن المذاق ذاته عاد ليزوره ويقض مضجعه ليشعره بالقنوط. فقد الأمل وتساءل: «لماذا لا يغادرني الألم لدقيقة واحدة فقط؟» قالها إيفان مصدرا صوتا يعبر عن الجهد والتوتر. عاد إليه بيتر ولم يغادر الغرفة بعد. «لا شيء.. لا شيء... إستمرْ في عملك. أحضرْ بعض الشاي» غادر بيتر الغرفة. تأوه إيفان لا بسبب الألم بل بسبب الكرب والروتين المتكرر صباح مساء. فلينتهِ الأمر إذاً!!! وأي أمر؟ فليأت الموت ليخلصني. كلا، كلا... فليأت أي شيء آخر إلا الموت.

عندما عاد بيتر بصينية الشاي نظر إليه إيفان نظرة باردة تائهة لبعض الوقت ولم يستطع ان يتعرف عليه أو يعرف سبب وجوده. شعر بيتر بالخجل بسبب استدامة النظرة تلك. وبخجله ذاك عاد إيفان إلى صوابه وقال «نعم.. الشاي... جيد، ضعْهُ هنا. ولكن اريد منك مساعدتي في الإغتسال وارتداء قميص جديد»

وبدأ إيفان بالغسل.. رويدا.. رويدا... بشكل متقطع يتخلله

مكتبة الفكر الجديد

استراحات. غسل يديه ووجهه ونظف أسنانه ومشط شعره ونظر في المرآة. وشعر بالرعب. والشيء المثير للرعب أكثر من غيره كان الطريقة غير المنتظمة التي التصق فيها شعر رأسه بجبينه الشاحب.

وبينما بدّل قميصه علم أنّ النظر إلى جسده في المرآة سيكون أمراً فظيعا ولذلك لم يفعل. أخيرا انتهى الغُسل. وضع رداءه المنزلي والتحف لحافاً وجلس في كرسيه ليشرب الشاي. وللحظة شعر بالنشاط والإرتياح لكن ما لبث أن اجتاحه الألم وغزا حليمات الذوق في لسانه وفمه، المذاق الكريه ذاته بعد أول رشفة من الشاي. إبتلع الشاي رغما عنه واستلقى على ظهره ومدد ساقيه وأمر بيتر بالإنصراف.

الأمر ذاته يتكرر. قطرة متلألأة من الأمل يتبعها بحر خضم من اليأس. ولاشيء سوى الألم والألم المضاعف والكرب والعذاب وتكرار ذلك. شعر بالإكتئاب لوجوده وحيدا. وفكر في إحضار شخص ما ليواسيه لكنه علم مسبقا ان ذلك سيزيد الطين بلة. أه، فكر في مدى تأثير أية جرعة إضافية من المورفين وشكّ أنها ستودي به إلى الهلاك. يجب ان يُخبر الطبيب بأن يستبدل دواء آخر بالمورفين «لا اقوى على الإستمرار على هذه الحال. لا أقدر على ذلك» حدّث نفسه.

وتمرّ ساعة على تلك الحال وتمرّ أخرى. يُقرع الجرس في الممر ـ هل يكون الطبيب؟ نعم، الطبيب، مفعما بالنشاط والبهجة. مكتنزاً، له سحنة على وجهه كأنها تقول حسناً الآن يبدو أنك خائف بعض الشيء ولكن سنحل المعضلة عمّا قريبا. يعلم الطبيب أن تلك النظرة لا تجدي فتيلاً الآ أنه يتبناها دائماً وأبداً مع مرضاه ولا يستطيع التخلي عنها كما هو حال الرجال الذين لا يستطيعون التخلي عن معاطفهم عندما يذهبون في زيارة صباحية في فصل الشتاء القارص.

مكتبة الفكر الجديد

يفرك الطبيب بيديه ببهجة وطمأنينة ويقول «برد قارص. جليد سميك يغطي الشوارع. إصبر عليّ دقيقة لأسخّن نفسي....». تشي طريقته في الكلام بأن زيارته ستكون خاطفة ولن تستغرق وقتا طويلا. فعندما يشعر بالدفء سيضع الأمور في نصابها.

«حسنا. كيف تشعر؟»

يشعر إيفان بأن الطبيب يمكر من لا يستطيع مكره فيسأل مجددا: «إذاً، كيف كانت ليلتك البارحة؟». ينظر إيفان إلى الطبيب بنظرة ثاقبة تشي بسؤال مفاده مرتبط بإمكانية وجود شيء لدى الطبيب يجعل منه إنسانا آخر يستطيع القيام بأمور تختلف عن بقائه ممدداً في السرير طيلة الوقت. لا يريد الطبيب أن يفهم ذلك طبعاً. يجيب إيفان: «لا تغيير. ليلة فظيعة. الألم لا يبارحني. متواصل دائماً. يجب أن تقوم بأمر ما»

«نعم. من الطبيعي أن تطلب أمرا كهذا. جميع المرضى الذين يعانون من حالتك يطلبون ذلك. حسنا. أعتقد أنني أشعر بالدفء الآن. زوجتك هي من يصرّ على هذه الأمور ولكن حتى هي لن تقول أنني كنت أشعر بالبرد الشديد. وعليه، عمت صباحا....» ويصافح الطبيب إيفان.

أما الآن. يُسقط الطبيب الهزل وينتقل إلى الجد ويبدأ بفحص النبض والحرارة، الخ. يعلم إيفان يقينا ـ بدون أدنى شك ـ أن ما يقوم به الطبيب لا معنى له. ولكن عندما يركع الطبيب على ركبتيه ويضع أذنه مرة في الأعلى وأخرى في الأسفل وبعد ذلك يقطب الحاجبين ويقوم ببعض الحركات البهلوانية يرضخ إيفان لبصيص من الأمل شبيه بذلك الذي كان ينبعث من مرافعات المحامين الأذكياء رغم أنه على يقين أنهم يكذبون ويعلم الأسباب التي دفعتهم للكذب.

مكتبة الفكر الجديد

لا يزال الطبيب منحنيا بجانب الأريكة منهمكا بالمعاينة عندما تأتي براسكوفيا، وحفيف ردائها الحريري يصدر صوتا ناعما من الممر، باتجاه الغرفة وصوتها يعلو موبخة بيتر لأنه لم يخبرها بمجيء الطبيب.

تدخل الغرفة وتقبل زوجها وتبدأ على الفور بتبرير تأخرها رغم استيقاظها منذ مدة. يرمقها إيفان ويمقت كل شيء متعلق بها. بياض ونظافة واكتناز ذراعيها ورقبتها ولمعان شعرها ونور عينيها النابضتين بالحياة. يكرهها بكل ما فيه من جوارح وأحاسيس. وأي اتصال مادي معها يبعث في نفسه نوبة من الغثيان والألم والحزن والتقزز والإشمئزاز.

فموقفها من مرضه لم يتغير. وكما يتخذ الطبيب موقفا من مرضاه لا يستطيع التخلي عنه، إتخذت براسكوفيا موقفا من زوجها مفاده أن إيفان يفشل في القيام بأمر يتعين عليه القيام به. وسبب مرضه ما كسبت يداه وهي توبخه بلطف لأجل ذلك. براسكوفيا لم تستطع أن تتخلى عن موقفها تجاهه.

«إنه لا يلتزم بالتعليمات الطبية! وينسى تناول الدواء. والأسوأ أنه يستلقي هناك على الأريكة في وضع يبدو أنه غير ملائم البتة ـ رافعا ساقيه إلى السماء» تقول الزوجة وتشرح كيف يطلب من جيراسيم أن يمسك بساقيه ويضعهما على كتفيه. إبتسم الطبيب ابتسامة متعالية لكن لطيفة وبدا وكأنه يقول «لا يمكن مساعدته» «هؤلاء المرضى لديهم أحياناً أفكارا سخيفة. لا نستطيع القاء اللوم عليهم».

عندما انتهى الفحص السريري نظر الطبيب في ساعته. بعدها قالت براسكوفيا لإيفان أنها، وبغض النظر عن رأيه، إستدعت اختصاصيّاً مشهورا سيأتي بصحبة ميخائيل دانيلوفيتش (اسم الطبيب المواظب على القدوم) وسوف يقوم بمعاينته مجدداً.

مكتبة الفكر الجديد

«لا تحاجج. أنا أفعل ذلك لمصلحتي» قالت ذلك بتهكم مبطنة القول بانها تفعل ذلك من أجله بالطبع وهذا يحرمه من أي حق للإعتراض. تجهم وجه إيفان ولم يقل شيئاً. شعر أن الأكاذيب التي أحاطت به انفلتت من عقالها لدرجة أنه أصبح لا يفهم شيئاً مما يحصل.

فكل شيء كانت تقوم به كان يصب في مصلحتها، وهي قالت له أنها تقوم بذلك من أجلها ولكنها قالت ذلك بطريقة لا تدعو للتصديق وعليه فإنه أُرغم على افتراض العكس.

في الحادية عشرة والنصف جاء الإختصاصي المشهور الذي قام بمزيد من الفحوصات المرهقة والمعاينات المطولة بحضور إيفان وبغيابه في الغرفة المجاورة ودار الحديث عن الكلية العائمة والمصران الأعور مع طرح الأسئلة واستقاء الأجوبة التي حدثت في جو عكس خطورة الوضع. وعوضا عن الحديث عن سؤال الحياة والموت الذي كان يواجه إيفان دار الحديث عن الكلية والمصران اللذين لم يبليا بلاء حسناً كما ينبغي بحيث سيتكفل في معالجتهما ميخائيل دانيلوفيتش ليصحح مسارهما ليعملا مجدداً.

إستأذن الإختصاصي وبدت على وجهه أمارات الجدّية المصحوبة بشيء من الأمل. وبأجابته على سؤال إيفان الذي طرحه بتحدّ رغم أن عينيه كانتا طافحتين بالخوف والأمل، السؤال المرتبط بفرص التحسن، أجاب الإختصاصي أنه لا يمكن ضمان أي شيء لكن الإحتمال قائم. نظرة الأمل التي اعترت وجه إيفان، بينما كان الإختصاصي يغادر المكان، كانت نظرة تثير الشفقة بالفعل لدرجة أن براسكوفيا لدى رؤيته على تلك الحال انفجرت بالبكاء بينما كانت تغادر الغرفة مصطحبة الإختصاصي لتدفع له أجره.

مكتبة الفكر الجديد

الأ أن الأمل وارتفاع معنويات إيفان بسبب هذه الزيارة لم يدم طويلا. فالغرفة ما زالت ذاتها ، نفس الصور والبرادي وورق الجدران وقوارير الدواء، نفس الجسد، جسده، مازال يعاني، يجتاحه الألم. وعليه، بدأ إيفان بالأنين والعويل وحُقن على إثر ذلك بحقنة نقلته إلى حالة فقدان للوعي.

وعندما استفاق حلّ الظلام. أحضروه لتناول طعام العشاء. تناول قدحا من الحساء بصعوبة بالغة بعدها تكررت تفاصيل الروتين الليلي الذي عانى منه مع كل ليلة.

عندما انتهى العشاء في السابعة أتت براسكوفيا مرتدية أفضل الملابس التي تكتنف ثدييها الكبيرين ملطخة وجهها ببعض المساحيق مستعدة للخروج. فهي كانت قد ذكّرته في ذلك الصباح بأنها ذاهبة للمسرح. فسارة بيرنارد تزور المدينة وقد أصرّ إيفان في ذلك الصباح على زوجته لتحجز مقصورة في المسرح وقال أن العرض سيشكل مادة تعليمية ذات قيمة للأولاد. لكنها نسيت ما قال وأخفى هو مشاعره وغيظه لأنه رآها في مظهرها مرتدية أفخم الملابس مستعدّة للخروج وذلك لأنه هو من اقترح أن تحجز لتلك الليلة.

عندما أتت براسكوفيا إلى غرفته كانت تشعر بالسعادة والزهو عوضاً عن الذنب. جلستْ على طرف الأريكة بجانبه وسألت عن حاله رغم أنه علم أنها كانت فقط تسأل لمجرد السؤال لأنها كانت تعلم أن حالته مزرية. بعدها باشرت بقول ما كان يدور في خلدها وأن لا شيء يمكن أن يمنعها من الذهاب اليوم إلى المسرح. فالمقصورة حُجزت وهيلين صديقة ابنتها كانتا جاهزتين للذهاب وأيضاً بيتريتشوف (خطيب ابنتها،

مكتبة الفكر الجديد

قاضي التحقيق) ولا يمكن أن تترك ابنتها وخطيبها وصديقتها يذهبون من دونها. وإلاّ، فإنها كانت تفضل أن تبقى معه. ويجب عليه أن يلتزم بتعاليم الطبيب بينما هي في الخارج.

«أه، نعم، فيودور (الخطيب) يريد أن يدخل إلى الغرفة. هل لديك مانع؟ وليزا»

«دعيهم يدخلون»

وهنا، دخلت ابنته مرتدية ملابسها على أكمل وجه كاشفة عن بعض جسدها النضر بينما يعاني جسد إيفان الهزيل ما يعانيه. كانت ليزا تتباهى بما لديها من مقومات. جسد قوي معافى..يعبّر بوضوح أن صاحبته ذائبة في الغرام وليس لديها وقت للمرض أو المعاناة أو الموت.. تلك الأمور التي تنغص سعادتها بمجرد التفكير فيها يجب أن تختفي.

وهنا، يدخل فيودور بيتروفيتش، مرتديا ملابس للسهرة مصفّفاً شعره على طريقة إحدى الموضات الفرنسية يتدفق الدم من عروقه الظاهرة على رقبته بسبب الياقة التي تضغط على أسفل العنق والقميص الأبيض وبنطاله الأسود الضيق على فخذيه. يرتدي قفازاً أبيض في إحدى يديه ويمسك في الأخرى بقبعة الأوبرا.

يتسلل خلفه بخجل صبي المدرسة (إبن إيفان) مرتدياً بدلة جديدة وقفازات.. المسكين.. تحيط بعينيه هالتان سوداوان مما عنى الكثير بالنسبة لإيفان. فدائما ما كان يشعر بالشفقة على ابنه. ونظرته الخائفة الرحيمة كانت مثار شفقة لإيفان. فبخلاف جيراسيم، علم إيفان أن ابنه فاسْيا كان الشخص الوحيد المدرك لما يمر به أبيه والمشفق عليه.

جلس الجميع وسألوا عن صحته. بعد ذلك ساد الصمت لفترة.

مكتبة الفكر الجديد

تدخلت ليزا وسألت أمها عن نظارات الأوبرا. تبادلت بعدها الأم والبنت اتهامات مرتبطة بمن وضع النظارات وأين؟؟؟؟؟ وانتهى الجدال على نحو بغيض.

سأل فيودور إيفان عما إذا كان قد رأى سارة بيرنارد من قبل. في البداية لم يفهم إيفان السؤال على نحو تام لكنه أجاب بعدها: «كلا. وماذا عنك؟»

«نعم، بالطبع»

ذكرت براسكوفيا شيئاً كانت ماهرة فيه على نحو خاص. إعترضت ابنتها بلطف. بعدها، إنتقلوا للحديث عن جاذبيتها وتلقائيتها في التمثيل..... المحادثة القديمة التي يعرفها الجميع.

وفي وسط هذا الحديث انتبه فيودور لأمر ما، كان مصدره إيفان. نظر الجميع إلى إيفان الذي كان يحدق إلى الأمام بعينين وضاءتين غاضبتين على نحو واضح. كان يتعين تصحيح الأمور ولم يكن ثمة طريقة لفعل ذلك. يجب خرق الصمت بأية طريقة. لم يحرّك أحد ساكناً. فالجميع كان خائفاً من افتضاح الكذبة التي كانوا يعيشونها وبذلك سينهار كل شيء. لكن ليزا كسرت حاجز الصمت. أرادت أن تغطي على ما كان يشعر به الجميع ولكنها فضحت ذلك الشعور فقالت: «حسنا، إذا ما أردنا الذهاب علينا التحرك الآن» قالت ذلك وهي تنظر في ساعتها، ألهدية التي اشتراها لها والدها، وابتسمت في وجه خطيبها لتمرر له رسالة يعرفها هو فقط دون الآخرين بينما نهضت وبدأت تمشي وحفيف تنورتها يصدر صوتا خافتا.

نهض الجميع. إستأذنوا وغادروا. وعندما غادروا، بدا وكأن إيفان

مكتبة الفكر الجديد

شعر بالآرتياح. فالكذبة غادرت معهم ـ الآ أنّ الألم لايزال متربّصاً به. نفس الألم.. نفس الشعور بالكآبة والخوف أكّد أن الأمور أسوء فأسوء.

مرة أخرى..مضت الدقائق بطيئة، ثقيلة.. والساعات كذلك... بلا توقف ولا نهاية...

«نعم، جيراسيم موجود» ردّ على سؤال بيتر.

مكتبة الفكر الجديد

٩

عادت زوجته في وقت متأخر من الليل. تسللت على أطراف أصابع قدميها باتجاه الغرفة ولكنه سمعها، فتح عينيه وأغمضهما بسرعة. أرادت أن تصرف جيراسيم وتجلس معه. فتح إيفان عينيه وقال لها «كلا. أخرجي أنت»

«هل تعاني من الألم الشديد؟» سألته

«لا يهم.»

«تناولْ بعض الأفيون»

وافقها وشرب بعض المخدر. وانصرفت بعدها. ولغاية الساعة الثالثة فجراً عانى إيفان من ألم شديد وحالة هذيان. حلم أنه بطريقة أو بأخرى أُرغم على الولوج في كيس أسود ضيق والألم لا ينفك يعانقه وهو يُدفع إلى أعماق الكيس أكثر فأكثر ولم يبلغ قعره. كان حلما فظيعا مروّعا. كان مرتعدا. أراد أن ينتهي ذلك الكابوس المزعج. كافح وقاوم تلك القوة الرهيبة التي تدفعه إلى الهوة السحيقة ولكن قواه خارت فجأة واستيقظ مذعورا. كان جيراسيم لا يزال في الغرفة، جالسا عند حافة السرير بصبر عجيب يكبو لبعض الوقت ومن ثم يستيقظ وهو لا يزال

مكتبة الفكر الجديد

القضائي..... والمشاكل المالية التي توالت سنة بعد سنة وعقداً بعد عقد ـ ودائما القصة القديمة ذاتها التي كلّما طالت أصبحت أكثر شراسة ودماراً.

«وكأنني كنت متجها نحو الهاوية بينما اعتقدت أنني متجه نحو الذروة. هكذا الأمر. فمن وجهة نظر المجتمع كنت متجها إلى العُلى ولكن في حقيقة الأمر كانت الحياة تفارقني رويدا رويدا وتدفعني باتجاه الهاوية.... أمّا الآن، فقد انقضى كل شيء. لا شيء باقٍ الاً الموت»

«إذاً ما هو مغزى الحياة؟ ولماذا ينتهي بنا المطاف إلى الموت المفجع؟ مستحيل. مستحيل أن تكون الحياة بهذه التفاهة والقرف. وإذا كانت كذلك حقيقة، لماذا يتعين عليّ إن اموت بهذه الطريقة؟ ثمة خطب ما. ربما لم أعش كما كان ينبغي عليّ أن أعيش؟... ولكن كيف؟ فأنا عشت ملتزماً بالإستقامة وقمت بجميع الأمور على النحو اللائق». تساءل إيفان.

«إذاً، ماذا تريد الآن؟» أن تعيش؟ ولكن كيف؟ تعيش كما كنت تعيش في المحكمة عندما يصرخ الحاجب ويقول «محكمة..... انعقدت الجلسة» «انعقدت الجلسة... انعقدت الجلسة» كرّرها إيفان على نفسه. «سنبدأ بإصدار الحكم»!! لكنني لست مذنباً صرخ إيفان غاضباً «ما معنى هذا؟»

توقفَ عن البكاء وأشاح بوجهه ليواجه الجدار ليفكر في سؤال واحد ملحّ: لماذا كلّ هذا العذاب؟ ما سببه؟

ورغم التفكير ملياً في السؤال إلا أنه لم يستطع الإجابة عنه. وكلما اجتاحته هذه الفكرة ـ مرارا وتكرارا ـ فكرة أنه عاش حياته على النحو

مكتبة الفكر الجديد

الخطأ ولهذا حصل ما حصل معه يتذكر على الفور أنه لم يعش حياته على النحو الخطأ بل العكس تماماً وبالتالي تخلص من تلك الفكرة الشاذة على الفور.

مكتبة الفكر الجديد

١٠

مرّ أسبوعان على تلك الحال. أصبح إيفان غير قادر على النهوض من على الأريكة. ولم يلقَ بالاً للإستلقاء على السرير بل كان ينام على الأريكة قابعاً هناك ووجهه باتجاه الجدار في أغلب الأحيان. وقد عانى من عذاب الوحدة المرّ وفي وحدته قلّب السؤال عينه مرار وتكرارا: ما هذا؟ هل هذا هو الموت حقا؟ وصوت من داخله يجيب: «نعم. إنه الموت». ولم هذا العذاب؟ يسأل إيفان ويجيب الصوت: «لا لشيء. هكذا هو الأمر. موت مجرّد سيفترسك».

منذ بداية المرض ومنذ أن جال على الأطباء إنقسمت حياته إلى نوعين متعارضين متعاقبين من المزاج: اليأس وانتظار الموت المفجع من غير دراية ولا فهم أو الأمل المصحوب بفضول هوسي لاكتشاف وظائف أعضاء جسده. وقد كان يشكّ في أمرين: المصران الأعور أو الكلية. أحدهما توقف عن القيام بدوره كما ينبغي على نحو مؤقت. وهذا سيؤدي بالتالي إلى الموت الفظيع غير المفهوم الذي لا يمكن تجنبه.

وهكذا تعاقب هذان المزاجان عليه منذ بداية المرض. ولكن كلما طال المرض أصبحت تراوده شكوك بل نوبات من السخف إزاء الاعتقاد بأن الكلية لا تقوم بأدائها كما ينبغي بل هو الموت المعلق الذي يشكل خيارا أكثر واقعية.

مكتبة الفكر الجديد

كل ما كان عليه تذكره هو حالته السابقة منذ ثلاثة أشهر وما آلت إليه الآن. تذكر كيف أن حالته الصحية تدهورت على نحو ثابت وكيف أن بصيص الأمل تبدد إلى الأبد.

في أيامه الأخيرة من العزلة، العزلة التي تتعارض مع ضجيج تلك المدينة المأهولة بالسكان، العزلة التي أصبحت تامة ناجزة، العزلة التي تشبه معالمها غور البحار أو باطن الأرض السحيق، ـ في تلك الأيام الأخيرة عاش إيفان فقط على استذكار وإعادة استحداث الماضي. فالصور الزاخرة من حياته أصبحت تغزو مخيلته واحدة تلو الأخرى. وكانت تبدأ دائماً مع الصور القريبة حديثة العهد وتنتقل إلى الأبعد فالأبعد وتستقر في فترة طفولته لتحوم هناك فترة أطول. فإذا تذكر إيفان البرقوق المطهي الذي قدم له مع وجبة ذلك المساء فإنه يعود بالذاكرة إلى طفولته ليقارب المسألة ويتذكر البرقوق الفرنسي المتجعّد ومذاقه المميز وكيف كان لعابه يسيل لدى وصوله إلى البذرة ومع تلك الذكرى تأتي ذكريات مصاحبة كثيرة: الممرضة وأخيه وألعابه... «كلا.. لا تفعل ذلك.. هذا مؤلم» يقولها إيفان ويعود إلى الحاضر ليكتشف أن ثمة زر متجعّد في الأريكة المغربية «إنها باهظة الثمن. ولا تتلف بسرعة. أه.. الأريكة الأخرى في منزل الوالد أدت إلى مشاجرة.. تلك الأريكة تختلف عن هذه. أتذكر أننا أتلفنا محفظة الوالد وعوقبنا لأجل ذلك. بعدها أحضرت الوالدة لنا بعض التُورتة» مرة أخرى تعود به الذاكرة إلى فترة الطفولة ومرة أخرى تلك الذكريات التي كانت مؤلمة. فحاول الإنتقال إلى ذكريات أخرى.

ومجدداً مع قطار الذكريات الجميلة تلك أثار قلقه قطار ذكريات من

مكتبة الفكر الجديد

نوع آخر ـ الطريقة التي تطور فيها مرضه من سيء إلى أسوء. وهنا، كلما ابتعد عن مرضه باتجاه الماضي أصبح للحياة معنى أفضل. كانت بداية حياته مفعمة بالنور والمحبة ولكن كلما تقدم في العمر خفت ذلك النور وانتشرت الظلمة. الحياة، مسلسل من معاناة مطرد يتسارع باتجاه النهاية، أرفع درجات العذاب. وأنا أطير بتسارع إلى مكان ما.... يرتجف إيفان ويحاول المقاومة ولكنه علم الآن أن المقاومة لا تنفع. يدور بعينيه إلى ظهر الأريكة وتتعب عيناه من النظر ولكنه لا يكف عن النظر، ينظر إلى ما هو آت. فهو ملّ انتظار ذلك السقوط، تلك الصدمة، ذلك الفناء. «المقاومة عبثية لا تجدي» يقول لنفسه. «ولكن لو استطعت فقط أن أكشف السر! كلا، مستحيل. قد يكون ثمة تفسير لو عشت حياتي على نحو خاطىء. ولكن ما حصل هو العكس. مستحيل». يقول لنفسه ويتذكر كيف كان دقيقاً عندما تعلق الأمر بالإستقامة أو الإحترام. «لا يمكنك أن تقول ذلك. مستحيل». يحدث ذاته. ويلوي شفتيه ويبتسم كما لو أن شخصاً ما يراقب ما يقوم به ويعجبه ذلك. «لا تفسير... العذاب والموت... لم كل ذلك؟؟».

مكتبة الفكر الجديد

١١

مر أسبوعان على ذلكم الحال. وخلال تلك الفترة حدث أمر كان يتمناه كل من إيفان وزوجته: بيتريتشيف تقدم رسميا لخطبة ابنتهما. حصل ذلك في إحدى الأمسيات. وفي اليوم التالي أتت براسكوفيا إلى غرفة زوجها لتخبره بخطبة فيودور ولكن خلال الليلة السابقة تدهورت حالة إيفان الصحية. براسكوفيا وجدته على نفس الأريكة لكن بوضعية مختلفة. كان مستلقيا على ظهره يئن وينوح مثبتاً نظره على نقطة ما أمامه.

بدأت بالحديث عن دوائه. شاح بنظره باتجاهها. وقبل أن تفرغ من كلامها شعرت بنوع من العداء والكراهية في نظرته المصوبة باتجاهها. «من أجل الرّب. دعيني أموت بسلام!» قال إيفان. بدأت بالإنسحاب من الغرفة وفي اللحظة تلك دخلت ابنتها التي أرادت أن تصبِّح على أبيها. نظر إلى ابنته النظرة ذاتها وإجابة عن الإستعلام عن صحته أوضح بجفاء أنه في القريب العاجل لن يشكل لهما عبئاً. جلست الأم وابنتها لبعض الوقت صامتتين ومن ثم ما لبثتا أن خرجتا من الغرفة.

«ما هو الخطأ الذي اقترفناه؟» سألت ليزا أمها. «قد يعتقد البعض أننا سبب محنته. أنا أسفة على بابا، ولكن لِمَ يتعين علينا أن نعاني نحن؟»

أتى الطبيب في موعده المعتاد وأجاب إيفان عن أسئلته بنعم أو بلا

مكتبة الفكر الجديد

وهو ينظر إليه نظرة شر... قائلاً في النهاية: «انظر.. أنت تعلم جيداً أنك لا تستطيع مساعدتي. أتركني وشأني إذاً»

«يمكننا تخفيف الألم» أجاب الطبيب

«لا يمكنك فعل ذلك. دعني وشأني»

خرج الطبيب إلى غرفة الإستقبال وقال لبراسكوفيا أن وضع زوجها حرج تماماً. شيء وحيد يمكن مساعدته هو الأفيون المخدر. هذا قد يخفف الألم الذي يؤمن الطبيب أنه فظيع بالفعل.

أصاب الطبيب عندما قال أن الألم الجسماني فظيع لكن الأفظع منه كان الألم النفسي، ألم الرّوح الذي عانى منه إيفان على نحو لا يطاق.

تشكلت عذاباته الروحية على نحو فكرة عرضت له فجأة في تلك الليلة التي نظر فيها إلى عيني جيراسيم الناعستين ووجهه الصبوح الطيب وعظام وجنتيه العاليتين. «ماذا لو عشت حياتي على النحو الخاطىء بالفعل؟ حياتي الواعية؟».

خطر له أن هذه الفكرة التي كان يعتبرها مستحيلة على الدوام ـ أي أنه لم يعش حياته على النحو الخاطىء ـ هذه الفكرة قد تكون صحيحة حقا. فكر في أن ظلال الشك الطفيفة التي اختبرها بشأن الأمور التي كانت تُعتبر حسنة من قبل أولئك الذين يشغلون أرفع المناصب، تلك الشكوك التي كان يبددها على الفور ـ تلك الشبهات قد تكون حقيقية وكل ما عداها خطأ محض. كل شيء، مساره الوظيفي وحياته وعائلته والأمور التي شغلت الناس في المجتمع وفي العمل ـ كلها قد تكون خاطئة. حاول أن يدافع عن تلك الأمور ولكنه شعر فجأة بهشاشة ما كان يدافع عنه. لا شيء خليق بالدفاع هنا.

مكتبة الفكر الجديد

«ولكن اذا كان الأمر كذلك» حدث نفسه، «وأنا أغادر هذه الحياة مدركاً أنني أفسدت كل شيء فيها ولا أستطيع تصحيح ما أفسدت، ماذا إذاً؟» استلقى على ظهره وأخذ يفكر في مسلسل الأحداث في حياته بطريقة أخرى تماماً. وفي الصباح التالي، عندما رأى الخادم وزوجته وابنته والطبيب ـ علم أن كل حركة قاموا بها وكل كلمة تفوّهوا بها تعكس الحقيقة المرة التي توصل إليها بالأمس. فقد رأى ذاته فيهم واتضح له أن حياته كانت حبلى بالأخطاء. كان الأمر بمثابة احتيال فادح يخفي حقيقة الحياة والموت. وقد فاقم هذا الإدراك من تدهور حالته الجسمانية بواقع عشرة أضعاف. أخذ يئن ويتلوّى ألماً وأخذ يشد بملابسه التي بدت وكأنها تخنقه. كره كل ذلك.

وبعد أن حُقن بجرعة كبيرة من المورفين فقد وعيه. ولكن مع حلول وقت العشاء عاد ليفكر في ذات الأمر. أخرج الجميع من الغرفة وبقي يتقلب في فراشه.

أتت زوجته وقالت «جينيا، عزيزي، أرجوك إفعل هذا من أجلي (من أجلها؟)» لا تضر أبداً، وغالبا ما تساعدك. أنظر، فقط قليل منه. حتى الأصحاء.....

فتح عينيه إلى أوسع مدىً وقال:

«ماذا؟ القدّاس؟ لماذا؟ لا أقدر على ذلك... آه.. لا أدري..».

انفجرت براسكوفيا بالبكاء.

«حسنا، أيها الغالي؟ سأرسل في طلب القسيس. إنه رجل صالح»

«حسنا. فليكن»

عندما حضر القسيس وسمع اعترافات إيفان إرتاح الأخير وشعر أن

مكتبة الفكر الجديد

شكوكه لم تكن في محلها وبالتالي خفف ذلك من وطأة معاناته واختبر حينها لحظة من لحظات الأمل. وعاد إلى التفكير بمصرانه الأعور وامكانية الشفاء، ربما. وعندما قام بالقدّاس اغرورقت عيناه بالدموع.

وعندما استلقى بعد ذلك شعر بتحسن لبعض الوقت فثمة أمل للإستمرار في الحياة. وفكر بعدها في العملية الجراحية التي عرضت عليه. «أريد أن أعيش أريد أن أعيش» حدث نفسه. دخلت زوجته لإلقاء التحية بعد زيارة القسيس وكررت ما تقوله دائماً ثم اضافت: «تشعر بالفعل بتحسن، أليس كذلك؟»

«نعم» قالها وهو يشيح بوجهه عنها.

فملابسها وقوامها ونظرتها ووجهها ونبرة صوتها ـ كلها تفضح الفكرة ذاتها: هذا خطأ. كل شيء فعلته في حياتك وما تزال تفعله كذب بكذب. إحتيال يخفي حقيقة الحياة والموت عنك. وفي اللحظة التي خطرت بباله تلك الفكرة إزداد كرهه لها وصاحب ذلك الكره ألم جسدي وعذاب وصاحب العذاب وعي بحتمية الهلاك الذي أصبح قريبا. ولكن الأمر اختلف بعض الشيء: طبيعة الألم اختلفت إذ تحولت إلى ألم حاد ملتوٍ وضيق في التنفس.

عندما أجاب ب «نعم» تجهم وجهه. وعندما انتهى من قول «نعم» وهو ينظر إليها مباشرة أصابته نوبة من العواطف الجيّاشة وزمجر في وجهها: «أغربي عن وجهي.. دعيني وشأني»

مكتبة الفكر الجديد

١٢

منذ تلك اللحظة بدأ الصراخ والعويل. واستمر الصراخ لثلاثة أيام بلا انقطاع. كان الصراخ فظيعا لدرجة أن الناس الجالسين على بعد غرفتين ارتعدوا لسماعه. في اللحظة التي أجاب فيها على زوجته علم أنه انتهى ولا يوجد خط عودة لما كان والنهاية المطلقة ماثلة أمامه وشكوكه التي لا حلّ لها ستبقى الشكوك ذاتها.

آه! آه! آه! صرخ إيفان، بنبرة مختلفة. بدأ بالتأوّه مكررا الحرف «آ». خلال تلك الأيام الثلاثة التي نسي إيفان الزمن فيها عانى من الكيس الأسود الذي وضع فيه بقوة خفية لا يستطيع دفعها. كان يقاوم تلك القوة كما يقاوم رجل محكوم بالإعدام جلاده مع علمه أنه لن ينجو من الإعدام. ومع مرور كل لحظة شعر أنه ورغم مقاومته وكفاحه فإنه اقترب شيئاً فشيئاً من شفير الهاوية. شعر أنّ الشيء المسؤول عن الألم هو الذي دفعه في الثقب الأسود ذاك والأسوأ أنه عالق لا يستطيع الخروج. والشيء الذي كان يمنعه من النفاذ هو الحاحه على أنّ حياته كانت حياة جيدة. هذا التبرير كان يعطل تقدمه ويمنعه من المسير ويسبب له أقسى الآلام.

فجأة شعر بضربة قوية على صدره وخاصرته وضيق في التنفس. ودُفع إلى الهوة من جديد وفي آخرها ثمة شيء شبيه بالنور المشع. ما

مكتبة الفكر الجديد

حصل معه شبيه بكونك موجود في مقطورة قطار تظن أنك تتحرك إلى الأمام ولكن في الحقيقة تتحرك إلى الوراء وفجأة تتعرف على الإتجاه الصحيح.

«نعم. كان الأمر مشوباً بالأخطاء»، حدّث نفسه «ولكن لا يهم. من الممكن أن أقوم بالشيء الصحيح. ولكن ما هو الشيء الصحيح؟» تساءل، وفجأة هدّأ من روعه.

كانت الساعة الأخيرة من اليوم الثالث. الساعة التي سبقت موته. في اللحظة التي أتى فيها ابنه ليراه واقترب من سريره. كان إيفان يصرخ بيأس ويلوح بيديه. حصل أن امسكت يده برأس الولد. التقطها الابن ووضعها على شفتيه وانفجر بالبكاء.

كانت تلك اللحظة التي رأى فيها إيفان النور المشع في آخر الهوّة حيث ظهر له أن حياته لم تكن كما ينبغي أن تكون ولكن لا يزال هناك فسحة لإصلاحها. وكان يتساءل عن الشيء الصحيح الذي ينبغي القيام به. هدأ بعدها وأخذ يستمع. شعر، الآن، بأن شخصاً ما يقبل يديه. فتح عينيه فوجد ابنه. شعر بالشفقة إزاءه. قدمت زوجته. نظر إليها. كانت تنظر إليه بيأس فاغرة الفيه مخضبة بالدموع على وجنتيها وأنفها. شعر بالشفقة إزاءها أيضاً.

«نعم. لقد آذيتهم بالفعل» فكر بذلك. «يشعرون بالشفقة عليّ لكنهم سيكونون على ما يرام حال موتي» أراد أن يقول لهم ذلك لكن قواه لم تسعفه لإخراج تلك الكلمات. «على أية حال.... لن يجدي الكلام نفعاً. يجب القيام بشيء». نظر إيفان إلى زوجته وأومأ باتجاه ابنه وقال: «خذيه من هنا.... أرجو المعذرة منه... ومنك...» حاول أن يقول «سامحوني»،

مكتبة الفكر الجديد

ولكنه تلفظ بها على نحو مغاير تماماً «من أجل.....» وكان ضعيفا جداً ليصحح ما قاله ولوح بيديه وكأنه يقول من يريد أن يفهم فإنه سيفهم ما عنيته.

وفجأة اتضح كل شيء: ما كان يقض مضجعه ولا يفارقه بدأ الآن بمفارقته مرة واحدة من على جانبيه بل من جميع الجوانب.

شعر بالأسى إزاءهم وتوجب عليه القيام بأمر ليوقف الضرر الذي ألحقه بهم. ليحررهم ويحرر نفسه من هذا العذاب «ببساطة.. ويسر». فكر «ولكن ماذا عن الألم؟ تساءل. أين ذهب الألم» أيها الألم أين أنت؟

إستمع وانتظر.

«آه، ها هو قادم. ولم العجب؟ أهلا وسهلا بالألم»

«وماذا عن الموت؟ أين هو»

كان يبحث عن خوفه القديم المعتاد من الموت ولكن لم يجده. أين الموت؟ ما هو الموت؟ لا خوف بتاتا لأن الموت غير موجود. بل عوضاً عن الموت رأى نورا.

«إذاً. هذا هو!» قال فجأة بصوت عال. «آه. يا لهذه النعمة». حصل كل ذلك في لحظة واحدة ومغزى تلك اللحظة لم يكن ليتغير. أما بالنسبة للحاضرين فقد استمر عذابه لساعتين إضافيتين. كان ثمة خشخشة في صدره ورجفة اعترت جسده النحيل. بعد ذلك اختفى صوت الصفير والخشخشة من صدره.

«فارق إيفان الحياة» قالها أحدهم فوق رأسه.

مكتبة الفكر الجديد

التقط تلك الكلمات ورددها في روحه «ذهب الموت» قال لنفسه «ذهب».

استنشق بعض الهواء وتوقف في المنتصف وشهق شهقة امتدت قليلاً وفاضت روحه.

انتهى

مكتبة الفكر الجديد

يُمهل ولا يُهمل

ليو تولستوي

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

عاش في بلدة فلاديمير شاب تاجر يدعى إيفان ديميتريتش أكسيونوف. وكان يمتلك دارا ومحلين تجاريين.

أوتي أكسيونوف خِلقة حسنة: شعر فاتح اللون متجعد بطريقة تضفي جمالاً على وجهه المُشرق المُبتسم الذي يعكس روحاً شابة تميل إلى الدّعابة ومولعة بالغناء. في أيام شبابه، عاقر إيفان الخمرة وقد صاحب ذلك صخب في كل مرة كان يُكثر فيها الشراب. إلا أنه بعد أن دخل عش الزوجية هجر الخمرة ولم يتناولها إلاّ في مناسبات نادرة.

وفي أحد فصول الصيف همّ أكسيونوف بالذهاب إلى معرض نيجني في بلدة بعيدة بعض الشيء عن موطن سكنه. وبينما كان يودّع أسرته قالت له زوجته: «إيفان ديميتريتش، لا تغادر اليوم. ثمة حلم سيئ أرهقني في منامي وفيه إشارة سيئة تخصّك شخصياً»

ضحك أكسيونوف وقال: «أنت تخشين أن أنفق أمولاً طائلة في شراء الحاجيات بمجرد وصولي إلى المعرض»

«لا أدري ما سبب خوفي. كلّ ما أعرفه هو أنني حلمت حلماً مزعجاً. حلمت أنه وبعد عودتك من البلدة نزعتَ القبعة وإذا برأسك يشتعل شيباً».

مكتبة الفكر الجديد

ضحك أكسيونوف وعقّب قائلاً: «هذه أمارة حسنة. تدلّ على أنني سأبيع البضاعة بمجملها وسأشتري لك هدايا ثمينة من المعرض»

ودع عائلته وانطلق إلى وجهته.

وعندما قطع نصف المسافة قابل تاجراً كان يعرفه وذهبا سوية لقضاء الليلة في نُزل قريب. إحتسى الرجلان الشاي معاً ومن ثم افترقا، كلٌ في طريقه لينام في غرفة منفصلة لكنها محاذية للأخرى.

لم يكن من عادة أكسيونوف أن يستغرق في النوم. إستيقظ قبل بزوغ الفجر ليستأنف الرحلة في ساعات النهار الأولى الباردة كي يتجنب حرّ النهار. أيقظ سائق العربة وطلب منه تجهيز الحصان. ذهب بعدها إلى المنزل الصيفي الصغير لصاحب النّزل على الجهة المقابلة ودفع له الحساب ورحل.

بعد حوالي أربعين فرسخاً (٤٢,٤ كيلومتر) توقف أكسيونوف ليطعم الأحصنة وارتاح قليلاً في ممر منزل صيفي على الطريق. بعدها انتقل إلى الشّرفة وأمر بتسخين الماء في السّماور وأخرج جيتاره وبدأ بالعزف. وفجأة، أقبلت عربة يجرّها ثلاثة أحصنة تصدر الأجراس المثبتة عليها صوتاً مؤلوفاً. ترجّل من عليها أحد الموظفين الحكوميين متبوعاً بجنديين. توجه نحو أكسيونوف وبدأ بسؤاله عن اسمه وعن المكان الذي أتى منه. أجاب أكسيونوف على الأسئلة بلا مواربة ولا التواء وقال للموظف: «هلاّ احتسيت بعضاً من الشاي معي؟» لكن الموظف تابع طرح الأسئلة. «أين أمضيت ليلة البارحة؟ هل كنت بمفردك أم مع تاجر آخر؟ هل رأيت التاجر الآخر هذا الصباح؟ لماذا غادرت النُزل في ساعات الصبح الأولى؟» تسائل أكسيونوف عن السبب الذي دفع

مكتبة الفكر الجديد

الموظف لطرح أسئلة كهذه. وبعد إجابته عن الأسئلة أضاف: «لماذا تستجوبني وكأنني لصّ أو سارق؟ أنا مسافر لقضاء حاجة خاصة. لدى تجارة أكتسب رزقي منها. ولا داعي لاستجوابي»

نادى الموظف بعد ذلك على الجنود وقال: «أنا ضابط شرطة هذا الإقليم وأنا استجوبك لأن التاجر الذي أمضيت معه ليلة البارحة وُجد مذبوحاً في غرفته. أظهر لي متاعك. وأنتم أيها الجنود! فتّشوه».

دخلوا جميعاً إلى المنزل الصيفي وبدأوا بفتح وتفتيش حقيبته ومتاعه. وفجأة استلّ الضابط سكيناً من كيس كان يحمله أكسيونوف وصرخ قائلاً: «لمن هذه السكين؟»

نظر أكسيونوف ورأى سكينا ملطخة بالدّم أخذت من كيسه ودبّ الذعر في أوصاله.

«من أين أتى الدّم على هذه السّكين؟»

حاول أكسيونوف الإجابة لكنه تلعثم ولم يستطع التعبير عن نفسه: «أنا... لا أدري.... أنا..... السّكين... أنا.... ليست لي»

قال بعدها ضابط الشرطة: «وجد في هذا الصباح صديقك التاجر مضرّجاً بالدماء في سريره بعد أن جُزّ عنقه. أنت الشخص المتهم الوحيد. كان المنزل مقفلاً من الدّاخل ولم يكن ثمة شخص آخر سواك. وهذا السّكين موجود في متاعك وتعابير وجهك وسلوكك يشيان بأنك الفاعل!! أخبرني كيف قتلته وكم من المال نهبت؟»

أقسم أكسيونوف أن لا علاقة له بالمسألة وأنه لم يقتل التاجر بل لم يره منذ أن احتسيا الشاي معاً وأنه لم يسرق أي مال البتة. وقال أنه بحوزته ماله الخاص المقدّر بثمانية آلاف روبل. أوضح ذلك أكسيونوف

مكتبة الفكر الجديد

لكن صوته كان متقطعا ومظهره شاحباً. كان يرتجف من الخوف وكأنه كان مذنباً.

أمر الضابط الجنود بأن يشدّوا وثاقه ويضعوه في العربة. وبينما قاموا بفعل ذلك رسم أكسيونوف إشارة الصليب وبدأ بالنّحيب. صودرت أمواله وبضاعته وأُرسل إلى أقرب بلدة وسجن فيها. مُحصت سيرته في بلدته *فلاديمير* وشهد التجار والعامة هناك على أن أكسيونوف كان يعاقر الخمرة في سابق عهده وكان يتسكّع ويهدر الوقت بلا طائل. لكنه كان رجلا خلوقاً حسناً بشهادة الجميع. بعد ذلك، حوكم بتهمة قتل تاجر من بلدة *ريازان* والسطو عليه وسرقة عشرين ألف روبل.

حزنت زوجته عليه أشدّ الحزن وحارت في كيفية التصرّف. كان لديها أطفالا صغاراً أحدهم لا يزال طفلا رضيعاً. إصطحبت أطفالها وتوجهت إلى البلدة التي يقبع فيها زوجها وراء القضبان. لم يُسمح لها في البداية برؤيته، ولكنها بعد سلسلة من التوسّل والتضرع حصلت على تصريح من الضابط المسؤول وهرعت لزيارة زوجها. وعندما وجدته مكبلاً بالسلاسل قابعاً مع السّوقة والسّارقين رمت بنفسها على الأرض وفقدت وعيها لفترة. بعد أن استفاقت، قرّبت منها أطفالها وجلست بجانب زوجها وأخبرته عن أخبار بلدته وسألته عمّا حصل معه. فسرد عليها القصة فقالت: «ماذا عسانا فاعلون؟»

أجاب: «يجب أن نرفع عريضة استرحام لجلالة القيصر. لا يمكن لرجل بريء أن يقضي طيلة عمره في السجن ظُلماً»

أخبرته الزوجة أنها أرسلت بالفعل بطلب استرحام للقيصر ولكنه قوبل بالرّفض.

مكتبة الفكر الجديد

أطرق أكسيونوف برأسه ولم يعقّب. بعدها قالت زوجته: «كان الحلم ذو مغزى إذاً. هل تذكر؟ كان عليك أن تتحاشى العمل في ذلك اليوم». وبينما مرّرت أصابع يدها في شعر رأس زوجها قالت له: «يا عزيزي، أخبر زوجتك الحقيقة.. هل قتلت الرّجل؟»

أخفى أكسيونوف وجهه وراء يديه متألماً مما سمع وبدأ بالنحيب وهو يقول: «حتى أنت يا بروتس!!! أنت أيضاً تشكين بي». وفي تلك اللحظة جاء الجندي لينهي الزيارة فودّع حينها أكسيونوف زوجته وأولادة للمرّة الأخيرة.

إستعرض أكسيونوف ما جرى من حديث بينه وبين زوجته بعد رحيلها. وعندما استذكر سؤالها بشأن إحتمال تورّطه في ارتكاب الجريمة حدّث نفسه قائلاً: «يبدو أنّ الله وحده يعلم أنني بريء. الله وحده يعلم الحقيقة. فله وحده تنبغي الشكوى. فهو القادر وحده على رحمتي».

بعد ذلك لم يرفع أكسيونوف أي طلبات استرحام وفقد كلّ الآمال وعكف فقط على أداء الصلاة.

أدين أكسيونوف وحكم عليه بالجلد وأرسل للعمل في المناجم. جلد بالسّوط وعندما التأمت جراحه أرسل مع مدانين آخرين إلى سيبيريا.

عاش كمُدان مجرم في سيبيريا لمدة ست وعشرين سنة انقلب شعر رأسه خلالهاإلى بياض كلون الثلج وطالت لحيته الرفيعة وغزاها الشّيب. اختفى كلّ مظهر من مظاهر الفرح والبهجة. انحنى ظهره وبدأ يمشى بتثاقل ويتحدّث نادراً ويحجم تماماً عن الضحك وغالباً ما كان يلجأ إلى الصلاة.

تعلّم في السّجن حرفة صنع الأحذية ذات الرقبة وكسب منها بعض

مكتبة الفكر الجديد

المال الذي أنفقه في شراء كتاب يسمّى «قراءات شهرية» يتناول بعض الخطب والقصص والعظات الدينية وسير القديسين بحسب أيام الشهر. قرأ الكتاب عندما سمح مقدار النّور الذي يتسلل إلى السجن بفعل ذلك. وفي أيام الآحاد كان يقرأ الرسائل الإنجيلية في كنيسة السّجن وكان يغنّي مع الكورال، فقد كان صوته لا يزال حسناً.

أحبّه القائمون على مصلحة السّجن للطفه واحترمه زملاؤه السجناء لكياسته. ونعتوه بألقاب كـ«الجدّ العجوز» و«الرّجل الصالح». وعندما أرادوا أن يطلبوا شيئاً من القائمين على السّجن لجأوا إليه وجعلوه المتحدّث الرسمي باسمهم. وعندما كان يشبّ شجارٌ بين أحد وآخر كانوا يلجأون إليه لفضّ النزاع وحلّ المسألة.

لم تصله أية أخبار عن أسرته حتى أنه لم يكن يعرف إذا كانت زوجته وأطفاله لا يزالون على قيد الحياة.

وفي أحد الأيام دخل السجن مجموعة جديدة من المدانين. وفي المساء، إجتمع السجناء القدامى حول الزّوار الجدد وبدأوا يسألونهم عن الأمكنة التي قدموا منها والتّهم التي وُجهت لهم. جلس أكسيونوف مع الجالسين وسمع ما كان يقوله السجناء الجدد من دون حماسة. أحدهم، وهو رجل ستيني قوي البنية طويل القامة يعتري شعر رأسه بعض الشيب، كان يحدث الجميع عن السبب من وراء اعتقاله وإدانته.

«حسنا أيها الأصدقاء» بدأ حديثه واسترسل قائلاً: «الأمر بمجمله هو أنني أخذت حصانا كان مربوطاً بسرج إعتُقلت على إثر ذلك واتُهمت بالسرقة». قلت أنني أخذت الحصان لأسرع في القدوم إلى المنزل وقد تركت الحصان بعدها يعود أدراجه. بالإضافة إلى أن سائق العربة التي

مكتبة الفكر الجديد

كان يجرها ذاك الحصان هو صديق لي. قلت «الأمر لا ضير فيه»، قالوا: «كلا، لقد سرقته». ولكن كيف وأين سرقته، لم يستطيعوا تحديد ذلك. لقد قمت بعمل مشين في السابق. وكان من العدل أن أزجّ في السجن منذ فترة طويلة. لكن لم يكتشف أحد ما قمت به حينها. الآن، أنا هنا على نحو غير شرعي. إيه، أكاذيب أسوقها لكم: «كنت في سيبيريا مسبقا ولكن لفترة بسيطة»

من أين أنت؟ سأل أحدهم

«فلاديمير. أنا من عائلة تعمل في التجارة هناك واسمي ماكار سيميونوف»

رفع أكسيونوف رأسه وقال: «قل لي سيميونوف هل تعرف شيئاً عن تجار أكسيونوف من فلاديمير؟ هل ما يزالون على قيد الحياة؟»

«أعرفهم؟ بالطبع أعرفهم. عائلة أكسيونوف من الأثرياء لكن أباهم في سيبيريا. ويبدو أنه رجل عاص كالعصاة هنا! ولكن، ماذا عنك ايها الجدّ؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟»

لم يرد أكسيونوف أن ينكأ جراحه. تنهد وقال: «الخطايا التي اقترفتها هي التي أودت بي إلى السجن طيلة السبع والعشرين سنة الماضية»

«أية خطايا؟» سأل ماكار

«حسنا، حسناً، ربما أستحق تلك العقوبة» أجاب أكسيونوف من دون الإتيان على التفاصيل. وتوقف عند ذاك الحدّ لولا أن أصحابه بإلحاح من السائل شرحوا له قصة أكسيونوف وكيف قدم إلى سيبيريا وكيف أن أحداً ما قتل تاجراً ووضع السكين في متاع أكسيونوف وكيف حُكم الأخير ظلماً.

مكتبة الفكر الجديد

عندما سمع ماكار سيميونوف القصة نظر إلى أكسيونوف وضرب بكفه على ركبته وقال: «حسنا! هذه معجزة! نعم، معجزة. ولكن السنين فعلت بك الأفاعيل أيها الجد»

سأله الآخرون عن سبب دهشته وعن المكان الذي رأى فيه أكسيونوف من قبل. لكن ماكار لم يجب عن تلك الأسئلة بل قال: «إن في الأمر معجزة أن نلتقي مرة أخرى أيها الشباب»

تلك الكلمات دفعت أكسيونوف للتفكير فيما لو كان هذا الرجل على معرفة بالقاتل. وعليه، أردف قائلاً: «ربما، سيميونوف، سمعت بتلك الحادثة أو ربما رأيتني في السابق؟»

«لقد سمعت الكثير من الأقاصيص في حياتي أيها الجد! العالم مليء بالشائعات. والحادثة تلك مضى عليها زمن طويل وقد نسيت ما سمعت حينها» أجاب ماكار.

«ربما سمعت اسم الرجل الذي قتل التاجر؟»

ضحك ماكار وأجاب: «ربما الرجل الذي عثر على السكين في متاعه. وإذا ما وضع شخص آخر السكين في متاع المسكين»، حسناً، «السارق مارق حتى يلقى عليه القبض متلبّساً والمتهم بريء حتى تثبت إدانته كما يقال. كيف يمكن لأي امرء أن يضع سكيناً في كيسك بينما الكيس تحت رأسك وتنام عليه؟ كيف لم يوقظك ذلك؟»

عندما سمع أكسيونوف تلك الكلمات أيقن أن هذا الرجل هو القاتل. وقف وغادر المكان. ولم يستطع النوم طيلة تلك الليلة. شعر بحنين عجيب وبدأت الصور تغزو مخيلته. صورة زوجته وهو يودعها في المنزل قبل انطلاقه إلى المعرض. كانت الصورة جلية واضحة وكأن

مكتبة الفكر الجديد

زوجته حاضرة أمامه الآن. وجهها وعينيها وحديثها وضحكتها. رأى بعدها صور أطفاله الصغار كما كانوا في تلك الفترة: واحد يلفه معطف صغير وآخر يرضع من ثدي أمه. بعدها تذكر صورته في تلك الفترة وما كان يبدو عليه: شاب مرح. تذكر كيف بدأ بالعزف على الجيتار في شرفة المنزل الصيفي، المكان الذي اعتقل فيه وكيف كان سعيدا قبل تلك الحادثة. واستذكر أيضاً المكان الذي جُلد فيه وتذكر الجلاد والناس المحيطين به حينها والسلاسل والمدانين وست عشرون سنة من حياته قضاها في السجن وتقدمه المبكر في السن. أفضى كلّ ذلك إلى شعور بالبؤس والشقاء لدرجة أنه فكّر بالإنتحار.

«كلّ ذلك بسبب ذلك الصعلوك الوغد النذل» فكّر أكسيونوف. وارتفعت وتيرة غضبه إزاء ماكار سيميونيفيتش لدرجة أراد فيها الإنتقام منه حتى لو أدّى ذلك إلى مقتله هو. التجأ أكسيونوف إلى الدعاء طيلة تلك الليلة ولكنه لم يطمئن. وخلال النهار، لم يقترب البتة من ماكار سيميونوف ولم ينظر إليه.

مضى أسبوعان على تلك الحال. أرق في الليل وشقاء في النهار. لم يدرِ أكسيونوف كيف يتصرّف.

وفي إحدى الليالي بينما كان يتدرج فيها أكسيونوف في السجن لاحظ كتلة من التراب تتدحرج من تحت أحد الألواح التي كان السجناء ينامون عليها. توقف ليمحص الأمر. وفجأة، تسلل ماكار سيميونيفيتش من تحت اللوح ونظر نظرة رجل خائف إلى أكسيونوف. حاول الأخير أن يستمر بالمشي وكأنّ شيئاً لم يكن لكنّ ماكار أمسك بيده وقال له أنه حفر فتحة تحت الجدار وكان يجمع منها التراب ويضعه في حذائه ومن

مكتبة الفكر الجديد

ثم يتخلص منه كل يوم على الطريق المؤدي إلى المكان الذي يعمل فيه السجناء.

«لا تبُح بشيء أيها العجوز. وستخرج من هنا أيضاً. إذا وشيت بي فسأموت من الجلد. ولكن إذا حصل ذلك سأقتلك قبل أن أُقتل».

إرتجف أكسيونوف من الغضب بينما كان ينظر إلى عدوه. سحب يده وقال: «لا رغبة لي بالهروب ولا حاجة لك لقتلي. لقد قتلتني منذ زمن بعيد. أما الوشاية بك فقد تحصل أو لا تحصل. الأمر يعتمد على توجيه من الله. سأرى»

في اليوم التالي، وبينما بدأ السجناء بالتوجه إلى مكان عملهم، لاحظ الجندي المسؤول أن ماكار سيميونيفيتش كان يفرّغ بعض التراب من حذائه. فُتش السجن ووجدت الحفرة. حضر مدير السجن بعدها واستجوب جميع السجناء. أنكر الجميع لعب أي دور في ذلك. وأولئك الذين علموا بتورط ماكار ما كانوا ليشوا به مخافة أن يلقى حتفه بسبب الجلد. في النهاية، أدار مدير السجن بوجهه صوب أكسيونوف، وكان يعلم بالطبع أن أكسيونوف رجل نزيه عدل، وقال:

«أنت رجل عجوز نزيه. قل لي بالله عليك من حفر الحفرة؟»

وقف ماكار سيميونوف وكأنه لا يبالي بما يحصل ينظر باتجاه مدير السجن ويسرق نظرة باتجاه أكسيونوف بين الفينة والفينة. إرتجفت يدا وشفتا أكسيونوف ولفترة طويلة نسبياً لم يستطع أن ينبس ببنت شفة. حدّث نفسه وفكر: «إذا لم أشِ به وأنجيته من هذه المصيبة، هل يجدي ذلك نفعاً لا سيما أنه الشخص الذي دمّر حياتي؟ لمَ يتعين عليّ

مكتبة الفكر الجديد

مسامحته؟ دعه يدفع مقابل ما عانيته. ولكن إذا وشيت به فإنهم سيجلدوه ويضربوه حتى الموت. وما هي الفائدة التي سأجنيها من ذلك؟»

«إذاً. ما رأيك أيها العجوز؟» كرّر السؤال مدير السجن. «أخبرنا الحقيقة. من كان يحفر من تحت الجدار؟»

نظر أكسيونوف باتجاه ماكار سيميونيفيتش وقال: «لم أر شيئاً ولا أعرف شيئا»

وهكذا لم يُكشف عن الشخص المسؤول عن محاولة الهرب.

في تلك الليلة، وبينما كان أكسيونوف في سريره يحاول الخلود إلى النوم تسلل شخص بهدوء وجلس بجانبه.

«ماذا تريد مني أكثر من ذلك. لماذا أتيت إلى هنا؟» سأل أكسيونوف.

صمت ماكار سيميونيفيتش.

جلس عندها أكسيونوف وقال: «ماذا تريد؟ إذهب وإلا ناديت الحرّاس».

إنحنى ماكار سيميونوف واقترب من أكسيونوف وهمس في أذنه: «إيفان ديميتريتش. سامحني!»

«بخصوص ماذا؟»

«لقد قتلت التاجر وأخفيت السكين في متاعك. كنت أنوي قتلك أنت أيضاً ولكنني سمعت ضوضاء في الخارج مما دفعني لأخفي السكين في كيسك وهربت من النافذة»

صمت أكسيونوف ولم يدرِ ما يقوله. نزل ماكار سيميونوف من على السرير وجثى على الأرض وقال: «إيفان ديميتريتش. إغفر لي بجاه

مكتبة الفكر الجديد

الرّب. سامحني، من أجل الرّب!! سأعترف أنني قاتل وسيطلق سراحك لتذهب إلى أسرتك»

أجاب أكسيونوف: «نعم. من السهل عليك الحديث عمّا حصل، ولكنك لا تدري مدى العذاب الذي عانيته. أين يمكنني الذهاب الآن؟ زوجتي قضت وأطفالي نسوني. ليس لدي مكان لأذهب إليه»

بقي ماكار سيميونوف جاثياً على ركبتيه. لم يقف. بل ضرب برأسه على الأرض وصرخ: «إيفان ديميتريتش، سامحني! عندما جلدوني بالسّوط لم يكن الأمر بصعوبة النظر إليك الآن. ورغم ذلك، عطفت عليّ ولم تشِ بي. سامحني بجاه الرّب. سامح هذا العبد الشقي». ومن ثم بدأ بالنجيب.

ولدى رؤيته يجهش بالبكاء بدأ أكسيونوف بدوره يجهش بالبكاء. وقال: «سيغفر لك الله!. ربما أنا أسوء منك بمئات المرّات». وعلى وقع قول تلك الكلمات زال الغلّ من قلبه وتلاشى التوق إلى بلدته. ولم يكن يشعر بأدنى رغبة للخروج من السجن وتمنى فقط أن تنتهي حياته بسلام.

ورغم ما قاله أكسيونوف إعترف ماكار سيميونيفيتش بذنبه. وعندما صدر العفو بشأن أكسيونوف كان الأخير قد مات في السجن.

انتهى

مكتبة الفكر الجديد

متى وُجد الحُبّ
فثمَّ وجه اللَّه

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

عاش إسكافي في بلدة من البلدات وكان يُدعى مارتن أفدييِتش. وكان يعمل في حجرة صغيرة في قبو ذي نافذة واحدة يمكن للمرء من خلالها أن يرى أقدام المارّة كونها كانت تطلّ على الشارع. أمّا مارتن أفدييِتش فقد كان يعرف جميع المارّة من أحذيتهم التي يرتدونها إذ مضى على عيشه في ذلك المكان وقت طويل تعرّف فيه على أناس كثر جلّهم كانوا زبائنه. لم يكن في الحيّ زوجٌ من الأحذية لم تعالجه يداه مرة أو اثنتين. وعليه، فإنه كان يرى صنع يديه من خلال النافذة. أعاد ترميم الكثير من تلك الأحذية بتبديل نعلها أوترقيعها ووضع غرزٍ فيها أو تجديدها تجديداً كاملا. كان مُنشغلا دائماً وأبداً. إذ كان ماهرا في صنعته ودأب على استخدام مواد أصلية ولم يطلب الكثير من المال لقاء عمله. لقد كان رجل ثقة يُعتمد عليه بالفعل. كان رجلا نزيها لا يقطع على نفسه وعودا لا يستطيع الإيفاء بها فإذا كان باستطاعته إنهاء المهمة خلال يوم واحد وعد بذلك ولم يتخلف عن الوعد وإلاّ فإنه يمهل الزّبون يومين أو ثلاثة أو أكثر. إذاً، كان مارتن أفدييِتش مشهورا في حيِّه منهمكا في عمله. كان، باختصار، رجلا فاضلا طيلة حياته. لكنه أراد، عندما تقدمت به السن، التركيز على الجانب الروحاني من حياته ليتقرب من الله أكثر فأكثر. وبينما كان يعيش ويعمل، لحساب سيّده، توفيت زوجته وتركت له طفلا بعمر ثلاث سنوات. لم يحيَ أطفاله السابقون بل قضوا

جميعهم في سنّ الرضاعة. في البداية، فكّر مارتن بإرسال ولده إلى أخته في الريف ولكنه لم يقوَ على هجره وفكر أن نشأة ولده *كابيتوشكا* في أسرة غريبة سيكون أمراً صعباً للغاية. «سأبقيه معي» قال في سرّه. ترك مارتن في تلك الفترة سيّده وعاش في شقة مع ابنه الصغير. ولكن حظه كان عاثرا مع الأطفال. فبمجرد أن بلغ الطفل سناً تؤهله لإعانة والده وتجعل حياتهما أجمل وأسعد، عصف به المرض وتوفي بعد أسبوع من إصابته بالحمى. دفن مارتن ابنه بيديه وغاص في اليأس المفجع لدرجة أنه تمتم بكلام يعارض فيه قدر الله. وإذ تصاحب مع حزنه العميق القاسي، أخذ يصلي ويدعو ألله أن يلحقه بابنه تارة ويجدّف عليه تارة أخرى لأنه خطف ابنه الذي أحبه أكثر من أي شيء آخر وتركه عجوزاً ضعيفاً يعيش في بؤس وكدَر. بعدها، توقف مارتن أفدييِتش عن الصلاة وارتياد الكنيسة. وفي أحد الأيام، قدم عليه شخص مُسنٌّ من قريته كان سائحا زاهدا متصوفا لمدة ثمان سنين. قدم الرجل من دير *تروتسا*. فتح مارتن أفدييِتش قلبه لهذا الرجل وأخبره بقصة بؤسه وشقائه وأخذ يشتكي.

«أيها الرّجل الصالح. لا أطيق الإستمرار في هذه الحياة البائسة. كل ما أطلبه من الله أن يأخذ روحي في أقرب فرصة. لقد فقدت كل أمل».

أجاب الرجل المسن قائلاً: «لا تملك الحق في قول ذلك، مارتن. لا يمكننا العبث بقدر الله. الأمر لا يتعلق بمشاعرنا أو تفكيرنا المنطقي العقلاني بل بحكمة الخالق. إذا أراد الله لابنك أن يموت وأراد لك أن تعيش، فذلك الأفضل وفقا لحكمته. أما يأسك فسببه أنك تريد أن تعيش لإسعاد ذاتك فقط»

«وما يكون مغزى الحياة غير إسعاد النفس إذاً؟»

مكتبة الفكر الجديد

«أن يعيش المرء ليُرضى الرّب، مارتن. فهو من وهبك الحياة ومن أجله ينبغي أن تعيش. وعندما تتعلم كيف تعيش لأجله فلن تحزن بعدها أبداً وكل أمر سيبدو هيناً بالنسبة لك»

صمت مارتن لبعض الوقت وقال: «ولكن كيف لامرء أن يعيش من أجل الله؟»

أجاب الرّجل: «لقد بيّن المسيح كيفية ذلك. هل تستطيع القراءة؟ إذاً، إشترِ الأناجيل واقرأها وستكتشف الطريقة التي يريدك الله أن تحيا بها. كلّ شيء موضح هناك»

أثرت تلك الكلمات في مارتن أيّما تأثير وحرّكت مشاعره وطغت على قلبه بحيث أنه ذهب في نفس اليوم واشترى العهد الجديد بأحرف كبيرة وبدأ بالقراءة.

أراد أولا أن يقرأ في أيام عطلته ولكن بمجرّد أن بدأ القراءة شعر بزوال الهمّ وانشراح الصدر فأصبح يقرأ في كلّ يوم. كان ينغمس في القراءة، في بعض الأحيان، لدرجة أن زيت المصباح ينفد وينطفئ شعاعه وهو لا يزال يقرأ. إستمرّ في القراءة في كل ليلة وكلما قرأ أكثر فهم ماذا يريد الله منه وكيف ينبغي أن يعيش في سبيله. إنشرح صدره أكثر فأكثر. كان يخلد إلى النوم في السابق وقلبه مثقل بالهموم وصدره ضيق يتأوه حينما يفكر بابنه الفقيد *كابيتوشكا* لكنه اليوم يردد دائماً تسابيحه ويسعد بها: «سبحان الله، سبحانك اللهم، إنا لله وإنا إليه راجعون».

تغيرت منذ ذلك الحين حياة مارتن أفديِتش تغيّراً جذرياً. كان يذهب في السابق إلى الحانة في أيام عطلته ليحتسي بعض الشاي وفي بعض

مكتبة الفكر الجديد

الأحيان يشرب كأسا أو كأسين من الفودكا. كان يزور الحانة بصحبة صديق بين الفينة والفينة. ولكنه لم يحصل أن شرب حتى الثمالة بل كان يخرج من الحانة مسرورا منتشيا يتفوه بحماقات أحيانا. يصرخ في وجه رجل أو يستهزىء بآخر. أما الآن فإن تلك المغامرات أصبحت طيّ النسيان. أصبحت حياته هادئة مسالمة سعيدة. كان يعمل في الصباح وعندما ينتهي ينزل المصباح من على الجدار ويضعه على المنضدة ويلتقط كتاباً من على الرف ويجلس ليطالعه. وكلما قرأ فهم أكثر وأصبح سعيداً.

وحصل أنه كان سهرانا في إحدى الليالي يقرأ إنجيل لوقا وفي الإصحاح السادس قرأ الآيات التالية: «**وَمَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ، فَاعْرِضْ لَهُ الْخَدَّ الآخَرَ أَيْضاً. وَمَنِ انْتَزَعَ رِدَاءَكَ، فَلا تَمْنَعْ عَنْهُ ثَوْبَكَ أَيْضاً. أَيُّ مَنْ طَلَبَ مِنكَ شَيْئاً فَأَعْطِهِ؛ وَمَنِ اغْتَصَبَ مَالَكَ، فَلا تُطَالِبْهُ. وَبِمِثْلِ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يُعَامِلَكُمُ النَّاسُ عَامِلُوهُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً**» وقرأ أيضاً الآيات التي يقول فيها الرّب: «**وَلِمَاذَا تَدْعُونَنِي: يَارَبُّ، يَارَبُّ، وَأَنْتُمْ لا تَفْعَلُونَ مَا أَقُولُهُ؟. كُلُّ مَنْ يَأْتِي إِلَيَّ وَيَسْمَعُ كَلامِي وَيَعْمَلُ بِهِ أُرِيكُمْ مَنْ يُشْبِهُ. يُشْبِهُ إِنْسَاناً بَنَى بَيْتاً، وَحَفَرَ وَعَمَّقَ وَوَضَعَ الأَسَاسَ عَلَى الصَّخْرِ. فَلَمَّا حَدَثَ سَيْلٌ صَدَمَ النَّهْرُ ذٰلِكَ الْبَيْتَ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُزَعْزِعَهُ، لأَنَّهُ كَانَ مُؤَسَّساً عَلَى الصَّخْرِ. وَأَمَّا الَّذِي يَسْمَعُ وَلا يَعْمَلُ، فَيُشْبِهُ إِنْسَاناً بَنَى بَيْتَهُ عَلَى الأَرْضِ مِنْ دُونِ أَسَاسٍ، فَصَدَمَهُ النَّهْرُ فَسَقَطَ حَالاً، وَكَانَ خَرَابُ ذٰلِكَ الْبَيْتِ عَظِيماً!**».

عندما قرأ أفدييتش هذه الكلمات ارتاحت نفسه وهدأت روحه. نزع نظاراته ووضعهما على الكتاب ومال بكوعه على الطاولة وأخذ يتأمل ما قرأ. وبدأ يقيس حياته وفقا لمعايير تلك الكلمات المقدسة طارحاً على

مكتبة الفكر الجديد

نفسه الأسئلة: «هل أسست بيتي على الصخر أو الرّمال؟ لا بأس، لعله قائم على الصخر. ولكن، يبدو من السهل عليك وأنت جالس هنا وحدك الإعتقاد بأنك ملتزمٌ بكل تعاليم الله. ولكن بمجرد أن تخالط البشر وتدخل معترك الحياة فإنك ستذنب. ولكن، سأثابر وأصبر. فالمؤمن غريب يقبض على الجمر. ولكن يا لها من غربة. يا لها من نعمة. يا لها من سعادة. اللهم أعني على الصبر وثبت قلبي على دينك»

فكّر في كل ذلك وكان على وشك الخلود إلى النوم ولكنه لم يقوَ على مفارقة الكتاب. وهكذا، استمرّ بقراءة الإصحاح السابع. قرأ عن قائد المئة (عند الرومان) وابن الأرملة، والإجابة عن سؤال حواري يحيى وانتقل إلى الجزء الذي يدعو فيه فرّيسي ثري المسيح إلى منزله وقرأ عن البغي التي غسلت أرجل المسيح بدموعها ودهنتهما بالطّيب وكيف أن المسيح برّأها وغفر لها. ووصل إلى الآية الرابعة والأربعين فقرأ: «**ثم التفت إلى المرأة وقال لسمعان أتنظر هذه المرأة. إني دخلت بيتك وماء لأجل رجلي لم تعط. وأما هي فقد غسلت رجليّ بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها. قبلة لم تقبّلني. وأما هي فمنذ دخلت لم تكفّ عن تقبيل رجليّ. بزيت لم تدهَن رأسي. وأما هي فقد دهنت بالطيب رجليّ**». قرأ هذه الآيات وحدّث نفسه: «ماء لأجل رجليه لم يعط. قبلة لم يقبّله. بزيت لم يدهن رأسه». نزع أفديِيتش نظاراته مجدداً ووضعهما على الكتاب وبدأ بالتأمل: «لابد أن ذلك الفرّيسي يُشبهني. فقد كان يفكّر بنفسه فقط. كيف يمكن احتساء قدح من الشاي وكيف يمكن الإستمتاع بالدفء والرّاحة. لم يفكر أبداً بضيفه. إهتم بنفسه فقط ولم يعبأ بضيفه. ولكن من كان الضيف؟ المسيح ذاته! إذا زارني المسيح هل أتصرف كما تصرف ذاك الفرّيسي؟؟»

مكتبة الفكر الجديد

بعدها، وضع أفدييِتش ذراعيه خلف رأسه وغرق في نوم عميق على الكرسيّ.

«مارتن» وكأن شيئاً بدأ ينفث أنفاسه خلف أذنه. إستيقظ من نومه وسأل: «من هناك؟». إلتفت ونظر إلى الباب فلم يجد أحداً. نادى مرّة أخرى وسمع بجلاء الكلمات التالية: «مارتن، مارتن، راقب الشارع غداً. فأنا قادمٌ إليك».

إستيقظ مارتن وانتفض من على كرسيّه وفرك عيناه ولم يدرِ إذا سمع تلك الكلمات في منامه أو يقظته. أطفأ المصباح وذهب إلى فراشه لينام.

إستيقظ في اليوم التالي قبل طلوع الفجر وبعد أن صلّى أشعل الموقد وبدأ بطهي حساء الملفوف وعصيدة الحنطة السوداء. بعدها شغل السّماور وارتدى إزاره وجلس يعمل بمحاذاة النافذة. وقلّب في رأسه ما حصل البارحة. بدا له الأمر في أحيان وكأنه حلم وبدا له في أحيان أخرى رؤية صادقة. «هذه الأمور حصلت على مدى التاريخ» فكّر في نفسه.

وبدأ يراقب الشارع من خلال النافذة أكثر من مزاولته العمل. وكلما رأى حذاءً غريباً عن الحي انتفض على قدميه واشرأبّت عنقه ونظر إلى الأعلى من خلال النافذة ليرى وجه صاحب الحذاء. رأى حمّالا يرتدي حذاءً جديداً ورأى بائع ماء وآخرين. بعدها، أتى رجل مسن ينتمي لحقبة القيصر نيكولاي. إقترب من النافذة وهو يحمل رفشاً في يده وينتعل حذاءً قديما ممزقاً عرفه مارتن. كان الرجل يدعى *ستيبانيتش* وكان يقطن مجاناً في منزل تاجر في الحي كان قد أشفق عليه. وكانت مهمته تتلخص في مساعدة حمّال المنزل. بدأ ستيبانيتش بإزالة الثلج المتراكم بمحاذاة نافذة مارتن. ألقى مارتن نظرة عليه وتابع عمله.

مكتبة الفكر الجديد

«لا شكّ أنني بدأت بفقدان عقلي مع التقدم في السّن» قال مارتن. وضحك على حاله وقال: «يأتي ستيبانيتش لإزالة الثلج وأحسبه المسيح. يا لسخفي وحماقتي»

لكنه بعد أن درز الحذاء اثنتى عشرة غرزة شعر أنه مضطر إلى النظر من خلال النافذة مجدداً. رأى ستيبانيتش وقد أنهى عمله واضعاً الرفش إلى الجدار محاولا تناول قسط من الراحة يفرك بيديه لتدفئة نفسه. كان الرجل منهاراً وقواه قد خارت ومن الواضح أنّ واجب إزالة الثلج قد كلفه عناءً كبيرا.

«ماذا لو دعوته لأقدّم له بعض الشاي؟» فكّر مارتن. «بدأ ماء السماور بالغليان».

وضع مارتن المخرز في مكانه ونهض ووضع السماور على الطاولة وحضر الشاي وطرق على النافذة بأصابعه. التفت *ستيبانيتش* واقترب من النافذة. أومأ مارتن بيده ودعاه إلى الداخل وذهب ليفتح له الباب.

«تفضّل إلى الداخل واستدفئ قليلا. أنا متأكد أنك تشعر بالبرد»

«فليخلّصك الرّب. عظامي تؤلمني بلا شك». أجاب *ستيبانيتش*.

دخل *ستيبانيتش* ونفض عنه الثلج أولا. ومن ثم بدأ بمسح رجليه خشية أن يترك أثرا قذرا على الأرض وبينما كان يقوم بذلك ترنّح وكاد يقع.

«لا تمسح قدميك. لا ضير في ذلك. سأمسح الأرض لاحقا. إنه مكان عمل على أية حال. تفضل يا صديقي. إجلس واحتسِ بعض الشاي»

مكتبة الفكر الجديد

سكب مارتن الشاي في قدحين ومرر واحداً لضيفه وبدأ يفرّغ بعضاً من قدحه في صحن القدح وينفخ عليه ليبرد.

شرب *ستيبانيتش* قدحه وقلبه رأساً على عقب ووضع ما تبقى من مكعبات السكر على قاعدته. وبدأ بالتعبير عن امتنانه لمارتن ولكنه كان يرغب بقدح آخر بلا شك.

«هاك قدحا آخر» قال مارتن وسكب دورة أخرى من الشاي في القدحين. وبينما كان يشرب مارتن الشاي كان لا يزال ينظر إلى النافذة.

«هل تتوقع قدوم أحد؟» سأل الزائر.

«هل أتوقع قدوم أحد؟ حسناً، أشعر بالخجل إزاء إخبارك. لا أتوقع قدوم أحد في الواقع ولكنني سمعت صوتا البارحة لا ينفك ينخر في دماغي. ربما كان رؤية أو هلوسة. لا استطيع التمييز. أُنظر، يا صديقي، البارحة كنت أقرأ في الإنجيل وأتدبر كلام المسيح وكيف عانى وساح في الأرض. ربما سمعت بهذا الكلام، صحيح؟»

«نعم سمعت بالطبع ولكنني رجل أمّي لا يستطيع القراءة»

«حسنا، أنظر، كنت أقرأ كيف ساح المسيح على الأرض ووصلت إلى جزء، كما تعرف، ذهب فيه لزيارة رجل فرّيسي ثري لم يؤدّ واجب الضيافة معه. حسناً، صديقي، فكرت في عدم مبالاة ذلك الرجل وكيف أنه فشل في استضافة المسيح بشرف ودماثة. وقلت، لو أنني كنت ذلك الفرّيسي، ماذا عساني فاعل؟ لأن الرجل لم يقدّم له شيئاً إطلاقا. حسناً، صديقي، وبينما كنت أفكر في ذلك الأمر غلبني النعاس وسمعت عندها شخصاً يناديني باسمي. نهضت وخلت لنفسي أنني سمعت شخصاً يهمس في أذني ويقول «سأزورك غداً. كن على استعداد لاستضافتي»

مكتبة الفكر الجديد

وقد كرر الجملة أيضاً. ولكي أكون صريحا معك، عشعشت الجملة تلك في ذهني ورغم خجلي من البوح بها إلاّ انني لم أكف عن النظر من خلال النافذة متوقعاً قدومه. يا إلهي»

هزّ *ستيبانيتش* برأسه صامتا وأنهى قدح الشاي الثاني وأزاحه جانبا إلا أن مارتن نهض وملأه مرة ثالثة.

«هاك، إشرب قدحا آخر. بصحتك. وكنت أفكر كيف هام المسيح في الأرض ولم يكره أحداً إطلاقاً وكان يحب الرعية البسطاء على وجه التحديد. وكان يصاحب الناس العاديين وقد اختار حوارييه من بينهم. أشخاص عاديون شبيهون بنا نحن. عمّال مذنبون كحالنا نحن. وقد قال المسيح أنه من يُمجد ذاته يصبح متواضعا ومن يتواضع تُمجّد ذاته. أنتم تنعتونني بالإله لكنني سأغسل قدميكم. من يأتي أولا دعه يخدم الجميع لأنه، كما قال، الفقير مبارك والمتواضع مبارك والرحيم مبارك واللطيف مبارك»

نسي *ستيبانيتش* قدح الشاي. فقد كان رجلا مسنّاً ذا أحاسيس مرهفة تدفع به إلى البكاء في مناسبات عديدة. وبينما هو ينصت لكلام مارتن انهمرت دموعه على وجنتيه.

«هيا، اشرب مزيدا من الشاي». الحّ مارتن مجدداً.

لكن *ستيبانيتش* رسم إشارة الصليب وشكره ونحّى القدح جانباً ونهض وقال: «أشكرك مارتن أفديِتش. لقد غذيت روحي وجسدي على السواء في هذه الجلسة»

«حللت سهلا *ستيبانيتش*. عليك أن تزورني مرة أخرى. سأكون مسروراً باستضافتك»

مكتبة الفكر الجديد

خرج *ستيبانيتش* وسكب مارتن القدح الأخير وشربه. بعدها، وضّب عدة الشاي وركنها في مكانها واستأنف العمل وبدأ بالغرز مجددا. وبينما كان يقوم بذلك لم يكفّ عن النظر من خلال النافذة في انتظار المسيح شاغلا نفسه بسيرته وفضائله. وبدأت مقولاته تحوم في رأسه.

مرّ جنديان أحدهما يرتدي حذاءً توفره الحكومة وآخر يرتدي حذاءً خاصاً به. مرّ كذلك أحد ملاّك المنازل في الحي يرتدي حذاءً برّاقا. ومرّ خبّاز يحمل سلّة في يده. بعدها أتت امرأة ترتدي جوارب صوفيّة وحذاءً يُصنع عادة للفلاحين. مرّت من أمام النافذة لكنها توقفت بمحاذاة الجدار. إرتقى أفدييِتش بنظره إلى أعلى النافذة ليكتشف أن المرأة غريبة عن الحي. وقد كانت ترتدي ثياباً رثة وتحمل في يديها طفلا. وقفت بمحاذاة الجدار وحاولت أن تتجنب الرّيح وتغطي الطفل وتلفّه ولكنها لم تكن تملك شيئاً تلفه به. فقد كانت ترتدي ثياباً صيفية رثة ممزقة. سمع أفدييِتش من خلال النافذة بكاء الطفل الذي حاولت أمه تهدئته بشتى السبل لكنها لم تفلح. نهض أفدييِتش وفتح الباب وصعد الدرج وناداها: «عزيزتي.. هنا.. هنا.. عزيزتي»

سمعته المرأة فالتفتت.

«لماذا تقفين هنا مع طفلك في هذا البرد القارص؟ أدخلي. يمكنك أن تتدفئي وتغطيه هنا. فالمكان دافىء. تعالي، من هنا».

إندهشت المرأة لرؤية رجل عجوز يرتدي مريلة عمل ويضع نظارات على أنفه يدعوها إلى الداخل لكنها تبعته. نزلا على الدرج ودخلا حجرة صغيرة الحجم وأشار إلى السرير لتجلس عليه.

مكتبة الفكر الجديد

«ها نحن هنا عزيزتي. إجلسي هنا بجانب المدفأة. تدفئي وأطعمي الصغير»

«ليس بحوزتي أي حليب. لم أتناول الطعام منذ الصباح» أجابت المرأة ولكنها وضعت طفلها على صدرها على أية حال.

هزّ أفديِيتش برأسه وذهب إلى الطاولة وأحضر بعض الخبز وأتى بوعاء سكب فيه حساء الملفوف من الفرن. واستل قِدر العصيدة لكن العصيدة لم تكن مطهية بعد فوضع خرقة على الطاولة وقدم الحساء فقط. أتى بالخبز وأخذ فوطة من على مشبك ووضعها على الطاولة.

«إجلسي وكلي يا عزيزتي. سأهتم بأمر الطفل. كان لدي أطفال ولديّ خبرة في التعامل معهم، لا تقلقي»

رسمت المرأة إشارة الصليب وجلست إلى الطاولة وبدأت بتناول الطعام بينما وضع أفدييِتش الطفل على السرير وجلس بجانبه وبدأ يلاعبه ويحاول أن يضرب براحته على شفتيه لعله يصدر صوتا يسليه لكن فمه كان خالِ من الأسنان ولم تنجح الخطة واستمر الطفل بالبكاء. بعدها حاول أن يستخدم سبابته يقربها باتجاه فم الطفل ومن ثم يسحبها بسرعة علّه يكف عن البكاء. كرّر ذلك مرّات ومرّات ولكنه لم يلامس فم الطفل بسبّابته لأن إصبعه كان اسوداً متسخاً بسبب الشمع الذي يستخدمه في مهنته. بدأ الطفل بمراقبة سبّابة العجوز، بعدها بدأ بالضحك. شعر حينها أفدييتش بالسرور. كانت المرأة تتحدث إلى أفدييتش بينما كانت تأكل. حدثته عن نفسها وأين كانت.

«أنا زوجة جندي. أرسلوا زوجي منذ ثمانية أشهر إلى مكان بعيد. ولم أسمع عنه منذ أن غادر. كنت أعمل كطاهية إلى أن أنجبت طفلي.

مكتبة الفكر الجديد

بعدها، لم يرق لهم إبقائي في العمل بصحبة الطفل. لقد عانيت الأمرّين طيلة الأشهر الثلاثة الماضية. لم أستطع أن أجد مكانا يأويني. بعت كلّ ما أملك لأبتاع الطعام. حاولت أن أعمل كمرضعة لكن بلا جدوى. قال الجميع أنني ضعيفة هزيلة أعاني من سوء التغذية. كنت اليوم في زيارة لزوجة تاجر (تعمل لديها امرأة من قريتنا) وقد وعدتني بإيجاد عمل لي. اعتقدت أنني سأباشر العمل على الفور لكنها قالت لي أن أعود في الأسبوع القادم. تقطن السيّدة في مكان بعيد جداً وأنا تعبة وطفلي جائع، ذلك المسكين. لحسن الحظ أن مالكة المنزل الذي أعيش فيه أشفقت عليّ وسمحت لي أن أعيش مجاناً وإلاّ فإن حالتي كانت ستتفاقم لا محالة»

تنهد أفدييتش وقال: «هل بحوزتك أية ملابس شتوية تقيك البرد؟»

«كيف لي أن أحصل على ملابس شتوية؟ لقد رهنت شالي الأخير البارحة لأحصل على عشرين كوبيك (فلسا)»

أقبلت المرأة على صغيرها وحملته. نهض أفدييتش وأخذ يقلب في بعض الأشياء المعلقة على الجدار وأتى برداء قديم.

«هاك. رغم أنه بال قديم مهترىء لكنه سيمنع عنك البرد بعض الشيء»

نظرت المرأة إلى الرداء ومن ثم إلى العجوز. أخذت الرداء وانفجرت بالبكاء. شاح أفدييتش بوجهه عنها وذهب يتلمس صندوق الثياب تحت السرير. تحسّس ما في داخله وعاد وجلس مقابل المرأة.

«فلينجّك الله، أيّها الجدّ اللطيف. لقد أرسلني الله إلى تلك النافذة. كان الطفل على وشك التجمد من البرد. كان الجوّ باردا بعض الشيء في

مكتبة الفكر الجديد

البداية. لكن، أنظر إلى قساوته الآن. ألهمك الله لكي تنظر من خلال نافذتك لتشفق عليّ وتحنّ على هذا الطفل الشقي»

إبتسم أفديِيتش وقال: «هذا صحيح تماماً. الله من ألهمني لفعل ذلك. لم يكن الأمر مجرّد مصادفة»

وقصّ على المرأة حلمه وكيف سمع صوت المسيح يعده بزيارة في ذلك اليوم.

«كل شيء محتمل» أجابت المرأة ونهضت ورمت الرداء على كتفيها والتفت به مع طفلها. بعدها انحنت وحيّت العجوز وشكرته.

«بالله عليك. فلتقبلي هذه» قال العجوز وقدم لها عشرون كوبيكاً لتفك رهن شالها. رسمت المرأة إشارة الصليب وفعل العجوز نفس الشيء واصطحبها خارج الغرفة ليودّعها.

وبعد رحيلها، تناول أفديِيتش بعض الحساء ووضّب المكان وعاد إلى عمله. إستأنف عمله لكنه لم ينس النافذة. وفي كل مرّة كان يلمح فيها ظلاً يقترب منها كان ينظر إلى الأعلى ليرى صاحب الظل. مرّ الكثير من الناس. معارف وغرباء لكن لم يلفت انتباهه أحد على وجه التحديد.

بعد فترة، شاهد أفديِيتش امرأةً عجوزاً وقفت أمام نافذته. كانت بائعة جوّالة تحمل التفاح في سلة كبيرة ولكن لم يبدُ أن ثمة الكثير من التفاح في السلة. يبدو أنها باعت غالبية التفاح. كانت تحمل على كتفها كيساً فيه حزمة من الحطب أرادت أن توصلها إلى منزلها. لا شك أنها جمعت الحزمة في مكان يُبنى فيه منزل ما. لا ريب أيضاً أن الحزمة كانت ثقيلة وكانت ترهق كاهلها لذلك اضطرت أن تنقلها من كتف إلى آخر. وضعت الحزمة على طريق المشاة وركنت سلة التفاح إلى أحد العواميد

مكتبة الفكر الجديد

وبدأت تهزّ عيدان الحطب في الكيس. وبينما كانت تقوم بذلك، ركض صبي بملابس رثة نحوها وسرق تفاحة وحاول أن يهرب لكن العجوز انتبهت له والتفت ومدّت يدها لتمسكه من كمّ قميصه. بدأ يكافح ليخلص نفسه من قبضتها لكن العجوز أمسكت به بكلتي اليدين. أسقط أفدييِتش المثقب من يده ولم يكترث لوضعه في مكانه وهرع نحو الباب. تعثر على الدّرج وأسقط نظاراته وخرج مسرعا إلى الشارع. كانت المرأة العجوز تمسك بالصبي من شعره وتوبخه وتهدده بالشرطة وكان الصبي يقاومها ويعترض بقوله: «لم أسرقها. لمَ تضربينني؟ دعيني أذهب»

فصل أفدييِتش بينهما وأخذ الصبي من يده وقال: «دعيه يذهب أيتها الجدّة. سامحيه من أجل الرّب»

«نعم سأسامحه مسامحة لن ينساها طيلة السنة! سآخذ هذا اللص إلى الشرطة»

بدأ أفدييتش بالتوسل إلى المرأة: «دعيه يذهب أيتها الجدّة. لن يفعلها مجدداً. دعيه يذهب بحق الرّب»

تركت العجوز الصبي الذي همّ بالهرب لكن أفدييِتش أوقفه قائلاً: «اطلب الغفران من الجدّة! ولا تفعلها مرّة أخرى. رأيتك بأم عيني تحاول انتشال التفاحة»

بدأ الصبي بالبكاء طالبا المغفرة.

«حسنا. هذا يكفي. هاك تفاحة لك» أخذ أفدييِتش تفاحة من السلة وقدّمها للصبي قائلاً: «سأدفع لك ثمنه، أيتها الجدّة»

«بفعلك هذا، ستفسد أخلاقهم، يجب أن يجلد اللصوص الملاعين ليعتبروا» أجابت العجوز.

مكتبة الفكر الجديد

«يا جدّة، يا جدّة، هذه طرائقنا. لكن طريقة الرّب تختلف. إذا أردت أن تجلديه بسبب تفاحة، ما سيكون عقاب خطايانا نحن بالله عليك؟»

صمتت الجدّة. وقص عليها أفدييِتش قصة المسيح الذي سامح مدينهُ العبد بدين كبير كان قد استدانه. وكيف أن ذلك العبد فعل العكس تماماً عندما استدان منه شخص مبلغاً فأمسك في خناقه ليدفعه عندما بلغ الأجل. أصغت المرأة العجوز لكلام أفدييِتش كما فعل ذلك الصبي أيضاً.

«يحثنا الله على العفو والغفران والمسامحة. وإلا، فلن نُسامَح ولن يُعفى عنا. يجب أن نغفر للجميع لا سيما لصبي غير ناضج كهذا الصبي»

هزت المرأة براسها تنهدت وقالت: «أنت محق تماماً. ولكنهم يفسدون إذا لم نكن صارمين معهم»

«على العكس. يجب أن نأخذ بيدهم ونعاملهم بالرفق واللين»

«نعم هذا صحيح. كان لدي سبعة أطفال لم يبقَ منهم سوى ابنتي» سردت المرأة العجوز قصتها على أفدييِتش وأخبرته عن مكان سكنها وأحفادها وحفيدتها من ابنتها. «لقد أصبحت طاعنة في السن وقد خارت قواي ولكنني أعمل بجدّ لأجل عيون أحفادي. آه، كم هم لطفاء. لا يستقبلني أحد سواهم». تأتي *أنيوشكا* الصغيرة وتلتصق بي وتقول: «ها. إنها جدّتي، حبيبتي جدّتي، عزيزتي جدّتي.. ما ألطف ذاك المخلوق». تحولت المرأة العجوز وهي تتحدث عن أحفادها إلى امرأة وديعة لطيفة. «بالطبع، ما فعله الصبي ينمّ عن طفولته وعبثه لا غير. اللهم ساعده ووفقه» في إشارة إلى الصبي.

مكتبة الفكر الجديد

وبينما همّت المرأة بوضع الكيس مجدداً على كتفها تقدم الصبي وقال: «دعيني احمله عنك، يا جدّة. أنا ذاهب في نفس الإتجاه»

هزّت العجوز برأسها ووضعت الكيس على ظهر الصبي وذهبا معاً نزولاً على الطريق ونسيت العجوز تماماً أن تطلب من أفدييِتش ثمن التفاحة. وقف أفدييِتش يراقبهما وهما يمشيان يتحدثان مع بعضهما البعض.

عاد أفدييتش إلى منزله بعد أن غابا عن ناظريه. وبعد أن وجد نظاراته سليمة من دون خدوش على الدرج التقط المِثقب وعاد لمزاولة عمله. عمل لبعض الوقت إلى أن لم يستطع أن يقوى على تمرير المِثقب من خلال الثقوب في الجلد. ولكنه لاحظ مُشعل المصابيح يمرّ ليشعل مصابيح الشارع.

«يبدو أن الوقت قد حان لإشعال المصباح» فكّر أفدييِتش. شذّب فتيل المصباح وعلقه على الجدار وأشعله واستأنف العمل. أنهى حذاءً وبدأ بتدويره وتمحيصه. بدت المهمة ناجزة. بعدها، جمع معدّاته وكنس قصاصات الجلد ووضع المثاقب والخيطان جانباً وأنزل المصباح ليضعه على الطاولة. أخذ الإنجيل من على الرّف وأراد أن يكمل من حيث انتهى البارحة لكن حصل أن فتح الكتاب على صفحة أخرى. وبينما همّ بالمطالعة راوده حلم البارحة ذاته وبعد لحظات سمع وقع خطى وكأن شخصاً ما يتحرك خلفه. نظر مارتن إلى الوراء وبدا له أن اناساً يقفون في الزاوية المظلمة ولكنه لم يستطع التعرف عليهم. همس صوت في أذنه: «مارتن، مارتن، هل تعرفني؟»

«من؟» تمتم مارتن.

مكتبة الفكر الجديد

«هذا أنا» قال الصوت وانبرى *ستيبانيتش* من خلف الظلام وتقدم ليرى مارتن وجهه مبتسماً ومن ثم اختفى كالشبح.

«هذا أنا» قال الصوت مجدداً. ومن عتمة الغرفة تقدمت المرأة وطفلها بين يديها. إبتسمت هي وضحك طفلها واختفيا معاً.

«هذا أنا» جاء الصوت مجدداً. وتقدمت المرأة العجوز والصبي وابتسما له واختفيا.

شعر مارتن بنشوة في روحه. رسم إشارة الصليب ووضع نظاراته وبدأ يطالع الإنجيل من الصفحة التي فتح الكتاب فيها وفي أعلى الصفحة قرأ: «**لأني جعتُ فأطعمتموني، عطشت فأسقيتموني، كنت غريبا فآويتموني**»

وقرأ في أسفل الصفحة: «**فيجيبهم قائلاً الحق اقول لكم بما انكم لم تفعلوه باحد هؤلاء الاصاغر فبي لم تفعلوا**»

فهم أفدييتش أن حلمه كان واقعاً وأن المخلص زاره بالفعل في ذلك اليوم وأنه آواه وأطعمه وسقاه.

انتهى

١٨/٠١/٢٠١٤

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

الشيطان

مكتبة
الفكر الجديد

I

إنجيل متى: الإصحاح الخامس

«وأما أنا فأقول لكم: إن كل من ينظر إلى إمرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه(٢٨). فإن كانت عينك اليمنى تعثرك، فاقلعها وألقها عنك. لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم(٢٩). وإن كانت يدك اليمنى تعثرك، فاقطعها وألقها عنك، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم(٣٠)».

أمام ييفغيني أرتينيوف (يوجين)[١] مسار مهني رائع، فهو يمتلك كل المؤهلات التي تمكنه من تحقيق مستقبل مشرق، فتعليمه المميز يثير الإعجاب. فقد تخرج من كلية القانون في جامعة سانت بطرسبورغ مع مرتبة الشرف، ولديه علاقات مع المجتمع الراقي في المدينة بسبب نفوذ أبيه الذي توفي مؤخراً، حتى أن وظيفته الأولى في إحدى الوزارات حصل عليها من خلال معرفة أبيه بالوزير نفسه. عاش والده في بطرسبورغ وخارج البلاد وقد وفر لإبنيه يوجين وأندريه (وهو الإبن

---

(١) ارتأيت استخدام الاسم اليوناني (يوجين) عوضاً عن الاسم الروسي (ييفغيني) لأن الأخير قد لا يوائم ذائقة القارئ العربي لاسيما أولئك الذين لا يعرفون الروسية. فقد تصعب تهجئته. (المترجم)

مكتبة الفكر الجديد

الأكبر الذي كان يعمل في حرس الخيالة) ستة آلاف روبل سنويا بينما كان ينفق هو وزوجته أموالا طائلة. كان الأب يزور عزبته لشهرين فقط في الصيف ولم يكن مهتما بإدارة شؤون العزبة بل فوض الأمر إلى مدير عديم الضمير فشل أيضاً في العناية بها رغم أن الأب كان يثق فيه ثقة عمياء.

وبعد موت الأب، بدأ الأبناء بتقسيم الميراث واكتشفوا أن ثمة ديوناً كثيرة أثقلت كاهل الأب لدرجة أن محامي الأسرة نصح الأبناء بالتخلي عن إرث الوالد والاحتفاظ فقط بعزبة تركتها لهم جدتهم بقيمة مئة ألف روبل. لكن أحد الجيران من ملاك الأراضي الذي تعامل تجاريا مع الوالد أرتينيوف وكان بحوزته كمبيالة من المتوفى كان قد قدم إلى بطرسبرغ ليسترد الدين، لكنه قال إنه برغم ديون الوالد يمكن للأبناء أن يسووا الأمر بحيث يحصلوا على مبلغ ضخم (يقتضي ذلك بيع الغابة وبعض الأراضي الأخرى النائية، مع الاحتفاظ بعزبة سيميونف الغنية مع أربعة آلاف ديسْيَاتن[1] من الأراضي ذات التربة السوداء ومعمل السكر ومئتي ديسْيَاتن من المروج المائية) شريطة أن يفرّغ أحد الأبناء نفسه لإدارة العزبة والاستقرار فيها وزراعتها والعناية بها بحكمة.

وهكذا وبعد وفاة الوالد في فترة الصوم الكبير، زار يوجين العزبة في الربيع ومحّص الأمر وقرر أن يتقاعد من الخدمة المدنية ويستقر في الريف مع أمه ويأخذ على عاتقه مسؤولية إدارة جميع ممتلكات والده بهدف المحافظة على العزبة الرئيسية، وقد رتب الأمر مع أخيه أندريه، الذي كانت تربطه به علاقة حب ومودة، بحيث يدفع له أربعة آلاف

(١) ديسْيَاتن: وحدة قياس روسية تساوي ٧.٢ فدان

مكتبة الفكر الجديد

روبل سنويا أو يدفع له ثمانين ألف روبل كدفعة واحدة مقابل حصته في الميراث.

وهكذا رتب يوجين الأمور واستقر مع أمه في المنزل الكبير وبدأ بإدارة العزبة بحماسة ولكن بحذر.

يفترض عادة أن يكون المحافظون من المسنين، بينما ينتمي أولئك الذين يحبذون التغيير إلى قطاع الشباب، هذه المعادلة ليس صحيحة تماماً، فالمحافظون عادة شباب يريدون العيش لكنهم لا يفكرون في كيفية العيش وليس لديهم وقت للتفكير ويتبعون بالتالي أسلوب عيش لأنفسهم يكون أسلوبا قديماً قد جُرب من قبل.

وهكذا انطبق الحال على يوجين، وبما أنه استقر في القرية فإن هدفه انصب على إعادة شكل الحياة لما كان عليه في السابق في عهد جده وليس أبيه (لأن أباه كان مديراً فاشلاً لممتلكاته). وهكذا باشر الآن بمحاولته استلهام روح الحقبة التي عاش فيها جده، مع إجراء تغييرات على نطاق واسع توائم العصر الحالي بالطبع، في المنزل والحديقة والعزبة متبعا نظاما صارما يرضي الجميع. ولكن فعل ذلك تطلب عملا دؤوبا، وقد كان من الضروري الإيفاء بمتطلبات الدائنين والمصاريف، ولهذا الغرض كان من اللازم بيع بعض الأراضي والترتيب لتجديد الإئتمان. أما الحصول على المال فكان شرطاً للاستمرار (جزئياً من خلال تأجير الأراضي للمزارعين واستئجار العمال) في الإصلاحات المهولة على عزبة سيميونوف التي تمتد على أربع مئة ديسْيَاتن من الأراضي الفلاحية ومعمل السكر فيها أيضاً، كان من الضروري العناية بالمنزل والحديقة لكي لا يبدوا مهملين أو متداعيين.

مكتبة الفكر الجديد

تعين إذن إنجاز الكثير من العمل، وتمتع يوجين بالكثير من القوة البدنية والروحية، فقد كان يبلغ من العمر ستة وعشرون عاما، ذو حجم متوسط وبنية قوية وعضلات مفتولة بفضل ممارسته للتمارين الرياضية، يتدفق الدم في عروقه، وذو وجنتين حمراوين وأسنان بيضاء ناصعة وشفتان زاهيتان وشعر أملس ناعم جعد. كان يوجين يعاني فقط من مشكلة قصر النظر، لذلك لم يستطع التخلي عن نظارة الأنف التي خلفت خطاً على جسر أنفه.

هكذا كانت سماته الخِلقية، أما السمات الروحية فمن الممكن القول إن المرء كلما تقرب منه أحبه أكثر فأكثر، أما أمه فكانت دائماً تحبه أكثر من أي شخص آخر، والآن وبعد موت زوجها لم تفرغ مشاعرها لإبنها فحسب بل فرغت حياتها برمتها له، ولم تكن أمه الشخص الوحيد الذي أحبه بل أحبه جميع زملائه في المدرسة الثانوية والجامعة وكانوا يكنون له كل الاحترام أيضاً. وهكذا كان تأثيره على كل من قابله، فقد كان من المستحيل عدم تصديق ما يقوله ومن المحال الشك في وجود أي مراوغة أو زيف في الرجل الذي تمتع بوجه صبوح نزيه شريف انعكست روحه الجميلة من خلال عينيه.

وعلى العموم، فقد ساعدته شخصيته كثيراً في إدارة شؤونه، ويحصل أن يرفض دائن تسليف شخص ما ويقبل تسليف يوجين بسبب الثقة التي تَرْشحُ منه. أما مختار القرية أو الفلاح أو الكاتب فقد يلعبوا لعبة قذرة ويحتالوا على شخص ما لكنهم لا يستطيعون الاحتيال على يوجين بسبب الانطباع اللطيف الذي يولده في نفوس الآخرين وشخصيته المحبوبة وفوق كل شيء صراحته المعهودة.

مكتبة الفكر الجديد

في نهاية مايو استطاع يوجين بطريقة أو بأخرى تحرير الرهن العقاري لقطعة أرض أراد بيعها لتاجر، وكان قد استلف بعض المال من التاجر نفسه ليسد النقص في مخزونه من الخيل والثيران والعربات لا سيما البدء في بناء بيت في المزرعة. نقل الخشب بعدها وباشر النجارون العمل كما أحضرت ثمانون عربة تحمل السماد لكن الأمور كانت غير مستقرة فكل شيء كان معلقا بخيط.

مكتبة الفكر الجديد

II

وفي خضم تلك الاهتمامات اعترض سبيل يوجين أمر قض مضجعه رغم تفاهته. ففي شبابه عاش كما يعيش الشباب الأصحاء غير المتزوجين. إذ كانت له علاقات مع نساء من مختلف المشارب. لم يكن ليبيراليا في هذا المسعى لكنه لم يكن راهبا أيضاً، كما عبر عن ذلك بنفسه. بيد أنه وبحسب تعبيره، لجأ إلى إقامة تلك العلاقات حسب الضرورة بغية العناية بصحته البدنية وتحرير عقله من أدران الإجهاد النفسي. وقد بدأ ذلك عندما كان يبلغ من العمر ست عشرة سنة. واستمر في ذلك برضى نفس، فقد كان مقتنعا تماماً أنه لم يسلم روحه للفسق والفجور ولم يفتتن بأي منهن ولو لمرة واحدة ولم يصب بأي مرض البتة. أقام العلاقة الأولى في مدينة بطرسبورغ مع خياطة لكنها ما لبثت أن شعرت بالدلال وازدادت طلباتها فهجرها. وهكذا كان عصياً على الحب في علاقاته وقد أمن نفسه من الوقوع في تلك التهلكة فلم يكترث كثيراً لعلاقاته مع النساء أصلا.

أما الآن فقد مضى على وجوده في الريف شهران ولم يدر البتة ما عساه فاعل! فضبط النفس الإلزامي بدأ يؤثر عليه سلبيا. هل يتعين عليه الذهاب إلى البلدة لتلبية تلك الحاجة إذن؟ ولكن أين؟ وكيف؟ كان ذلك الشيء الوحيد الذي أزعج يوجين (يفغيني إيفانوفيتش) ولكن بما

مكتبة الفكر الجديد

أنه كان مقتنعا بأنها ضرورة وأنه بحاجة إليها فقد غدت بالفعل ضرورة إذ شعر بأنه لا يستطيع ضبط نفسه بعد الآن ورغما عن أنفه لاحقت عيناه جميع الشابات.

لم يبرر يوجين إقامة علاقات مع نساء متزوجات أو فتيات من قريته بل عارض ذلك بشدة، وقد كان على علم من خلال الروايات بأن والده وجدّه كانا مختلفين تماماً في هذا المسعى مقارنة مع غيرهم من ملاك الأراضي. ففي قريتهم لم يقيموا أي علاقة مع أي قروية فلاحة، فقرر أن يحذو حذوهما في هذا الخصوص، لكن وبعد فترة ومع تنامي الشعور بتلك الضرورة يوما بعد يوم واستبداد ذلك الهوس وتخيله لما يمكن أن يحصل له من رعب إذا ما تم الأمر في قرية مجاورة وحقيقة أن أيام الرق والعبودية والجواري قد ولّت من غير رجعة، قرر أن يلبي حاجته بالسرعة الممكنة ومن دون أن يعرف أحد بها وأقنع نفسه بأن الغرض من ذلك لا يمت بصلة إلى الفسوق بل لأغراض صحية، كما قال. وعندما اتخذ ذلك القرار أصبح أكثر توتراً، فعندما كان يتحدث مع شيوخ القرية أو الفلاحين أو النجارين كان يأتي على ذكر النساء في حديثه من غير قصد، وعندما يخوض الجميع في ذلك اللغو لا ينفك يستمر فيه بلا انقطاع. وهكذا بدأ يلحظ النساء أكثر فأكثر.

مكتبة الفكر الجديد

III

كان التفكير في المسألة وتقليبها في رأسه أمراً، وتنفيذها على الأرض أمراً مختلفا تماماً، فالحديث مع إمرأة بالنسبة له كان شيئاً مستحيلا، أي إمرأة؟ وأين؟ القيام بالأمر يتطلب طرفا ثالثا، ولكن من هو الطرف الثالث؟

ذهب مرة إلى كوخ يقطنه الحارس الذي كان يساعد والده أثناء رحلات الصيد في الغابة ليشرب بعض الماء، وتبادلا أطراف الحديث وبدأ الرجل بسرد قصص غريبة عن حمى الصيد. وخطر في بال يوجين أن يرتب المسألة هنا في هذا الكوخ أو في الغابة لكنه لم يدر كيف يدير الأمر وفيما لو كان دانيلا العجوز يستطيع مساعدته في تلك الترتيبات، «ربما سيصاب بالرعب بسبب مقترح كهذا وسأشعر بالعار، ولكنه قد يوافق عليه ببساطة» فكر يوجين في ذلك بينما كان يستمع إلى قصص دانيلا. قصّ دانيلا عليه كيف أنه عندما توقف مع أبيه في كوخ زوجة سكستون في حقل بعيد وكيف أحضر إمرأة إلى فيودور زاخاريتش بريانيتشنيكوف.

«أستطيع إذا أن أفاتحه في الأمر» فكر يوجين في نفسه.

«أما والدك، ليدخله الرب فسيح جناته، فلم يرتكب تلك الحماقات»

مكتبة الفكر الجديد

«لا أستطيع أن أفاتحه في الأمرإذاً»، فكر يوجين، لكنه أراد جس نبضه: «كيف تورطت في أمور سيئة كهذه؟»

«ولكن ما هو وجه السوء في ذلك؟» طاب للمرأة ما حصل وفيودور زاخاريتش كان راضيا، راضيا جدا؟ وأنا حصلت على روبل. لم، ماذا تعين عليه أن يفعل؟ فهو رجل يحب الحياة ويشرب النبيذ.

«إذا، يمكنني مفاتحته بالأمر» فكر يوجين وباشر في ذلك.

«هل تعرف يا دانيلا، لا أدري كيف أقوى على التحمل بعد اليوم» شعر يوجين بأن لونه تحول إلى القرمزي، ابتسم دانيلا وتابع يوجين: «في نهاية المطاف، أنا لست راهبا وكنت متعودا في السابق القريب على تلك الممارسات»

شعر أن ما كان يقوله يعتريه شيء من الغباء، لكنه طاب له أن يرى دانيلا موافقا على ما قال.

«لم، بالطبع، كان يتعين عليك أن تشرح لي ذلك منذ زمن. يمكن ترتيب الأمر، لا عليك، فقط قل لي من منهن تريد» أجاب دانيلا.

«آها! كلهن سواسية بالنسبة لي، على أن لا تكون قبيحة بالطبع، ويجب أن تتمتع بصحة جيدة» أجاب يوجين.

«أتفهم ذلك!» أجاب دانيلا باقتضاب. وفكر قليلاً ثم قال: «آه! ثمة حسناء لذيذة!». تغير لون يوجين وأحمر خجلا. تابع دانيلا وهمس في أذن يوجين: «حسناء شهية، اسمع، كانت متزوجة في الخريف الماضي، لم يستطع زوجها فعل شيء، فكر في ما يعنيه ذلك. فكر في مدى اشتياقها لمغامرة كهذه»

قطب يوجين حاجبيه وقال: «كلا، كلا. لا أريد ذلك إطلاقا. أريد

مكتبة الفكر الجديد

العكس (وماذا عساه أن يكون العكس؟) على العكس، أريد فقط أن تكون خالية من أي مرض وأن لا تُحدث مغامرتنا أي جدل أو صخب أو مشاكل، أريد إمرأة يكون زوجها يعمل بعيدا عنها في الجيش أو ما شابه».

«أتفهم الأمر، هذا يعني أنه يتوجب علي إحضار ستيبانيدا إليك، فزوجها خارج القرية. حاله حال جنود الخدمة العسكرية، وهي إمرأة نظيفة وجميلة، سوف تسعدك، منذ أيام فقط كنت أقول لها أنه ينبغي عليها أن تغامر.. لكنها...»

«حسن إذا، متى الموعد؟؟»

«غداً إن شئت، سأذهب غدا لأشتري بعض التبغ وسأزورها، وفي ساعة الغداء تعال أنت إلى هنا أو إلى الحمّام خلف حديقة المطبخ، لن يكون أحد هناك، بالإضافة إلى أن الجميع يغرق في قيلولة بعد الغداء».

«حسنا، اتفقنا»

غمر يوجين شعور بالإثارة الطاغية وهو عائد إلى منزله على صهوة جواده «ماذا سيحصل؟ كيف تبدو المرأة الفلاحة؟ ماذا لو كانت مقيتة وقبيحة؟ كلا، إنهن حسناوات» قال لنفسه وتذكر بعض النسوة اللائي اعترضن سبيله في القرية، لقد كن جميلات «لكن، ماذا عساي أن أقول لها؟ ماذا عساي أن أفعل؟»

لم يتصرف طوال ذلك اليوم كدأبه، وتوجه في اليوم التالي إلى كوخ الحرّاج (مراقب الأحراج) عند الظهيرة، وجد دانيلا واقفا لدى الباب، هز برأسه بصمت موجها يوجين باتجاه الباب، تدفق الدم في عروق قلب يوجين بينما توجه إلى حديقة المطبخ، لم يجد أحداً، ثم ذهب

مكتبة الفكر الجديد

إلى الحمام، ولم يلاحظ أحداً، نظر إلى الداخل وأراد أن يقفل الباب راجعا. لكنه سمع فجأة طقطقة غصين مكسور، نظر حوله وإذا بها تقف في الأيكة/ الأجمة خلف الأخدود الصغير. أسرع يوجين الخطى متوجها إليها من خلال الأخدود حيث لسعه القراص النباتي الذي لم يلاحظه وفقد عندها نظارة الأنف مما جعله يركض على المنحدرفي الجانب الآخر منها، وقفت ستيبانيدا بمريلتها البيضاء المطرزة وتنورتها الحمراء البنية وشالها الأحمر الزاهي حافية القدمين طازجة حلوة القوام جميلة تبتسم بخجل.

«ثمة ممر يصل بك إلى هنا، كان عليك أن تدور وتسلكه، أتيت إلى هنا منذ مدة، منذ مدة طويلة» قالت ستيبانيدا.

وصل عندها ونظر إليها من رأسها إلى أخمص قدميه، ثم لمسها.

وبعد ربع ساعة افترقا، وجد نظارته وتوقف عند دانيلا وإجابة على سؤاله: «هل أنت راض، سيدي؟» قدم له روبل وذهب إلى المنزل.

كان يوجين راضيا بالفعل، شعر بالخجل في البداية ثم غاب عنه الحياء، وجرت الأمور على ما يرام، وأفضل شيء هو شعوره الآن بارتياح وطمأنينة ونشاط. أما هي، فلم يدقق كثيراً في تضاريس جسدها. تذكر أنها كانت نظيفة طازجة بسيطة لا رياء فيها ولا تبجح ولم تكن قبيحة أيضاً، زوجة من هي؟ سأل نفسه. «بيتشنيكوف» هكذا قال دانيلا، ومن هو بيتشنيكوف؟ ثمة أسرتين تحملان هذا اللقب، ربما هي زوجة ابن العجوز ميخايله، سأسأل دانيلا لاحقا.

تلاشى ضبط النفس منذ تلك المغامرة لدى يوجين، وتلاشت تلك

مكتبة الفكر الجديد

العقدة التي كانت تقض مضجعه في الريف، تحرر عقله ونعم براحة البال ما جعله يزاول مهنته ويعتني بالعزبة بحرية أكبر.

إلا أن المهمة التي أخذها على عاتقه لم تكن سهلة، بدا له أحيانا أنه عاجز عن الاستمرار فيها وسوف ينتهي به المطاف إلى بيع العزبة مما يعني أن كل جهوده المضنية ستذهب أدراج الرياح وأنه سيفشل بالتالي في الإيفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه. وبالفعل، فقبل أن يصلح أمراً ما أويسوّي مسألة هنا أو هناك كانت تظهر مشكلة قبل إصلاح أخرى.

في تلك الفترة، بدأت ديون أبيه تطفو على السطح من حين لآخر. وبدا واضحاً أن أباه في الفترة الأخيرة من حياته عكف على الاستدانة على نحو غير منضبط. في شهر مايو، عندما حان وقت سداد الديون، ظن يوجين أنه فهم أخيراً تفاصيل ديون والده وطريقة سدادها. لكنه فوجئ في منتصف الصيف باستلام رسالة بيّنت له أن ثمة دين بواقع اثني عشر ألف روبل لم يتم سداده بعد للأرملة ييسيبوفا. لم ترفق الرسالة بكمبيالة بل بوصل قبض عادي قال له محاميه أنه قد لا يصلح كبينة على وجود الدين. لكن يوجين لم يخطر بباله أنه يمكنه أن يرفض دفع ديون أبيه بسبب الشك في ورقة، فأراد أن يعرف فقط إن كانت الأرملة قد أقرضت بالفعل ذلك المبلغ لأبيه.

«ماما! من تكون كاليريا فلاديمرفنا ييسيبوفا؟» سأل أمه عندما التقيا كعادتهما على طاولة العشاء.

«ييسيبوفا؟ كانت ترعى أباك أثناء مرضه، لم السؤال؟»

أخبر يوجين أمه بأمر الرسالة.

«أتساءل عن وقاحتها في طلب المبلغ، لقد قدم أباك لها الكثير والكثير!»

«ولكن هل نحن مدينون لها بذلك المبلغ؟»

«حسن، كيف لي أن أشرح الأمر؟ إنه ليس ديناً، بل لأن أبيك ذو قلب كبير وسماحة عطرة وسخاء عجيب...»

«نعم. ولكن هل اعتبر أبي ذلك المبلغ كدين في رقبته؟»

«لا أدري، لا أعرف، أعلم فقط أن الأمور صعبة بالنسبة لك حتى مع غياب وجوب سداد هذا المبلغ».

اكتشف يوجين ارتباك أمه ماريا بافلافنا التي كانت تحاول التخفيف عنه.

«أستشف مما قلتيه أن المبلغ يجب أن يسدد، سأذهب غدا لرؤية الأرملة، وسأتحدث معها لأرى إن كان بالإمكان تأجيل موعد سداد الدين» قال يوجين.

«آه، كم أنا مشفقة عليك يا ولدي، ولكنك محق، اذهب إليها وقل لها إنه يجب عليها الانتظار» عقبت ماريا بافلافنا بطمأنينة واضحة كونها فخورة بقرار ابنها الصائب.

كان وضع يوجين صعبا للغاية لأن أمه التي كانت تعيش معه لم تتفهم موقفه إطلاقا، فقد تعودت الوالدة على أسلوب حياة مترف طيلة حياتها حيث أنها غدت غير قادرة على استيعاب محنة ولدها، أي إمكانية تبدل للأمور قد تفضي إلى إفلاس يوجين وأمه عاجلا أم آجلا بسبب بيع جميع الممتلكات وسداد الديون المتراكمة. وهكذا قد تضطر الأم في نهاية المطاف أن تعيش على ما يوفره راتب ابنها الذي قد يتقاضاه من وظيفة ما، الراتب الذي لن يفوق ألفي روبل سنويا كحد

مكتبة الفكر الجديد

أقصى، ولم تفهم الأم أن بإمكانهم انتشال أنفسهم من ذلك المأزق عن طريق التقشف في الإنفاق في كل شيء. ولهذا لم تفهم توجه يوجين إلى الحد من الإنفاق في رواتب العاملين في الحديقة أو السائقين أو الخدم أو حتى في شراء الطعام. كل ذلك كان في نظرها شيء من التفاهات، بالإضافة إلى أنها ككثير من الأرامل شعرت بأنها متفانية في حب زوجها الآن بعد رحيله أكثر مما كانت عليه في حياته وبالتالي فإنها أرادت أن تبجل ذكراه عن طريق احترام كل الأعمال التي كان يقوم بها في حياته فلم تسمح بمجرد التفكير في أن أي شيء قام به الراحل أو رتبه قد يتعرض للخطأ أو يكون قابلا للتعديل.

بذل يوجين جهودا مضنية للعناية بالحديقة ومشتل الخضار مستخدما عاملين فقط والإسطبلات مستخدما حوذيان فقط. أما ماريا بافلافنا فقد اعتقدت بسذاجتها أنها كانت تضحي بنفسها لأجل ابنها وتقوم بما تقوم به جميع الأمهات بعدم الشكوى من الطعام الذي يحضره الطاهي العجوز أو من عدم تنظيف ممرات الحديقة أو وجود صبي وحيد يخدمهم عوضا عن خادم مخضرم.

وقد تكشفت طبيعة الأم المستهترة أيضاً من خلال اعتبار موضوع الدين الجديد مجرد حادث عابر يظهر شخصية ابنها النبيلة ومعدنه الأصيل. بينما اعتبر يوجين ذلك لطمة قوية في وجه جميع مشاريعه. والأكثر من ذلك أنها لم تشعر بأي انزعاج لما أصاب ابنها لأنها كانت على يقين أنه سيتزوج من حسناء ثرية من المجتمع الراقي وأن تلك الزيجة ستسوي جميع الأمور وتسد جميع الثغرات وتنحي كل الشوائب. وقد كانت على معرفة بعشرات العائلات التي يطيب لها بكل سرور أن تزوج بناتها له. وهكذا، رغبت ماريا بافلافنا بترتيب موضوع الزواج في أقرب فرصة ممكنة.

مكتبة الفكر الجديد

IV

كان يوجين يحلم بالزواج ولكن ليس على طريقة أمه. لأن فكرة استخدام الزواج كوسيلة لترتيب شؤونه وحل مشاكله كانت فكرة مقززة بالنسبة له. أراد أن يتزوج بشرف، أي أن يقع في غرام فتاة ويلتزم بصدق مشاعره. نظر في أمر الفتيات اللواتي قابلهن وأولئك الذين عرفهن وقارن نفسه بهن لكنه لم يستطع اتخاذ قرار بالزواج بعد. وفي الأثناء، وخلافا لتوقعاته، استمرت علاقته بستيبانيدا لدرجة أنها اكتست طابع الاستقرار الذي عادةً ما يشوب العلاقات الراسخة. كان يوجين بعيدا تماماً عن الفسوق والفجور إذ كان يمتعض من هذه العلاقة السرية التي اعتبرها أمراً قبيحا. إذ وجد صعوبة في استخدام وسيط يرتب له اللقاءات بستيبانيدا عوضا من أن يقوم هو بذلك حتى أنه رغب في عدم اللقاء بها بعد مغامرته الأولى. وبعد فترة شعر بضيق الصدر والاضطراب العصبي الذي اعتقد أن سببه هو تلك العلاقة. لم يعد ذلك الاضطراب افتراضيا بل أصبح يمسّ روحه في الصميم لاسيما حين يبدأ في استذكار عيني ستيبانيدا السوداوين البراقتين وصوتها الرخيم يقول له: «علاقتنا ستستمر طويلاً». تلك الرائحة العذبة والأريج الذكي وذلك الصدر المكتنز الذي يشقل/ يرفع مريلة مئزرها. كل ذلك في أجمة شجر القيقب والبندق التي تغسلها أشعة الشمس الرائعة.

مكتبة الفكر الجديد

ورغم شعوره بالخزي والخجل والاضطراب، إلا أنه ما لبث أن توجه إلى دانيلا ليرتب له لقاء آخر، ومرة أخرى رتب الموعد عند الظهيرة في الحرج ذاته. محّص يوجين في هذه المرة تضاريس جسد ستيبانيدا وبدى كل شيء فيها جذاباً حاول أن يتحدث معها سائلاً عن زوجها الذي اتضح أنه بالفعل ابن ميخايله وقد كان يعمل كسائق عربة / حوذي في موسكو.

«حسن، ، كيف حصل أن.....؟» أراد يوجين أن يسأل عن خيانتها لزوجها.

«ماذا تعني بكيف حصل أن...؟» سألت ستيبانيدا بسرعة بديهة وفطنة.

«حسن، لماذا أتيت للقائي؟»

«حسن، أراهنك أن زوجي الآن....» أجابت وهي تشعر بالفرح: «... لا يُبقي ولا يذر من نساء موسكو. فلماذا لا أقوم أنا بمثل ما يقوم به؟»

عرضت ستيبانيدا أفكارها بشجاعة بلغت حدّ الوقاحة التي أثارت إعجاب يوجين مما أضاف إليها فتنة وجاذبية. لكن يوجين كعادته لم يُرتب موعدا آخر معها، حتى عندما اقترحت أن يلتقيا من دون وساطة ومساعدة دانيلا الذي بدا أنها لا تستسيغه. رفض يوجين ذلك الاقتراح لأنه تمنى أن يكون هذا هو اللقاء الأخير، فقد كان يوجين معجبا بها، وفكر في أن هذا التواصل ضروري بالنسبة له ولا ضير فيه ولكنه في أعماق روحه كان يتصارع مع رقيب حازم لم يرضى بذلك التواصل وتمنى أن يكون هذا اللقاء هو الأخير أو إن لم يكن يتمنى ذلك لم يرغب البتة في المساهمة في إجراء ترتيبات لإعادة الكرة مرة أخرى.

مكتبة الفكر الجديد

مرّ الصيف والتقيا فيه مرات عديدة جميعها رُتبت عن طريق دانيلا، حصل مرة أنها لم تستطع القدوم لأن زوجها كان عائدا من موسكو إليها، فاقترح دانيلا إمرأة أخرى فرفض يوجين مُعبراً عن امتعاضه الشديد من مقترح كهذا. قفل الزوج إلى موسكو واستُأنفت بعدها اللقاءات بين يوجين وستيبانيدا كما كانت من قبل. رتبت اللقاءات في بداية جولتها الثانية عن طريق دانيلا لكن يوجين ما لبث أن بدأ بترتيب اللقاءات بنفسه، إذ كان ببساطة يحدد التوقيت المناسب ومن ثم تأتي ستيبانيدا بصحبة إمرأة أخرى، بروخوروفا، إلى الموعد المحدد لأنه من غير اللائق لإمرأة فلاحة أن تتسكع بمفردها في أرجاء القرية.

وفي إحدى المرّات التي حُدد فيها موعد اللقاء زارتْ والدة يوجين، ماريا بافلفنا، أسرة من بين أفرادها فتاة كانت ترغب في الزواج من يوجين. لم يستطع يوجين التملص من واجب الاستضافة، وحين استطاع أن ينفك من ذلك الأسر انطلق فوراً إلى مكان اللقاء في الغابة/ الحُرج، مبرراً خروجه الفوري لأمه بضرورة القيام بدراسة الأرض في المزرعة. لم يجد ستيبانيدا في المكان المتفق عليه بل وجد آثار تهشيم وتحطيم لأغصان الشجر الحُرجي وأغصان شجر البلوط وحتى شجرة قيقب يافعة بسماكة الوتد. يبدو أنها انتظرت وانتظرت واستشاطت غضباً وأرادت أن تترك له آثاراً تعبر عن غضبها وانزعاجها. انتظر يوجين مطولاً علّها تعود لكنها لم تفعل. ذهب بعدها إلى دانيلا وطلب منه ترتيب لقاء جديد في يوم الغد، أتت في يوم الغد وتم اللقاء كالمعتاد.

انقضى الصيف وكانت ترتب اللقاءات دائماً في الحُرج وفي مناسبة وحيدة، على عتبة الخريف، رُتب اللقاء في كوخ حديقة منزلها الخلفية. لم يخطر على بال يوجين أن هذا النوع من العلاقات قد يتطور مع مرور

مكتبة الفكر الجديد

الأيام ويغدو شيئاً مهما. فلم يكن يفكر في ستيبانيدا البتة، كان يوفر لها بعض المال ولا شيء سواه. لم يكن يعلم في البداية ولم يكن يعتقد أن علاقته بها سيعلم بها القاصي والداني في القرية وأن ستيبانيدا كانت محطّ حسد وغيرة الجميع بسبب تلك العلاقة. ولم يكن يعلم أن ثمة أناس مستفيدون مادياً من تلك العلاقة أيضاً وكانوا يشجعون ستيبانيدا على المضي فيها. ولم يكن يعلم أن أي شعور بالذنب من طرفها كان قد مُحي بسبب طغيان المال وجاذبيته وقبول أسرتها بتلك العلاقة. بدت لها المعادلة بسيطة: إذا كان الناس يغبطونها ويحسدونها، فذاك يعني أنها تقوم بأمر حسن.

أما يوجين ففكر ببساطة في أن العلاقة ضرورية للحفاظ على صحته، فكر في سره وحاور نفسه: «أعلم أن الأمر قبيح، لكنه ضروري، ورغم أن أحدهم لم يشر إلى تلك العلاقة لا من قريب ولا بعيد، إلا أن الجميع على علم بهاأو معظمهم ربما، فالمرأة التي تأتي مع ستيبانيدا على معرفة بتفاصيل العلاقة وهي بدورها لن تستطيع الإبقاء على السر، لكن ماذا عساي أن أفعل؟ أنا أتصرف على نحو سيء، أعلم ذلك، لكن ماذا عساي أن أفعل؟ العلاقة مؤقتة ولن تدوم على أية حال».

ما كان يزعج يوجين أكثر من أي شيء آخر هو فكرة وجود الزّوج، اعتقد في البداية ولسبب ما أن الزوج قد يكون من الفقراء المساكين وهذا ما برّر مسلكه جزئيا، لكنه شاهد الزّوج وفوجئ بمظهره، فقد كان رجلاً وسيما يرتدي ثيابا أنيقة ولم يكن أقل منه قدراً أو رجولة بأي حال من الأحوال، بل كان يقينا أفضل منه. عبّر يوجين عن رأيه بزوج ستيبانيدا في لقائه التالي بها قائلاً أنه رجل وسيم لا يعيبه شيء.

مكتبة الفكر الجديد

«لا مثيل له في القرية» أجابت ستيبانيدا وهي تشعر بالفخر.

فاجأت تلك الإجابة يوجين وأصبحت فكرة الزّوج تعذبه أكثر فأكثر بعد ذلك اللقاء، وكان أن التقى بدانيلا في أحد الأيام وبدأ يتجاذب معه أطراف الحديث. قال دانيلا بصراحة «وقد سألني ميخايله في اليوم الماضي قائلاً: هل صحيح أن السيّد يعيش مع زوجة ابني؟». قلت له أنني لا أعلم بذلك مُضيفا «على أية حال، من الأفضل لها أن تعيش مع سيّد على أن تعيش مع فلاح»

«حسن، وبماذا أجاب؟»

قال: «انتظر وسترى كيف سأكشف عن الحقيقة.....................»

«نعم إذا عاد الزوج ليعيش في القرية سأتخلى عنها». فكر يوجين. لكن الزوج عاش في البلدة واستمرت العلاقة في الأثناء. «متى دعت الضرورة سأقطع علاقتي بها ولن يتبقى شيء منها» فكر يوجين.

بدت احتمالية التخلي عن العلاقة أمراً مُتاحاً يقينا لاسيما أنه وخلال الصيف انشغل بأمور عديدة كترتيبات بناء منزل جديد في المزرعة والحصاد والمبنى وفوق كل ذلك سداد الديون وبيع الأرض اليباب. كل تلك الشؤون شغلته أيما انشغال بحيث استهلكت كل وقته وتفكيره صباح مساء. كانت تلك المسائل تمس الواقع وجوهر الحياة. أما علاقته، التي لم يعترف بها كعلاقة، مع ستيبانيدا، فلم يلقى بالاً لها. صحيح أنه عندما كانت تعتريه الرغبة لرؤيتها كانت تكون رغبة جامحة لا يستطيع التغلب عليها بل لا يستطيع التفكير بسواها. لكن تلك الرغبة لم تكن لتستمر طويلا. فبمجرد اللقاء بها كانت الرغبة تتبخر لينساها لأسبوع قادم أو ربما شهر.

مكتبة الفكر الجديد

في الخريف، كان يوجين ينطلق على صهوة حصانه إلى البلدة، وقد أصبح صديقا لأسرة أنينسكي. كان لديهم ابنة تخرّجت لتوها من المعهد[1]. بعد فترة، وبحسب تعبير والدته، ماريا بافلفنا، فإن ابنها «قد رخّص نفسه» ووقع في غرام ليزا أنينسكايا وتقدم لطلب يدها، ومنذ ذلك الحين قطع علاقته بستيبانيدا.

---

(١) مدرسة داخلية لبنات النبلاء يركز فيها على اكتساب العلوم والتحلي بالأخلاق الحميدة.

مكتبة الفكر الجديد

V

من المستحيل الكشف عن السبب الرئيسي الذي دفع يوجين لاختيار ليزا أنينسكايا، فهو كاستحالة الكشف عن السبب الذي يدفع رجلاً ما لاختيار امرأة ما دون غيرها من نساء العالمين. ثمة أسباب سلبية وإيجابية كثيرة، إحداها أنها لم تكن وريثة ثرية كتلك الفتيات فاحشات الثراء اللاتي أرادت أمه أن يخطب إحداهن. سبب آخر يتعلق بسذاجتها وعلاقتها التي تثير الشفقة مع أمها. سبب آخر هو عدم تفوقها الصارخ على صعيد الجمال. فرغم كونها فتاة حسنة المظهر إلا أن حسنها لم يكن ليثير الكثير من الفتنة من حولها. أما السبب الرئيس فهو أن معرفته بها بدأت في وقت أصبح فيه يوجين جاهزا تمام للزواج. وقع في غرامها لأنه علم أنه جاهز لخوض تجربة الزواج. في البداية، كانت ليزا أنينسكايا خياراً مرضيا تماماً ليوجين، لكنه ما إن قرر أن يقترن بها كزوجة أصبحت مشاعره تجاهها أكثر تجليا إذ شعر أنه وقع في غرامها بالفعل.

كانت ليزا طويلة النجاد نحيفة، وقد اتسمت كل معالمها بالطول، قامتها وأصابع يديها ووجهها وأنفها، أما لون بشرة وجهها الناعمة فقد كان أبيض قشدي يميل إلى الزهري، ذات شعر ناعم طويل بني فاتح وعينان جميلتان وديعتان صافيتان شديدة الثقة بالآخر. تلك العينان اللتان

مكتبة الفكر الجديد

بهرتا يوجين بحيث أصبح يستذكرهما دائماً حين يفكر في محبوبته، العينان الجميلتان الوديعتان الصافيتان شديدة الثقة بالآخرين.

هكذا كانت معالمها الحسية أما الروحية فلم يكن يوجين على دراية بها، كان يرى تلك العينان فقط، العينان اللتان كانتا تقول له كل ما يريد أن يعرف، أما تفسير التجربة التي تقف وراء تعابير تلك العينان فكان كالتالي:

بينما كانت ليزا في الخامسة عشرة من عمرها في المعهد، كانت تقع باستمرار في غرام جميع الفتيان الوسيمين الذين كانت تقابلهم. وكانت سعيدة ومقبلة على الحياة فقط عندما كانت تقع في غرام أحدهم، وبعد عودتها من المعهد تستمر كدأبها في مسلسل الغرام بالطريقة القديمة ذاتها مع جميع الشبان الذين التقت بهم، وبالطبع كان من بينهم يوجين الذي وقعت في غرامه بمجرد أن تعرفا على بعضهما البعض. هذا الشعور بالحب والنشوة هو ما جعل عيناها تتلألآن وتعكسان تعابير أسرتْ يوجين منذ اللحظات الأولى. في ذلك الشتاء كانت ليزا قد وقعت في غرام شابين على نحو متزامن بحيث احمرّت وجنتاها وأصبحت متحمسة أشد الحماس ليس فقط عندما كانا يأتيان لزيارتها بل عندما كان أحدهم يأتي على ذكرهما. بعدها، وعندما ألمحت أمها بأن يوجين أرتيونوف يبدو أن لديه نية جدّية للاقتران بها تنامى حبها له وأصبحت غير مكترثة بالشابين المذكورين أعلاه. وعندما بدأ أرتيونوف بالتردد على حفلاتهم الراقصة، وبدأ يراقصها أكثر من مراقصة الفتيات الأخريات وأصبح واضحاً أنه يريد فقط أن يعرف ما إذا كانت ليزا تكن له نفس شعور الحب، تنامى حبها له وأصبح مؤلما. حلمت به في منامها وبدا لها أنه موجود معها في اليقظة في الغرفة المظلمة. أما بقية الشباب فقد

مكتبة الفكر الجديد

تبخروا من ذهنها. نست الجميع بخلاف يوجين. أصبح شغلها الشاغل ولم تفكر في أحد سواه ولم ترغب سوى بالبقاء معه لتحبه ويحبها لا سيما عندما تقدم لخطبتها وتمت الخطبة رسيما وعندما قبّلا بعضهما البعض وأصبحا خاطباً ومخطوبة، كانت أيضاً فخورة به وطغت عليها المشاعر الوجدانية بسبب وجوده وتكريس حبهما، بل إنها ذابت في الحب وشعرت بالدوار من تأثير ذلك الحب.

وكلما تقرب منها ذاب في حبها أكثر فأكثر. لم يتوقع البتة أن يقع في غرام أحد. لكن ذلك عزز من شعوره في الثقة بنفسه.

مكتبة الفكر الجديد

VI

توجه يوجين، مع بداية الربيع، إلى عزبته في سيميونوفسكويه ليتفحصها ويصدر توجيهاته بشأن إدارتها لاسيما ما يخص المنزل الذي كان يبنيه ليصبح عش الزوجية.

لم تكن ماريا بافلفنا راضية عن اختيار ابنها ليس لأن الخيار لم يكن بالمستوى الرائع المطلوب بل لأنها لم تتوافق مع شخصية حماة ابنها، فارفرة ألكسييفنا. لم تكن ماريا متأكدة من كون الحماة المستقبلية طيبة القلب أو عكس ذلك. لم تستطع أن تتخذ قراراً بذلك الشأن لكنها كانت متأكدة تماماً أنها لم تحصل على تربية لائقة ولم تكن تتبع الموضة كما هو واجب. «لم تكن ليدي/ سيدة» كما قالت ماريا بافلفنا بعد لقائهما الأول الذي خلف انطباعاً غير حسن لديها. أزعجها ذلك اللقاء لأنها اعتادت على تبجيل التهذيب ومداراة الآخر وعلمت أن يوجين كان حساسا جداً تجاه هذه الأمور. وقد تنبأت بأن ولدها سيعاني من هذه الجزئية. لكنها أحبت الفتاة لأن ابنها كان يحبها. لا يستطيع المرء سوى أن يكن المحبة للفتاة لأن شخصيتها تشع محبة. وهكذا، كانت ماريا بافلفنا مستعدة تمام الاستعداد لمحبة الفتاة.

لاحظ يوجين أن أمه راضية ومعنوياتها عالية، فقد كانت تدبر أمور منزله وتستعد للمغادرة بمجرد أن يأتي يوجين بعروسه. حاول يوجين

مكتبة الفكر الجديد

إقناعها بالبقاء في الوقت الراهن لكن الأمر بقي معلقا. وفي المساء وبعد تناول العشاء بدأت ماريا بافلفنا بلعب لعبة الصّبر[1] كعادتها. وجلس يوجين بجانبها ليساعدها. كانت تلك الساعة مدار حديثهما الحميمي من القلب إلى القلب. وبعد الانتهاء من الجولة الأولى وبينما كانت تحضر لبدء الجولة الثانية نظرت إليه وبعد شيء من التردد قالت له: «أردت أن أقول لك، جينيا[2] أنني لست على علم بما يجري بالطبع ولكن أقول على العموم إنني أردت أن أقترح عليك أن تنهي جميع مغامراتك المرتبطة بالعزوبية قبل اتمام زواجك لأن استمرارها سوف يؤثر عليك وعلى زوجتك، لا سمح الله. هل تفهمني؟»

بالفعل، فهم يوجين على الفور أن أمه كانت تلمح لعلاقته مع ستيبانيدا التي انتهت في الخريف الماضي وأنها أولت اهتماماً كبيراً لتلك العلاقات أكثر مما تستحق، كما هو دأب النساء المتوحدات دائماً. احمرّ يوجين ليس خجلا بل بسبب الانزعاج الذي أحسّه في نفس أمه الطيبة التي استجوبته بدافع التراحم معه بلا شك. ذاكِ الضيق الذي حاك في صدرها بسبب علاقة الابن التي لا شأن لها بها والتي لم تفهمها ولن تستطيع أن تتفهمها. أجاب يوجين بأن لا شيء يخفيه من هذه الناحية وأنه دائماً ما كان يتصرف بطريقة لا تفضي إلى أية منغصات من شأنها أن تعكر صفو زواجه.

«حسن، عزيزي، هذا رائع. أرجوك، جينيا، لا تغضب مني» أجابت ماريا بافلفنا وانسحبت من المشهد وهي مُحرجة.

لاحظ يوجين أنها لم تنه حديثها بعد ولم تبُحْ بكل ما أرادت أن

(١) ضرب من لعب الورق

(٢) اسم تحببي (اسم مصغر) ليفغيني

مكتبة الفكر الجديد

تبوح به، وهذا ما تأكد بعد قليل عندما بدأت بالحديث إليه عن طلب عائلة بيتشنيكوف منها أثناء غيابه أن تصبح أمًّا بالمعمودية.

احمرت وجنتا يوجين مجددا ليس خجلاً أو انزعاجا هذه المرة بل لأنه علم وعلى نحو غريب بأهمية ما سيأتي من حديث، إدراك لاإرادي يقف على مسافة طويلة من أفكاره الواعية الإرادية. وقد حصل ما توقعه بالفعل، فقد ذكرت ماريا بافلفنا وكأنها تسرد دعابة على سبيل المحادثة، قالت أن هذه السنة لم يولد فيها سوى الذكور. وهذا فأل واضح يدل على نشوب حرب قادمة. فعائلة فاسين أنجبت ولدا ذكراً كما فعلت عائلة باشينكوف أيضاً. أرادت ماريا بافلفنا أن تقول ذلك على نحو غير رسمي، على سبيل الدعابة، لكنها ما لبثت أن شعرت بالخجل عندما رأت تغير لون وجه ابنها ورأته ينزع ويغير نظارته الأنفية ويشعل سيجارة وهو غاضب. أطبقت شفتاها، كما فعل هو أيضاً ولم يستطع إيجاد طريقة لكسر الصمت، لكنهما فهما بأنهما فهما بعضهما البعض.

«نعم، الأمر الأهم هو أن يعم العدل وتغيب الواسطة والمحسوبيات في القرية، كما كان جدك»

«ماما» قال يوجين فجأة «أعلم السبب وراء ما تقولين، لا عليك، ولا داعي لانزعاجك، إن حياتي الزوجية المستقبلية أمر مقدس بالنسبة لي ولن أنتهك تلك القدسية بأي حال من الأحوال، أما ما اجترحته في أيام العزوبية فقد انتهى. فلم أرتبط بأي شخص ولا يوجد شخص أدين له بشيء».

«حسن. يطيب لي سماع ذلك، أعلم كم هي نبيلة مشاعرك» أجابت الأم.

قبل يوجين تعقيب أمه كثناء عليه فلم يجب.

مكتبة الفكر الجديد

وفي اليوم التالي ذهب إلى البلدة لرؤية خطيبته وفكر في جميع الأمور في هذا العالم سوى ستيبانيدا. ولكن، وكأن الموقف رُسم ليذكره بها، بينما كان متوجها باتجاه الكنيسة قابل أناس يمشون وآخرين عائدين على العربات من الكنيسة. قابل ماتفيه وسيميون وبعض الشباب والشابات وامرأتان إحداهما مسنة والأخرى بدت وكأنها تعرفه ترتدي ملابس أنيقة وتضع شالا أحمر فاقع اللون على رأسها. كانت تمشي بخفة ورشاقة وجرأة وتحمل طفلا بين ذراعيها. اقترب منهما فتوقفت المرأة المُسنة بالطريقة التقليدية القديمة وانحنت أما المرأة الشابة فحركت برأسها إلى الأسفل وشعّت من تحت الشال عيون براقة فرحة يعرفها جيداً.

«نعم، إنها هي، لكن علاقتنا انتهت ولا فائدة من النظر إليها مجددا، لكن ماذا عن الطفل؟ قد يكون طفلي!!!». فكر يوجين، «كلا، هراء! فقد كان لديها زوج وكانت تراه». توقف عند هذا الحد ولم يفكر في المسألة. فعلاقته بها كانت بغرض الحفاظ على الصحة وقد دفع لها المال وقُضي الأمر. لم يكن ولم يكن ليكن ولن يكون بينهما أي ارتباط. لم يكن الأمر مرتبطاً بقمع ضميره بل ضميره في هذا الخصوص لم يكن حيا أصلا ولم يقل له شيئاً ببساطة. فلم يعد يفكر فيها بعد حديثه مع أمه وبعد هذا اللقاء. ولم يلتقي بها مجددا.

تزوج يوجين في البلدة في الأسبوع الذي تلى عيد الفصح وغادر على الفور مع زوجته إلى عزبته الريفية، وقد وجد المنزل جاهزا لاستقبالهما، أرادت ماريا بافلفنا الرحيل لكن يوجين وليزا على وجه الخصوص توسلا إليها لكي تبقى. وبالفعل، فقد انتقلت إلى جناح منفصل في المنزل ذاته.

وهكذا بدأ يوجين حياة جديدة.

مكتبة الفكر الجديد

VII

كانت السنة الأولى من زواج يوجين سنة صعبة لأن الأمور التي استطاع تأجيلها في فترة التودد والخطبة اجتمعت عليه الآن بعد الزواج دفعة واحدة.

التهرب من سداد الديون كان أمراً مستحيلاً، حاول سداد بعضها عن طريق بيع أجزاء نائية من أراضيه لكن الديون الأخرى لم يستطع سدادها لأن المال قد نفذ من جيوبه، رغم أن المزرعة كانت تدر عليه مالاً وفيراً إلا أنه أنفقه على أخيه وعلى تكاليف زواجه ولم يبق منه شيء بين يديه ولم يستطع أن يستمر في دفع تكاليف المصنع فاختار أن يغلق أبوابه. تمثل طريق الخلاص الوحيدة في استخدام مال زوجته، وقد أصرّت ليزا على فعل ذلك عندما اكتشفت مصاب زوجها وحجم ديونه. وافق يوجين على عرض زوجته شريطة أن يكتب نصف أملاكه باسمها. وهكذا فعل. بالطبع، لم يقم بذلك ليرضي زوجته، التي لم ترق لها الفكرة وشعرت بالإهانة، بل فعل ذلك ليرضي أمها.

ساهمت هذه الأمور التي تراوحت بين النجاح تارة والفشل تارة أخرى في تعكير صفو السنة الأولى من حياة يوجين الزوجية. باللإضافة إلى اعتلال صحة زوجته. ففي نفس السنة في فصل الخريف وبعد سبعة أشهر من الزواج أصاب الزوجة مكروه. كانت ذاهبة في عربة مكشوفة

مكتبة الفكر الجديد

لملاقاة زوجها العائد من البلدة عندما انتاب الحصان المروض أصلا نوبة من اللعب أثارت خشيتها بحيث قفزت من العربة وكانت محظوظة نسبيا لأنها ارتطمت بعجلة العربة فقط لكنها كانت حامل. وفي تلك الليلة بدأت الآلام تجتاحها وأجهض الطفل في أحشائها ولم تتعافي من ذلك المصاب لفترة طويلة. إن فقدان الطفل واعتلال صحة الزوجة واضطراب شؤونه الأخرى بالإضافة إلى وجود حماته التي انضمت للعيش معه أثناء مرض ابنتها، كل ذلك جعل تلك السنة أكثر قساوة على يوجين من أي سنة أخرى.

شعر يوجين رغم تلك الظروف الصعبة بتحسن الوضع مع قرب نهاية السنة، إذ اقترب من النجاح في تصحيح حظه العاثر ومحاكاة أسلوب حياة جده بأسلوب جديد بشيء من الصعوبة والبطء. ولم يكن ثمة داع لبيع ممتلكاته برمتها لسداد الديون لأنه حافظ على عزبته الرئيسية رغم تسجيلها باسم زوجته. ولو أن محصول الشمندر كان قد نجح وبقيت الأسعار مرتفعة لكان الإجهاد النفسي قد ولى ولكان وضعه المادي في السنة القادمة قد تحول من العوز إلى الإزهار، هذا أمر.

أما الأمر الآخر فكان مرتبطاً بسقف توقعاته، فكلما توقع أمراً من زوجته لم يكن ليجده في الواقع، لم يجد ما كان يتوقعه فيها بل وجد شيئاً أفضل بكثير. فطفرات الحب والسعادة لم تطفو على السطح أو وجدت نادراً رغم محاولته انتاجها لكنه اكتشف أمراً مختلفاً تماماً وهو أنه لم يصبح أكثر مرحاً أو سعادة بعد زواجه بل أصبحت حياته أسهل. لم يكتشف السبب وراء يسر حياته وسلاستها، لكن الأمر كان كذلك.

كان السبب في ذلك مرتبط بزوجته التي قررت بعد الزواج مباشرة

مكتبة الفكر الجديد

أن تعتبر يوجين أرتيونف أسمى وأحكم وأطهر وأنبل من أي شخص آخر علي وجه البسيطة. وبالتالي فإنه من الصواب أن يخدم الجميع يوجين ويسعدونه. وبما أنه من المستحيل إرغام الجميع على القيام بذلك، تعين عليها أن تقوم بالمهمة بمفردها بحسب طاقتها. وهكذا فعلت، ووظفت جميع طاقاتها وقواها العقلية لتعلم وتخمن ما يروق لزوجها وما يسعده وقامت بالتالي بذاك الشيء المحبب إلى قلبه بغض النظر عن ماهيته أو درجة صعوبته.

كانت ليزا تمتلك موهبة تصبغ من خلالها علاقتها الزوجية بالسرور والمحبة، وبفضل تلك المحبة استطاعت أن تنفذ إلى روح زوجها، فقد عرفت كل تقلبات روحه وكل أطياف وجدانه أفضل من معرفته هو بنفسه، وتصرفت حسب تلك التغيرات ونجحت في عدم جرح شعوره البتة بل كانت دائماً تخفف من وطأة أتراحه وتعزز من مستوى أفراحه. لم تفهم فقط أحزانه بل فهمت أيضاً أفراحه. عكفت أيضاً على فهم أمور كانت بعيدة عنها تماماً كشؤون الزراعة والمصنع وتقييم العمال وما شابه. فهمت تلك الأمور بسرعة فائقة لكي لا تتحدث مع المعنيين جزافا بل لكي تتحدث معهم عن علم وتقنعهم بوجهة نظرها. وهذا ما صادق عليه زوجها حين أسماها بالمستشار المؤتمن الذي لا يعوض. كانت تنظر إلى الناس وتتناول القضايا الأخرى وكل شيء في هذا العالم من خلال عيون زوجها فقط. كانت تحب أمها، لكنها بعد أن لاحظت امتعاض يوجين من تدخلاتها في حياتهما اصطفّت على الفور إلى جانب زوجها وقامت بذلك وفقا لقرار حاسم صارم حاول يوجين نفسه تخفيف آثاره.

وبجانب كل ذلك كانت ليزا تتمتع بذوق عال ولباقة في الحديث وفوق ذلك تحلّت برباطة الجأش والطمأنينة. وكل ما كانت تقوم به كان

مكتبة الفكر الجديد

يتم بسلاسة وهدوء عجيبين من دون أن ينتبه أحد لما تقوم به. كانت النتائج هي من يتكلم عن الجهد لاسيما التزامها النظافة والنظام والأناقة في كل شيء وباستمرار. فهمت ليزا بسرعة عجيبة فحوى مثالية الحياة التي يرغب فيها الزوج وحاولت أن تلبي تلك النظرة المثالية ونجحت في ذلك باتباع ترتيبات ليس أقلها اتباع النظام والتزام النظافة والاهتمام بالأناقة في المنزل. وهذا ما أراده يوجين تماما. صحيح أنه لم يكن ثمة أطفال ولكن الأمل بوجودهم لم يتبدد. ذهبت في الشتاء إلى سانت بطرسبورغ لترى طبيباً مختصاً طمأنها بأنها على ما يرام وأن بمقدورها الإنجاب.

وبالفعل، تلك الرغبة أصبحت واقعا، فمع حلول نهاية السنة أصبحت حاملا مجددا.

الأمر الوحيد الذي هدد، إن لم نقل سمم، سعادتهما هو الغيرة. غيرة أخفتها ولم تعلنها. لكنها تأثرت كثيراً وعانت بسببها. أمر الغيرة لم يكن مرتبطاً فقط باستحالة وقوع يوجين في حب امرأة أخرى لأن احتمالية وجود امرأة غيرها على أرض هذه البسيطة تكون خليقة بحبه أمر محال (أما السؤال المتعلق بكونها هي تستحق أن تكون زوجة له فلم تطرح على نفسها سؤالا كهذا) بل يستحيل أيضاً أن تجرؤ أي امرأة أخرى على الوقوع في غرامه.

مكتبة الفكر الجديد

VIII

وهكذا كانت حياتهم. كان يستيقظ باكراً كعادته ويتوجه إلى المزرعة أو المصنع أو إلى الحقل ليراقب كيف تجرى أمور العمل. ومن ثم يعود إلى المنزل ليحتسي القهوة مع زوجته وأمه وعمّ له كان يعيش معهم في تلك الفترة على الشرفة حوالي الساعة العاشرة وبعد حديث صباحي محموم حول طاولة القهوة كانوا ينفضون لغاية فترة الظهيرة، وفي الساعة الثانية من بعد الظهر كانوا يتناولون طعام الغداء ومن ثم يذهبون في نزهة على الأقدام أو في العربة. وعندما كان يعود من مكتبه في المساء كانوا يحتسون الشاي وفي بعض الأحيان كان يقرأ كتابا بصوت مرتفع بينما كانت زوجته تعمل في المنزل وإذا ما حل ضيوف عليهم كانوا يعزفون الموسيقى ويتجاذبون أطراف الحديث. وعندما كان يسافر في رحلة عمل كان يراسل زوجته كما كانت هي تفعل في كل يوم. كانت في بعض الأحيان تصطحبه في تلك الرحلات مما يجعلها أكثر أنسا وحلاوة. في يوم الاحتفاء باسمه أو اسمها[1] كان الناس يجتمعون

---

(١) يرجع الاحتفاء بيوم الأسماء إلى قائمة العطل التي كان يحتفى بها بمناسبة ذكرى وفاة القديسين أو شهداء الكنيسة. فعلى سبيل المثال، يحتفل باسم كارل في السويد في الثامن والعشرين من يناير، وهو يوم وفاة شارلمان. (وهكذا يحتفل جميع من يسمون بكارل، وفقا لتقاليد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية بهذا الاسم في كل عام). شجعت=

مكتبة الفكر الجديد

في منزله وقد طاب له أداء زوجته وحصافتها في استقبال الضيوف الذين يستمتعون دائماً وأبدا بزياراتهم، فقد سمع وشاهد كيف أعجب بها الجميع كزوجة مضيافة شابة لطيفة محبوبة، وهذا ما زاد من حبه لها.

كل الأمور جرت على أحسن حال، كان حملها يسيراً غير مرهق ورغم خشيتهما من التجربة الجديدة إلا أنهما بدءا بوضع الخطط لكيفية تربية المولود الجديد، نظام التربية والتعليم والترتيبات الأخرى اتخذ فيها يوجين قرارات ساندتها زوجته تلبية لرغباته بخنوع وطواعية. قام يوجين بدراسة الأعمال الطبية الخاصة بتربية النشأ وقرر أن يربي طفله وفقا لجميع الوصايا والإرشادات العلمية. وافقت زوجته بالطبع على كل ذلك وقامت بتجهيز بعض الأمور كصناعة الفرشات الصغيرة ذات الألوان الباردة والساخنة التي تستخدم لصناعة بطانية تستخدم لحمل الطفل، كما قامت بتجهيز سريره أيضاً، وهكذا دخلنا في السنة الثانية من الزواج وفصل الربيع تحديدا.

=الكنيسة على الاحتفال بأيام الأسماء (التي تتزامن مع أيام وفاة القديسين) على الاحتفال بأعياد الميلاد لأنها اعتبرت الأخيرة طقس وثني. (المترجم، ويكيبيديا).

مكتبة الفكر الجديد

IX

اقترب عيد أحد الثالوث، وكانت ليزا حاملا في شهرها الخامس ولا تزال نشيطة سريعة الخطى رشيقة رغم حرصها، وكانت أمها وحماتها تعيشان معها في تلك الفترة بحجة مراقبتها والعناية بها لكنهما في الحقيقة شكلتا عبئاً عليها بسبب مشاحناتهما المستمرة. أما يوجين فقد كان غارقا في تجربة جديدة، حيث باشر حينها في زراعة الشمندر السكري على نطاق واسع.

قررت ليزا قبل العيد بفترة بسيطة أن تنظف المنزل من الألف إلى الياء لأنها لم تفعل ذلك منذ عيد الفصح، وهكذا استأجرت إمرأتان ليوم واحد لتساعدا الخدم في مسح أرضية المنزل والنوافذ وتنظيف الأثاث وكنْس السجاد ووضع أغطية عليه. أتت الإمرأتان في الصباح الباكر وسخنتا المرجل واستعدتا للبدء بالعمل، إحداهن لم تكن سوى ستيبانيدا التي كانت قد فطمت رضيعها منذ فترة وجيزة وكانت تستجدي الكاتب العامل في مكتب يوجين لتحصل من خلاله على عمل. ذلك الكاتب الذي كانت تقيم معه علاقة حينها. وأرادت بطلبها العمل في منزل يوجين أن تتفحص العروس.

عاشت ستيبانيدا في تلك الفترة بمفردها كالعادة وكان زوجها يغيب عنها لفترات، وكانت إمرأة لعوب أمضت وقتا في البداية مع دانيلا

مكتبة الفكر الجديد

العجوز (الذي وجدها متلبسة تسرق الحطب في يوم من الأيام) ثم مع السيّد والآن مع الكاتب الشاب. لم تكن لتهتم مجددا بالسيد «فلديه الآن زوجة» هكذا فكرت، «لكن من اللطيف أن أتفحص زوجته ومنزلها، يقولون إن منزلها من أرتب وأبهى المنازل».

لم ير يوجين ستيبانيدا منذ أن رآها آخر مرة مع الطفل، فقد كانت تعتني بطفلها وتوقفت عن العمل. كما أنه لم يكن يتجول في القرية إلا نادرا.

في ذلك الصباح الذي سبق عشية أحد الثالوث، استيقظ باكراً في الخامسة وتوجه إلى الأرض التي توجب رشها بالفوسفات وقد غادر المنزل قبل قدوم الإمرأتين، بينما كانتا منهمكتان في إشعال المرجل.

عاد إلى المنزل لتناول الفطور سعيدا، راضيا وجائعا أيضاً، وعند وصوله، نزل من على بغلته وسلمها للجنائني ثم ترجل متوجها إلى باب المنزل يضرب العشب العالي بسوطه، وكان يكرر جملة سمعها للتو كما يفعل المرء عادة حينما يكرر جملا لا معنى لها. «أثبت الفوسفات أهليته» هذا ما كان يكرره، ولكن لماذا؟ ولمن؟ لم يكن ليعرف ولم يجتهد ليعرف أيضاً.

كانت الإمرأتان منهمكتان في تنظيف السجاد على العشب، أما الأثاث فقد تم وضعه لخارج المنزل.

«هكذا إذا! عملية تنظيف تمضي على قدم وساق! أثبت الفوسفات أهليته! يا لها من مدبرة! يا لها من مديرة! نعم، مديرة محترفة» قال يوجين في نفسه وهو يتخيل زوجته أمامه واضحة المعالم في ثوبها المنزلي الأبيض ووجهها الضحوك الباعث على الفرح. «نعم، يتعين

مكتبة الفكر الجديد

عليّ تغيير الحذاء وإلا أثبت الفوسفات أهليته، أعني التخلص من رائحة السّماد. أما المديرة فتتقن فن تدبير أمور العائلة. ولكن لماذا مزاجها عالي؟ لأن أرتيونف الصغير ينمو في أحشائها.... نعم، أثبت الفوسفات أهليته» وبينما هو يبتسم لموائمة أفكاره مع سعادته وضع يده على باب الغرفة، لكنه لم يتسن له فتحه لأن الباب فتح من الجهة الأخرى فتسمّرت أمامه إمرأة وجها لوجه قادمة نحوه تحمل دلوا/ سطلا حافية القدمين مشمرة عن ساعديها البيضاوين. انحرف جانبا ليدعها تمر وفعلت هي أيضاً وهي تحاول تعديل شالها بيدها المبللة.

«هيا.. هيا.. مرّي.. لن أدخل إذا....» بدأ يوجين بالتعقيب وتوقف فجأة عندما تعرف على ملامحها.

نظرت إليه والفرحة بادية في عيونها، ثم خرجت من الغرفة وهي تعدل تنورتها.

«هذا غير منطقي!... مستحيل» حدث يوجين نفسه وقطب حاجبيه ولوح بيده وكأنه يهش على ذبابة ممتعضا جراء رؤيتها. انتابه غضب لأنه لم يستطع أن يشيح بنظره بعيدا عن جسدها الغض الطري وخطواتها الرشيقة وقدميها العاريتين وذراعيها وكتفيها وثنيات تنورتها المميزة والمرفوعة عاليا لتشمر عن بطتي ساقيها البيضاوين.

«ولكن لماذا أطيل النظر؟» سأل نفسه وغض بصره ليتجنبها «عليّ الدخول على أي حال لكي أبدل حذائي» والتف ليعود إلى غرفته ولم يبتعد أكثر من خمس خطوات قبل أن يستدير مجددا ليسترق نظرة أخيرة من دون أن يعرف السبب، وكانت هي على وشك أن تقطع الزاوية فردت بصرها والتقت عيناها بعينيه مجددا.

مكتبة الفكر الجديد

«يا إلهي!!. ما الذي أقوم به!!! قد تفهمني خطأً!! بل أنا متيقن أن أفكاراً ما تجول في خاطرها الآن».

دخل غرفته الرطبة ليجد إمرأة أخرى نحيفة مسنة ما زالت تشطف أرضية الغرفة. مرّ على أطراف أصابع قدميه على الأرضية المبللة بالماء المتسخ متجها نحو الجدار حيث وضع حذاؤه وكان على وشك مغادرة الغرفة عنما سبقته المرأة المسنة بمغادرتها.

«نعم، هي تغادر وستيبانيدا ستأتي بمفردها إلى الغرفة» صوت ما في أعماقه أخبره بذلك.

«يا إلهي. في ما أنا أفكر! وماذا أفعل!» التقط حذائه وغادر الغرفة متجها إلى الممرّ. ارتدى الحذاء في الممرّ ونفض الغبار عن ملابسه وخرج إلى الشرفة حيث أمه وحماته كانتا ترتشفان القهوة. ليزا كانت تتوقع قدومه بالطبع وهاهي تخرج إلى الشرفة من باب آخر في نفس التوقيت.

«يا إلهي! لو علمت ليزا بالأمر. ليزا التي تعتبرني شريفا نقيا بريئا، يا إلهي، لو أنها علمت بالأمر» فكر في نفسه.

وكعادتها، قابلته ليزا بوجهها المضيء. لكنها بدت له اليوم بالذات شاحبة صفراء طويلة وواهنة.

مكتبة الفكر الجديد

X

وخلال استراحة القهوة جرت محادثة يمكن اعتبارها نوعا ما نِسْوِيةً على نحو لافت لأنها لم ترتكز على أي تسلسل منطقي لكنها كانت مترابطة بوضوح بطريقة أو بأخرى لأنها استمرت بدون انقطاع.

كانت الأم والحماة تلمزان بعضهما البعض وكانت ليزا تتحرك بينهما بسلاسة ومهارة.

«لقد شعرت بالانزعاج لأننا لم ننه تنظيف غرفتك قبل أن تأتي» قالت ليزا لزوجها، «لكنني راغبة بترتيب كل شيء دفعة واحدة»

«لا عليك، هل نمت بعد أن غادرت في الصباح؟»

«نعم، نمت نوماً عميقاً وأشعر بالارتياح»

«كيف يمكن لامرأة في وضعها أن تكون على ما يرام في هذا الحر الشديد عندما تكون نوافذ غرفتها تواجه الشمس الحارقة» عقبت أمها فارفرة أليكسييفنا وأضافت «وليس لديهم ستائر فينيسيّة(١) أو حتى سقيفة تدرأ ـ تغطي الشمس عنّا في الشرفة. بالنسبة لي كان لدي دائماً سقيفة/ خيمة»

---

(١) مصنوعة في مدينة البندقية الإيطالية

«لكنك تعلمين أننا الآن في الظل والساعة قد تجاوزت العاشرة» أجابت ماريا بافلفنا.

«هذا هو سبب الحمى، فهي نتاج الرطوبة» قالت فارفارا ولم تدر أن ما قالته لا يتسق مع ما قالته آنفا. «طبيبي كان دائماً يقول إنه من المستحيل تشخيص مرض من دون معرفة المريض. وهو يقينا يعرف ما يقول، لأنه طبيب مشهور بين أقرانه فقد كنا ندفع له مئة روبل في الزيارة الواحدة، زوجي لم يكن يثق في الأطباء لكنه لم يكن يضن علي بشيء»

«كيف يمكن للمرء أن يضن بشيء على امرأته عندما تكون حياة الطفل وربما حياتها تعتمد على...»

«نعم، عندما يكون لديها مال كاف فعليها أن لا تعتمد على زوجها، فالزوجة الصالحة تقدم الولاء والطاعة لزوجها» قالت فارفارا أليكسييفنا، «لكن ليزا ضعيفة جداً بعد أن أصابها المرض»

«كلا، أمي، أشعر بصحة جيدة، لكن لماذا لم يحضروا لك قشدة مغلية؟»

«لا أريد أي قشدة مغلية، القشدة الطبيعية تفي بالغرض»

«قدمتُ بعض القشدة المغلية لفارفارا ألكسييفنا لكنها رفضت»، عقّبت ماريا بافلفنا وكأنها تبرأ نفسها.

«كلا، لا أريد أي قشدة اليوم» وكأنها أرادت أن تنهي هذا الحديث المقيت وتخرج من المأزق بنبل، ثم استدارت إلى جهة زوج ابنتها وقالت «حسن، هل بذرت/ رششت الفوسفات؟»

خرجت ليزا عندها لتحضر القشدة.

مكتبة الفكر الجديد

«لكنني لا أريد القشدة، لا أريدها»

«ليزا. ليزا.. على رسلك، تمهلي في المشي» قالت ماريا بافلفنا «هذه الحركات السريعة تلحق الضرر بها».

«لا شيء يضر إذا تمتع المرء براحة البال» أجابت فارفرة ألكسييفنا وكأنها تلمح إلى شيء رغم أنها علمت أن كلماتها لم تكن تلمح إلى شيء محدد.

عادت ليزا بالقشدة وتابع يوجين احتساء قهوته متنكدا وهو يستمع بتجهم. فقد تعود على أحاديث كهذه لكنه كان منزعجا اليوم بالذات بسبب غياب المنطق عن الحديث. أراد أن يفكر في المشاعر التي اعترته اليوم، لكن حديث النسوة أزعجه. خرجت فارفرة بعد اتممت شرب القهوة بمزاج معكر، وبقي يوجين وليزا وماريا بافلفنا على الشرفة ودار حديث لطيف بينهم بغياب فارفرة ألكسييفنا. لكن ليزا وبسبب حدسها وحساسيتها المفرطة شعرت أن شيئاً ما يزعج زوجها فسألته إن كان قد حدث خطب ما خلال غيابه. لم يكن مستعدا لتلقي سؤال كهذا فتردد هنيهة قبل أن يجيب بالسلب. لكن قوله إن الأمور على ما يرام وأن شيئاً لم يحصل جعل ليزا تفكر في الأمر أكثر فأكثر. لأن الشيء الذي كان منزعجا منه كان واضحاً بالنسبة لها كوضوح ذبابة تسقط في كوب حليب. لكنه لم ينبس بكلمة. ماذا عساه يكون؟

XI

انفضوا من حول الطاولة بعد تناول الفطور. وكعادته، ذهب يوجين إلى مكتبه لكن عوض أن يبدأ في المطالعة أو كتابة الرسائل جلس ودخن سيجارة تلو الأخرى وأخذ يفكر، كان متفاجئاً تماماً ومنزعجا من الانتكاسة غير المتوقعة داخله، أي لفكرة تجدد الشعور المقيت الذي اعتقد أنه في حلّ عنه منذ أن أقدم على الزواج. فمنذ عقد القران لم يختبر ذلك الشعور البتة. لم يختبر ذلك الشعور تجاه ستيبانيدا أو أية إمرأة أخرى بل انصبت مشاعره كلية على زوجته. وغالبا ما كان يفرح بحريته وابتعاده عن أدران الماضي وغياب ذلك الشعور بالحاجة إلى إمرأة سوى زوجته. أما الآن، وعلى نحو مفاجئ، وبعد لقاء يبدو تافها تكشفت له حقيقة مفادها أنه ليس حراً من تلك المشاعر بعد. أما ما يؤرقه الآن فلم يكن استسلامه لذلك الشعور في اشتهاء ستيبانيدا، فهو لم يفكر في فعل ذلك، بل ما الشيء الذي عذبه هو أن العاطفة بالفعل كانت تجيش في صدره وكان عليه أن يقمعها، ولم يكن لديه شك في قمعها.

أراد الرد على رسالة وملأ ورقة، ثم جلس على المكتب لمباشرة عمله، وعندما أنتهى منه ونسي تماماً ما كان يزعجه ذهب خارج المنزل متجها نحو الإسطبل. ومرة أخرى ـ ولسوء الحظ ـ بمجرد تجاوزه عتبة

مكتبة الفكر الجديد

الرّواق رأى التنورة الحمراء والشال الأحمر مجددا عند الزاوية، مرت من جانبه تؤرجح بيديها وتتمايل بجسدها. لم تمر من جانبه فحسب بل هرولت بمحاذاته وكأنها أرادت، على نحو يوحي بالمرح، السباق مع زميلتها الأخرى.

مجددا دغدغت مخيلته ذكريات الظهيرة المشمسة ونبات القراص والجدار الخلفي لكوخ دانيلا ووجهها المبتسم وهي تقضم بعض الأوراق في ظلال شجر الدلب.

«كلا، مستحيل أن تستمر الحال على ما هي عليه» قال في نفسه، وبعد انتظار مرور النساء واختفائهن عن الأنظار عاد إلى مكتبه.

حان وقت الغداء وأمل يوجين أن يلتقي بمتعهد الأعمال قبل ذهابه. وبالفعل كان موجودا، وقد استيقظ لتوه واقفا في المكتب يمطط جسده ويتثاوب وينظر إلى الراعي الذي كان يقول له شيئا.

«فاسيلي نيقولايفيتش!» قال يوجين

«أوامر؟»

«أردت الحديث معك»

«شبيك لبيك؟»

«إنهي الحديث مع الراعي أولا»

«هلا أحضرتها» قال فاسيلي للراعي

«ما هي؟» سأل يوجين

«لماذا، ولدت البقرة عجلا في المرج، حسن، سآمرهم بوضع السرج على الحصان فوراً، قل لنيقولاي ليسوخ أن يخرج العربة»

مكتبة الفكر الجديد

ذهب الراعي ليفعل ما طلب منه.

«هل تعلم» بدأ يوجين في الحديث وهو يشعر بالخجل ويعلم أنه يشعر كذلك «هل تعلم فاسيلي نيقولايفيتش أنني عندما كنت أعزب انحرفت عن السكة قليلا. أعتقد أنك سمعت؟»

«هل تعني ستيبانيدا» أجاب نيقولاي وعيناه تبتسمان وهو مشفق على مولاه / سيده.

«لماذا، انظر هنا. أرجوك، أرجوك أن لا تدعوها تشارك في تنظيف المنزل مرة أخرى، هل تفهمني؟ هذا يسبب لي حرجاً كبيراً»

«نعم، أنا على يقين أن فانيا الكاتب هو الذي رتب لها ذلك»

«نعم، أرجوك، هل ينبغي نثر ما تبقى من الفوسفات؟» سأل يوجين ليغطي على شعوره بالإحراج.

«نعم، سأتولى الأمر، لا تقلق»

انتهت المحادثة عند ذلك الحد وتنفس يوجين الصعداء آملا أن تستمر الأمور كما كانت في السنة الأولى من الزواج، أي أن لا يرى فيها ستيبانيدا مجددا. «أضف إلى ذلك أن فاسيلي نيقولايفيتش سوف يتحدث مع إيفان الكاتب وإيفان بدوره سيتحدث معها وهي ستتفهم أنني لم أعد راغبا فيها» قال يوجين لنفسه وكان مسروراً لأنه أرغم نفسه على الحديث مع فاسيلي نيقولايفيتش رغم صعوبة الموقف.

«نعم، هكذا أفضل، أفضل بكثير من الشعور بالشك والشعور بالعار»، قال يوجين في سره وشعر بقشعريرة لدى استذكاره ما حدث بينه وبين ستيبانيدا.

مكتبة الفكر الجديد

XII

إن الجهد الأخلاقي الذي قام به ليتجاوز خجله ويتحدث مع فاسيلي نيكالايفيتش هدأ من روعه، بدا له أن الأمر انتهى، وشعرت ليزا على الفور أن زوجها أصبح هادئاً حتى أنه كان أسعد من المعتاد. «لا شك أنه كان متضايقا بسبب مشاحنات أمهاتنا. إنه أمر مقيت بالفعل أن يسمع يوجين تلميحات غير ودية وفظة لاسيما أنه شخص حساس جداً ونبيل». فكرت ليزا.

صادف اليوم التالي عيد أحد الثالوث، كان يوما جميلا أتت فيه النساء الفلاحات إلى بيت سيدهم، كما هو العرف، وهن ذاهبات في طريقهن إلى الغابة لتجدل أكاليل الزهر، وبدأن بالغناء والرقص. خرجت ماريا بافلافنا وفارفرة أليكسييفنا إلى الشرفة ترتديان أبهى الثياب وتحملان مظلات شمسية، ثم انضمتا إلى حلقة الراقصات المغنيات. ومعهن أتى العم السكير المتحرر اللين الذي كان يعيش مع يوجين في ذلك الصيف يرتدي جاكيتا مصنوعا من الحرير الصيني.

وكالعادة، تجمعت النساء الشابات في حلقة زاهية الألوان في الوسط وتحلقت من حولها حلقات أخرى شبيهة بالكواكب المصاحبة اجتمعت فيها الفتيات اللواتي أمسكن بأيادي بعضهن البعض وحفيف فساتينهن الجديدة وفتيان يضحكون يطاردون بعضهم البعض ذهابا وإيابا وشباب

مكتبة الفكر الجديد

أكبر سنا يرتدون معاطف وقبعات سوداء أو زرقاء داكنة وقمصان حمر يبصقون قشر بذور عباد الشمس بدون انقطاع. وخدم المنازل وآخرون يشاهدون حلقة الرقص من بعيد. اقتربت السيدتان من الحلقة أكثر فأكثر بصحبة ليزا مزينة رأسها بأشرطة زرقاء اللون ومرتدية فستانا أزرقا فاتح اللون ذو أكمام واسعة تظهر من تحتها ذراعين بيضاوين وكوعين مستديرين لطيفين.

لم يرغب يوجين في الخروج لكن اختباءه كان سيبدو شاذا. وهكذا خرج إلى الشرفة وأشعل سيجارة وانحنى احتراما للرجال والشبان وتحدث مع أحدهم بينما كانت حناجر النساء تصدح بأهازيج راقصة بكل ما أوتين من قوة ويصفقن ويرقصن.

«إنهن يطلبن السيد» قال صبي من الصبية موجها كلامه لليزا التي لم تنتبه لكلامه. نادت ليزا يوجين وطلبت منه أن يشاهد الرقص ويركز على إمرأة من بينهن أثارت إعجابها الشديد. ومن يا ترى كانت تلك المرأة غير ستيبانيدا التي كانت ترتدي تنورة صفراء وجاكيتا مخمليا قطنيا من دون أكمام وشالا حريريا. كانت ستيبانيدا مفعمة بالطاقة محمرّة الوجنتين مرحة الخطوات جميلة الهيئة، لا شك أنها رقصت بتميز، لكن يوجين لم ير شيئاً من ذلك.

«نعم، نعم» أجاب وهو ينزع النظارات ويضعها مرة أخرى. «نعم، نعم» كرر ذلك. «يبدو أنني لن أستطيع التخلص منها» فكر في نفسه.

لم يركز على ستيبانيدا خشية أن تجتذبه أكثر فأكثر لأنه شعر بجاذبيتها أصلا لدى تمريره نظرة سريعة عليها، بالإضافة إلى أنه رأى من خلال نظرتها البراقة أنها رأته وشعر بأنه لا يزال معجبا بها. وقف في

مكتبة الفكر الجديد

مكانه بقدر ما سمحت استقامته بذلك وبينما رأى فارفرة ألكسييفنا تنادي ستيبانيدا بـ«عزيزتي» بحمق وزيف وتتحدث إليها التف من فوره وغادر المكان. دخل إلى المنزل كي يتحاشى رؤيتها لكنه ما إن وصل إلى الطابق العلوي واقترب من النافذة ومن دون أن يعرف كيف ولماذا، وقف على الشرفة وكحل ناظره بها مجدداً وأخذ ينظر وينظر طيلة الفترة التي تجمعت النساء فيها.

هرول خلسة وخطى خطوات هادئة إلى الشرفة ومن هناك وبينما كان يدخن، مرّ من الحديقة مدعيا أنه يتمشى واتبع الوجهة التي اتخذتها ستيبانيدا. ولم يخط أكثر من خطوتين في الزقاق قبل أن يلحظ وراء الشجر الجاكيت المخملي القطني بلا أكمام والتنورة الزهرية الصفراء والشال الأحمر. كانت ذاهبة إلى مكان ما بصحبة إمرأة أخرى، «إلى أين أنت ذاهب؟» سأل نفسه، وفجأة اعترته شهوة حارقة وكأن يدا أمسكت بقلبه، وقوة ما وإرادة قاهرة طغت عليه. تلفت من حوله واتجه صوبها.

«يوجين إيفانوفيتش، يوجين إيفانوفيتش! أتيت لرؤية فضيلتكم» صدح صوت من خلفه. ومع رؤية ساموخين العجوز الذي كان يحفر بئراً له استيقظ يوجين من غفلته وعاد مسرعا باتجاه ساموخن.. وبينما كان يتحدث معه نظر إلى جانبه، فإذا بستيبانيدا ورفيقتها تنحدران نزولا مع الطريق باتجاه البئر أو ربما جعلا البئر ذريعة، وتوقفتا عنده لبعض الوقت وهرولتا رجوعا إلى حلقة الرقص.

مكتبة الفكر الجديد

XIII

بعد أن تحدث مع ساموخين عاد يوجين إلى منزله مكتئبا وكأنه اقترف جريمة ما. ففي المقام الأول، فهمت ستيبانيدا مراده وتيقنت أنه أراد رؤيتها، وهي بدورها رغبت بذلك. ثانيا، علمت المرأة الأخرى، آنا بروخوروفا، بنواياهما بالتأكيد.

وفوق كل شيء، شعر يوجين بأن من يحركه بالفعل لم يكن إرادته بل إرادة أخرى اجتاحته ودفعته لذلك وقد أنقذ عن طريق الحظ فقط وأنه سوف يهلك إن لم يكن اليوم فغدا أو بعد غد.

«نعم. سأفنى»، لم يفهم الأمر سوى كذلك: أن يخون زوجته الشابة المحبة مع إمرأة فلاحة في القرية على مرأى الجميع، لم يكن سوى الفناء، الهلاك المحض، يستحيل العيش بعد خيانة كتلك؟ كلا، يجب أن أقوم بشيء.

«يا إلهي، يا إلهي! ماذا عساي أن أفعل؟ هل يمكن أن أفنى بهذه الطريقة؟» حاور نفسه، «هل انتهى الأمر؟ بل يجب فعل شيء ما. لا تفكر فيها» أصدر أمراً، «لا تفكر!» وبدأ على الفور في التفكير فيها وتخيلها أمامه ورأى أيضاً ظلال شجر الدلب.

تذكر أنه قرأ عن ناسك أراد أن يتجنب إغراء إمرأة كان يشتهيها،

مكتبة الفكر الجديد

ولكن كان عليه أن يضع يده فوقها ليقرأ عليها لتشفى، بأنه أقحم يده الأخرى في كانون بحيث أحرق أصابعه. استذكر ذلك وقال: «نعم. مستعد لإحراق أصابعي عوضا من أن أفنى/ أهلك». نظر حوله ليتأكد من وجوده بمفرده تماماً وأشعل شمعة ووضع أصبعه في شعلتها. «تفضل، فكر فيها الآن» قال لنفسه متهكما. أحس بالألم فسحب أصبعه المصبوغ بالدخان ورمى بعلبة الكبريت جانبا وأخذ يضحك على حاله. يا له من حُمق! لا تحل الأمور هكذا. لكن من الضرورة فعل شيء لتجنب رؤيتها. الحل يكمن في أن يغادر هو أو يحثها هي على الرحيل. نعم، أن ترحل هي. أن أقدم لزوجها المال لينتقل إلى المدينة أو إلى قرية أخرى. لكن الناس سيعلمون ذلك وسيثرثرون. وما الضير في ذلك؟ في جميع الأحوال، سيكون ذلك أفضل من الخطر الذي يحدق بي. «نعم. يجب القيام بذلك» قال لنفسه. وفي نفس اللحظة كان ينظر إليها من دون أن يرف جفنه «إلى أين هي ذاهبة؟» سأل نفسه فجأة. بدا له أنها وبعد أن رأته بمحاذاة النافذة رمقته بعينيها الجميلتين واصطحبت إمرأة أخرى اتجهت نحو الحديقة وهي تلوح بذراعيها بنشاط، ومن دون أن يدري السبب اتجه إلى مكتبه بمرح وفقا للاتفاق الذي رسمه في مخيلته للتو.

كان فاسيلي نيقولايفيتش يرتدى ثياب العطلة مزينا شعره بالزيت ويحتسي الشاي مع زوجته وضيف كان يلبس شالا شرقيا.

«فاسيلي نيقولايفتش، أردت الحديث معك»

«تفضل، قل ما لديك، لقد فرغنا من تناول الشاي»

«كلا، أفضّل أن تأتي معي».

«حالا، دعني أجلب قبعتي. ثانيا، أطفئي السماور» قال فاسيلي نيقولايفيتش وهو يهم بالخروج

بدا ليوجين أن فاسيلي كان يشرب الخمر، ولكن ما العمل؟ لا ضير في ذلك، ربما من الأفضل أن يكون ثملا لأنه سيتعاطف مع يوجين ويقف بجانبه في محنته التي يعانى منها.

«فاسيلي نيقولايفتش، أتيت لأحدثك عن نفس الموضوع،،، تلك المرأة»

«حسن، ما خطبها؟ أخبرتهم بأن لا يحسبوا حسابها في أي شيء».

«كلا. كنت أفكر في المجمل، وأريد أن تسدي لي نصيحة. هل من الممكن ترحيلهم، أن نرسل العائلة كلها إلى مكان آخر؟»

«ولكن إلى أين؟» عقب فاسيلي بطريقة بدت ليوجين متهكمة وسلبية.

«حسن، فكرت في إعطائهم بعض المال أو حتى قطعة أرض في كولتوفسكي لكي تبتعد تلك المرأة عني»

«ولكن كيف يمكن ترحيلهم؟ إلى أين سيذهب زوجها؟ هل ستقتلعه من جذوره؟ من القرية التي ترعرع فيها؟ ولماذا تقوم بذلك؟ على أي حال، ما الضرر الذي ألحقته بك تلك المرأة؟»

«آه! فاسيلي نيقولايفتش، عليك أن تفهم أن زوجتي ستتأثر على نحو مريع إذا علمت بعلاقتي مع ستيبانيدا»

«ولكن، من سيخبرها؟»

«كيف لي أن أعيش مع هذا الرعب؟ إن الأمر برمته يؤلمني»

مكتبة الفكر الجديد

«لكن، يوجين، لا يتعين عليك في الواقع أن تنزعج! فلكل امرئ منا لديه ماضيه، ولا يتعين عليك استحضاره الآن. من منا بحق الله بلا ذنوب، فكلنا خطاؤون أمام الله وملامون أمام القيصر».

«على أي حال، من الأفضل أن نتخلص من ستيبانيدا وزوجها. هل تستطيع الحديث مع الزوج؟»

«لكن ذلك لن يجدي فتيلا! ايه، يوجين إيفانفيتش، ماذا أصابك؟ قد حصل ذلك في الماضي وعليك أن تنساه. كثير من الأمور تحصل في الماضي، ومن يجرؤ الآن على استغابتك أو تشويه سمعتك؟ فأنت متزوج والجميع يعلم ذلك»

«في جميع الأحوال، أرجو أن تذهب لتتحدث معه»

«حسن، سأتحدث معه»

رغم أن يوجين كان يعلم أن الحديث مع زوج ستيبانيدا لن يقدم أو يؤخر شيئا، لكنه شعر بالارتياح والطمأنينة، وفوق كل شيء، جعله ذلك يشعر بأن حماسته السابقة أفضت إلى المبالغة في وجود الخطر.

هل ذهب ليراها وفقا لموعد مدبر؟ كلا، ذلك مستحيل. كان ببساطة يتمشى في الحديقة وصادف أن تكون في نفس المكان وفي نفس التوقيت.

مكتبة الفكر الجديد

XIV

بعد طعام الغداء في يوم أحد الثالوث وبينما كانت ليزا تمشي من الحديقة باتجاه المرج حيث أراد يوجين أن يطلعها على شجرة قرنفل جميلة، تعثرت ووقعت عندما أرادت اجتياز القناة/ الخندق الصغير. وقعت بلطف على خاصرتها لكنها صرخت، ورأى زوجها علامات على وجهها لا تدل فقط على الخوف بل الألم أيضاً. أراد أن يساعدها على النهوض لكنها أشارت بيدها أن كل شيء على ما يرام.

«كلا، انتظر قليلا، يوجين» قالت له مع ابتسامة واهنة ونظرت إليه نظرة بدت له أنها تنم عن الشعور بالذنب، «لم تسعفني قدمي».

«بالله عليكم، هل يمكن لإمرأة في حالتها أن تجتاز هذه القناة اللعينة قفزاً؟» عقبت أمها فارفرة ألكسييفنا.

«كل شيء على ما يرام، ماما. سأنهض الآن» وفعلت ذلك بمساعدة زوجها بالطبع، لكن لونها غدا شاحبا وبدت خائفة.

«نعم، أنا لست على ما يرام» وهمست شيئاً في أذن أمها.

«يا إلهي!! ماذا فعلت! قلت إنه لم يكن ينبغي عليك أن تأتي» صرخت أمها، «انتظري هنا، سآتي بالخدم، لا يجب أن تمشي، يجب أن تحمل إلى المنزل».

مكتبة الفكر الجديد

«لا تخافي ليزا، سأحملك أنا» قال يوجين وهو يعانقها بذراعه الأيسر، «تمسكي برقبتي.. هكذا» وانحنى ووضع ذراعه الأيمن تحت ركبتيها ليتمكن من حملها. لم ينس بعد تلك الحادثة أبدا، وتعبير وجهها اللطيف المؤلم في ذات الوقت.

«أنا ثقيلة عليك، عزيزي» قالت وهي تبتسم، «انظر، أمي تهرول، قل لها أن تبطئ» وانحنت باتجاهه وقبلته. أرادت بذلك أن تلتفت أمها لتراه يحملها بحنان.

نادى يوجين حماته كي تبطئ من خطواتها وتلحظ أنه يحمل ابنتها العزيزة. توقفت فارفرة وأخذت تصرخ بحدة أكثر من سابقتها «ستسقطها من يديك، أنا متأكدة أنك ستوقع بها، تريد أن تدمرها يا عديم الضمير»!

«لكنني أحملها على نحو ممتاز»

«لا أريد أن أشاهدك وأنت تقتل ابنتي، لا أقوى على ذلك»، وركضت وهي تلف كوع الزقاق.

«لا عليك، ستنسى قريبا» قالت ليزا لزوجها وهي تبتسم.

«نعم، أرجو أن لا تُخلِّف هذه الزلة تبعات سلبية كما حصل في المرة السابقة»

«كلا، أنا لا أتحدث عن ذلك. لا قلق بذاك الشأن، عنيت أمي بحديثي. أنت تعب الآن، خذ قسطاً من الراحة»

رغم أنها كانت ثقيلة بالفعل إلا أنه أنجز المهمة بفخر وسرور واستمر في حمل زوجته حتى وصلا إلى المنزل، ولم يسلمها إلى الطاهي ومدبر المنزل اللذان جمعتهما فارفرة استعدادا للقاء ابنتها

مكتبة الفكر الجديد

والتخفيف من حمل يوجين، بل أوصلها إلى غرفة نومهما ومددها على السرير.

«يمكنكم الانصراف الآن» قالت ليزا وجذبت يد زوجها نحو شفتيها وقبلتها، «أنيوشكا، سأدبر الأمر، لا تخف».

هرعت ماريا بافلفنا أيضاً إلى الغرفة قادمة من جناحها. ساعدت فارفرة وماريا ليزا على تبديل ملابسها، بعدها نامت. جلس يوجين في الصالون وأمسك بكتاب في يده وهو ينتظر، مرت فارفرة من أمامه ومزاجها معكر تنفث هالتها هواءً فاسدا، شعر يوجين بسببه بالذعر وكأنها تلومه على كل شيء حصل لابنتها.

«حسن، كيف تجري الأمور؟»

«كيف تجري؟ وما فائدة السؤال؟ هذا ربما ما رغبت به عندما أرغمت زوجتك على اجتياز القناة قفزاً» أجابت فارفرة

«فارفرة ألكسييفنا» صرخ يوجين وتابع «هذا مستحيل، إذا أردت أن تعذبي الناس وتسممي حياتهم فـ (أراد أن يقول فارحلي إلى مكان آخر وقومي بذلك) كيف لا يؤلمك ما تقومين به؟»

«الوقت متأخر جداً الآن» عقبت وهي تهز بقبعتها بحركة تنم على النصر في معركة ما ومن ثم خرجت من الباب.

لقد كانت سقطة ليزا مؤلمة بالفعل، فقد إلتوت قدمها على نحو خطر واعترى الموقف خطر آخر مرتبط باحتمالية فقدان الجنين. علم الجميع أن لا فائدة من أي إجراء، فقد انقضى الأمر وحصلت السقطة، لكنهم علموا أنه يتعين على ليزا أن تبقى في الفراش بلا حراك، لكنهم في جميع الأحوال قرروا الإرسال في طلب طبيب.

مكتبة الفكر الجديد

كتب يوجين رسالة إلى الطبيب قال فيها «عزيزي نيقولاي سيميونيتش، لقد كنت دائماً وأبدا لطيفا جداً في تعاملك معنا. أتمنى أن لا ترفض طلبي للقدوم إلينا للكشف على زوجتي...» إلخ. وبعد الانتهاء من تحرير الرسالة ذهب إلى الإسطبل ليجهز الجياد والعربة. وكانت الجياد لإحضار الطبيب وأخرى لإرجاعه إلى منزله. وفي عزبة لا تدار بالشكل المطلوب، تحتاج هذه الأمور إلى التريث ويستغرق إتمامها وقتا. بعد إجراء الترتيبات اللازمة أرسل في طلب الحوذي. تجاوزت الساعة التاسعة مساء عندما وصل الطبيب إلى المنزل، كانت ليزا لا تزال ممددة على السرير، قالت إنها تشعر بالتحسن وأن الألم قد زال، لكن فارفرة ألكسييفنا التي كانت تجلس بالقرب من المصباح وتفصلها عن ابنتها أسطوانات الموسيقى كانت تحيك غطاء سرير كبير أحمر اللون وتنظر نظرات تشي بأن السّلام غير ممكن بعد الذي حصل، لكنها رغم كل الظروف سوف تقوم بكل واجباتها بغض النظر عن الآخرين.

لاحظ يوجين ذلك، ولكي يظهر أنه لم يلحظ ما عكسته نظرات فارفرة حاول أن ينشر جوا من المرح والطمأنينة من خلال الحديث عن كيفية اختيار الخيل وكيف أن المهرة كابوشكا انطلقت وكانت تعدو ببراعة عجيبة وتركت أحد السرين في عربة الخيل (الترويكا).

«نعم، بالطبع. إنه الوقت المناسب لتدريب الخيل بينما الناس بحاجة للمساعدة، ربما سترمي بالطبيب في القناة المشؤومة أيضاً» عقبت فارفرة ألكسييفنا وهي تتفحص حياكتها من تحت نظارتها المعلقة على أنفها الطويل وتقرّب غطاء السرير من المصباح أكثر فأكثر.

«ولكنك تعلمين أنه تعين علينا إرسال أحد الجياد وقد قمت بكل ما بوسعي».

مكتبة الفكر الجديد

«نعم، أتذكر تماماً كيف كانت جيادك تعدو معي تحت قوس البوابة الرئيسية»، وقد كان تلك رغبة لطالما أرادت أن تحققها. لكن يوجين عقب بقوله أن ذلك لم يحصل، إلا أن توقيت هذا التعقيب لم يكن حكيماً.

«لم يكن كلامي من، وهذا ما شرحته للأمير، إنه من الصعوبة بمكان أن يعيش المرء مع أناس زائفين لا يتمتعون بالمصداقية، أستطيع تحمل أي شيء إلا هذا» انتفضت فارفرة.

«حسن، أعتقد أنني الشخص الوحيد الذي عانى أكثر من غيره من الزيف وانعدام المصداقية» أجاب يوجين.

«نعم، هذا واضح» قالت بسخرية.

«ماذا؟»

«لا شيء، أحصي عدد الغرز فحسب»

كان يوجين حينها يقف بجانب السرير وكانت ليزا تنظر إليه حيث أمسكت إحدى يديها الرطبتين من العرق يده من تحت غطاء السرير وضغطت عليها وكأن لسان حالها يقول: «تحملها من أجلي، فأنت تعلم أنها لا تستطيع أن تحول دون حبنا لبعضنا البعض».

«لن أقوم بهذا مرة أخرى، لا عليك» همس في أذنها وقبل يدها الرطبة الطويلة وعيناها الرحيمتين اللتان أغمضتا بينما كان يقبلهما.

«هل هو أمر الطفل مجددا؟ كيف تشعرين؟»

«أخشى الإجابة لكي لا تكون إجابتي مغلوطة، لكنني أشعر أن الطفل حي وسوف يحيا» أجابت وهي تنظر إلى بطنها.

مكتبة الفكر الجديد

«آه كم هو مؤلم.. مؤلم التفكير في...»

رغم إلحاح ليزا بالخروج، لم يفعل يوجين بل أمضى الليلة بجوارها ولم يغمض له جفن، إذ كان متأهبا دائماً للعناية بها.

لكنها أمضت الليلة على ما يرام ولو لم يكن الطبيب قد أرسل في طلبه لكانت ربما قد نهضت من فراشها.

وصل الطبيب بحلول العشاء وقال إنه حتى لو عادت الأعراض قد يكون ثمة سبب للقلق لكن الأعراض الإيجابية كانت غائبة، وغياب الإشارات السلبية أيضاً يمكن للمرء أن يستنتج أنه من جهة ما نحتاج إلى كذا وكذا ومن جهة أخرى نحتاج إلى كذا وكذا. وبالتالي، فإن بقاءها في السرير مهم للغاية ورغم أنني لا أحبذ وصف الأدوية لكنه يتوجب عليها في جميع الأحوال أن تتناول هذا المزيج وأن تستلقي بهدوء. بالإضافة إلى ذلك، ألقى الطبيب محاضرة على مسامع فارفرة ألكسييفنا حول تركيبة النساء وكانت فارفرة مهتمة تصغي بإمعان وتهز برأسها موافقة على كل كلمة يتفوه بها. وبعد أن حصل على أتعابه، في الجزء الخلفي من راحة يده كالمعتاد، غادر الطبيب تاركاً وصية مفادها أن المريض عليه أن يستلقي في الفراش لمدة لا تقل عن أسبوع.

مكتبة الفكر الجديد

XV

أمضى يوجين جلّ وقته بجانب زوجته، يتحدث معها ويقرأ لها. والأصعب من ذلك كله أنه تحمل من دون اعتراض هجمات فارفرة ألكسييفنا حتى أنه حاول تحويل هجماتها إلى شيء من الدعابة.

لكنه لم يستطع البقاء في المنزل طيلة الوقت، بسبب زوجته التي كانت تدفعه إلى الخروج منه لأنها تعتقد أنه سيمرض إذا ما بقي بجانبها طوال الوقت. أما السبب الثاني فهو الحاجة إلى وجوده في المزرعة في كل مرحلة ليراقب شؤون الزراعة التي كانت تتقدم على نحو ملحوظ. لم يستطع البقاء في المنزل بل تعين عليه الذهاب إلى الحقول والأحراج والحديقة ومكان دراسة الحنطة وفي كل الأماكن التي كان يذهب إليها، لم تطارده فقط الخواطر السريعة المتعلقة بستيبانيدا بل صورتها الواضحة التي غزت مخيلته ولم يستطع أن يتخلص منها سوى في مناسبات قليلة. لم يكن ذلك ليشكل عاءً كبيراً لأنه تمكن من ضبط مشاعره، لكن الأسوأ من ذلك كله هو أنه بالرغم من عدم رؤيته لها وابتعاده عنها لشهور ماضية أصبح الآن يراها باستمرار. فقد فهمت، بالطبع، بأنه يرغب بتجديد علاقته بها فحاولت بالتالي أن تعترض سبيله. لم يتفوه أي منهما بكلمة لذلك لم يسعيا إلى تحديد موعد، لكنهما سعيا لانتهاز الفرص التي تسمح برؤية بعضهما البعض.

مكتبة الفكر الجديد

أما المكان الأنسب للقائهما فكان الغابة/ الحرج حيث تذهب النساء الفلاحات عادة تحملن الأكياس لجمع العشب لإطعام البقر. عرف يوجين ذلك وباشر بالذهاب إلى هناك يوميا. كان يحاول اقناع نفسه في كل يوم بعدم الذهاب، وما يلبث أن ينتهي اليوم حتى يكون قد ذهب إليه، ولدى سماعه صدى أصواتهن كان يقف خلف الشجيرات وقلبه يخفق، وينظر ليرى إن كانت ستيبانيدا موجودة مع مجموعة النساء.

لم يكتشف سر رغبته بمعرفة ما إذا كانت مع الجمع أو لا، فلو كانت هناك بمفردها لما خرج لملاقاتها وتخيل أنه سيهرب في تلك الحالة، لكنه أراد أن يراها فقط.

رآها مرة عندما كان على وشك الدخول إلى الغابة، كانت خارجة منها بصحبة إمرأتين تحمل كيسا ثقيلا من العشب على ظهرها. لو بكّر في مجيئه لكان قد رآها في الغابة. أما الآن، فهي لا تستطيع العودة إليه لأنها بصحبة إمرأتين. ورغم معرفته باستحالة عودتها إليه إلا أنه وقف مطولا خلف شجيرة بندق وكان يجازف في استرعاء انتباه النساء الأخريات. لم تعد بالطبع لكنه بقي في مكانه لفترة طويلة. يا إلهي كم كانت صورتها رائعة في مخيلته! ليس لمرة واحدة فقط بل لخمس أو ست مرات وفي كل مرة على نحو أكثر وضوحا. لم تكن في السابق بنفس المستوى من الجمال والجاذبية ولم يكن هو في السابق في قبضتها إطلاقا ولم تسيطر عليه وتطغى على مشاعره كما تفعل الآن.

شعر بأنه فقد إرادته وأصبح شبه مجنون، أما حزمه وشدته فلم تستكن بل على العكس رأى رغباته وأفعاله (كذهابه إلى الغابة) بغيضة مقيتة. علم أنه يحتاج إلى أن يقترب منها في أي مكان في العتمة وإذا

مكتبة الفكر الجديد

أمكن أن يلمسها لكي يذعن لشعوره الطاغي. علم أيضاً أن الشعور بالعار/ الخجل أمام الناس وأمامها وأمام نفسه أيضاً هو الشيء الوحيد الذي يضبطه. وعلم أيضاً أنه حاول البحث عن ظروف يخفف من خلالها وطأة العار/ الخجل، كأن يقابلها في الظلام على مقربة يقمع بسببها العار/ الخجل من جراء طغيان الشغف الحيواني. ولهذا، علم بأنه حيوان بائس. فكرِه نفسه وتقزز منها بكل جوارحه. كرِه نفسه لأنه لم يستسلم لرغبته بعد. فقد كان يصلي في كل يوم ليقويه الرب وينقذه من الفناء/ الهلاك. وفي كل يوم كان يقرر بأنه لن يتخذ خطوة واحدة في سبيل رؤيتها وأنه سوف ينساها إلى الأبد، وفي كل يوم كان يخطط لوضع وسائل ليخلص نفسه من آفة الإغواء تلك وكان يتبع تلك الوسائل. لكن كل تلك الجهود باءت بالفشل.

إحدى تلك الوسائل كانت مرتبطة بإشغال نفسه على نحو مستمر. وسيلة أخرى تلخصت في الصوم أو العمل الجسدي المرهق. وسيلة ثالثة مفادها تخيل مستوى الخزي والعار الذي ستجلبه عليه تلك العلاقة عندما يعلم الجميع بها (أمه وحماته وخدمه، إلخ). اتبع جميع تلك الوسائل وبدا له أنه ينتصر لكن ما إن يأتي منتصف اليوم، ساعة لقاءاتهما الغابرة والساعة التي التقى بها وهي تحمل كيس العش، إلا وينطلق نحو الغابة. وهكذا مضت خمسة أيام من العذاب على ذلك الوضع. كان يراها فقط من مسافة ولم يحدث مرة أن التقى بها عن قرب.

XVI

أخذت ليزا بالتعافي تدريجياً، فقد غدت قادرة على التحرك رويدا رويدا لكنها كانت غير مرتاحة بسبب التغيير الذي طرأ على زوجها. التغيير الذي لم تستطع أن تفهمه.

غابت عن المنزل في تلك الفترة فارفرة ألكسييفنا وبقي عمّ يوجين وأمه.

كان يوجين يمرّ بحالته شبه الجنونية عندما أمطرت ليومين متتاليين كما يحصل عادة بعد العاصفة الرعدية في شهر يونيو/ حزيران. فقد أوقف المطر جميع أشكال العمل. حتى أنهم أوقفوا نقل السماد بحجة الرطوبة والبلل والقذارة. التزم الفلاحون بيوتهم، وأرهق الرعاة أنفسهم بالخروج بالماشية إلا أنهم ما لبثوا أن عادوا أدراجهم. أما النساء الفلاحات الملتحفات بالشالات حافيات الأقدام الملطخات بآثار الوحل فقد هرعن ليجدن طريقا للأبقار. تدفقت جداول المياه في جميع الطرقات بحيث أشبعت العشب وأوراق الشجر، وتدفقت المياه أيضاً بلا انقطاع من المزاريب فكونت بريكات ذات فقاعات. جلس يوجين في المنزل مع زوجته التي كانت تشعر بالإرهاق في ذلك اليوم، سألت زوجها مرات عديدة عن سبب استيائه، وأجاب بانزعاج أن لا شيء مهُم. فتوقفت عن سؤاله لكن حيرتها ازدادت.

مكتبة الفكر الجديد

كانا يجلسان في غرفة الاستقبال بعد تناولهم الفطورو يستمعان إلى عمّ يوجين الذي كان يسرد للمرة المئة قصصاً مزيفة عن معارفه في المجتمع المخملي. تنهدت ليزا معبرة عن استيائها من الطقس والألم في الجزء الضيق من ظهرها بينما كانت تحوك جاكيتا. نصحها العمّ بالتمدد على السرير وطلب لنفسه كأساً من الفودكا. أما يوجين فقد كان يعاني من السأم المرعب وهو قابع في المنزل. فكل شيء راكد فاتر خانق. قرأ كتابا وصحيفة لكنه لم يفهم شيئاً منهما.

«يتعين علي الخروج لألقي نظرة على آلة البرْد التي أتوا بها البارحة» قال يوجين ونهض وخرج.

«خذ المظلة معك»

«لا، لا، لدي معطف من الجلد، سأقطع مسافة لا تتعدى غرفة صهر المعادن!!!!!!»

ارتدى حذاءه ومعطفه الجلدي وذهب إلى المصنع، ولم يخط سوى عشرين خطوة قبل أن يلتقي بها قادمة نحوه وتنورتها مطوية إلى الأعلى بحيث تظهر بطتا ساقيها بوضوح. كانت تمشي وتمسك بشالها الذي غطى رأسها وكتفيها من الأسفل.

«إلى أين أنت ذاهبة؟» سأل يوجين قبل أن يعرف بأنها ستيبانيدا. وعندما تيقن أنها هي بعد لحظات كان القطار قد فات. توقفت تبتسم وتنظرإلى وجهه مطولاً.

«أبحث عن عجل شارد. ماذا عنك؟ إلى أين أنت ذاهب في طقس كهذا؟» سألته وكأنها كانت تراه كل يوم.

مكتبة الفكر الجديد

«تعالي إلى الكوخ» قال يوجين فجأة من دون أن يدري كيف قالها وكأن شخصاً آخر تفوه بتلك الكلمات.

عضّت على شالها وغمزته وركضت باتجاه الحديقة التي توصل إلى الكوخ واستمر يوجين في طريقه المعاكس وفي نيته أن ينحرف لدى وصوله شجيرة زهور الليلك ليذهب إلى الكوخ أيضاً.

«أيها السيد» سمع يوجين صوتاً خلفه، «السيدة تطلب عودتك إلى المنزل لدقيقة» قال ميشا، أحد الخدم.

«يا إلهي! هذه هي المرة الثانية التي أنقذتني فيها» فكر يوجين وعاد إلى المنزل فورا. ولدى وصوله ذكرته زوجته بأنه يتعين عليه أن يأخذ الدواء في فترة الظهيرة وأنه من الأفضل أن يأخذه معه الآن.. الدواء الذي وعد به إمرأة مريضة بتوصيله إليها.

استغرق الأمر خمس دقائق ريثما أحضروا الدواء، بعدها أخذ الدواء وتردد في الذهاب مباشرة من المنزل إلى الكوخ خوفا أن يراه أحد ما. ولكنه بمجرد تواريه عن الأنظار وابتعاده عن المنزل انعطف على الفور متجها إلى الكوخ. وقد رآها في مخيلته داخل الكوخ تبتسم بابتهاج. لكنها لم تكن هناك ولم يكن ثمة أثر في الكوخ يدل على وجودها فيه.

كان يفكر في عدم مجيئها، فتفوه بكلمات من خياشيمه وكأنه كان خائفا من أن تسمعه «أو ربما لم ترد أن تأتي، ولماذا تخيلت أنها سوف تهرع للقائي؟ فلديها زوجها، أنا فقط من هو بائس تعيس لديه زوجة طيبة ويلهث وراء أخرى». فكر في ذلك وهو يجلس في الكوخ تحت سقف القش الذي تسرب الماء منه وبدأت القطرات تقع على الأرض. «ولكن، سيسعده لو أنها قد أتت. وليكن ما يكن». «آه، بالطبع» تذكر

مكتبة الفكر الجديد

وتابع «لو كانت قد أتت لعرفت من آثار قدميها». نظر من حوله على الأرض على مدخل الكوخ وعلى الطريق ذو العشب العالي ورأى آثاراً لأقدام عارية. «إذا، قضي الأمر. سأواجهها من الآن فصاعدا وأقابلها بمجرد رؤيتها. سأفعل ذلك الليلة». جلس في الكوخ لفترة طويلة وغادره مرهقا مسحوقا. أوصل الدواء وعاد إلى المنزل واستلقى في غرفته في انتظار طعام العشاء.

مكتبة الفكر الجديد

XVII

أتت ليزا إليه قبل العشاء وهي لا تزال حائرة في معرفة سبب استيائه. بدأت بالقول إنها خشيت من أن يكون سبب استيائه مرتبط بفكرة ذهابها إلى موسكو لتضع مولودها وأكدت على أنها قررت أن تبقى في المنزل وأن لا تذهب إلى موسكو بأي حال من الأحوال. علم يوجين أنها كانت تخشى من الولادة ومن احتمالية وضع مولود عليل الصحة. لذلك لم يمتلك سوى التعاطف معها لأنها قررت أن تذهب مذهبا قصيا في التضحية بكل شيء من أجله. كل شيء في المنزل كان جميلاً لطيفاً نظيفاً ومريحاً بخلاف روحه القذرة الحقيرة الكريهة. تألم يوجين طيلة ذلك المساء لأنه رغم يقينه بأنه صادق في تأففه وانزعاجه واستيائه من ضعف حيلته ورغم حزمه في نيته الخلاص من ستيبانيدا لكن الأمر ذاته سيتكرر في يوم الغد.

«كلا، هذا محال» قال في سره وهو يمشي ذهاباً وإياباً في غرفته «يجب أن أجد حلا لهذه المعضلة! يا رب ألهمني الخروج من هذا المأزق»

طرق أحدهم باب الغرفة وكأنه شخص أجنبي، علم يوجين أن عمه وراء الباب، «أدخل يا عم»

دخل العم ليتحدث مع يوجين بصفته سفيراً أرسلته ليزا لينوب عنها.

مكتبة الفكر الجديد

«هل تعلم أنني لاحظت تغيراً طرأ عليك، يوجين؟ أما ليزا، فأنا أتفهم كيف يؤثر عليه ذلك التغيير. وأتفهم أيضاً أن الأمر سيكون في غاية الصعوبة لو أهملت أعمالك التي بدأت فيها بامتياز في المزرعة والمصنع!»

Que veux-tu?[1] أقترح أن تترك هذا المكان وتصطحب زوجتك إلى مكان آخر لفترة. سيكون ذلك مرضيا لكما. أنصحك بالذهاب إلى شبه جزيرة القرم. فالطقس رائع هناك وثمة قابلة قانونية / مولدة/ ممتازة أيضاً كما أنك ستصل في موسم العنب الرائع.

«يا عم» هتف يوجين فجأة وتابع «هل تحفظ السرّ؟ هل تحفظ سراً يقض مضجعي؟ سراً يلحق بي العار؟»

«يوجين، وهل من شك في ذلك؟»

«هل لك أن تساعدني، يا عمّ؟ بل هل لك أن تنقذني؟» سأل يوجين، وفكر في فضح سره لعمه الذي لم يكن يحترمه. فكر في أن إظهار نفسه بأسوأ صورة وإذلالها أمام عمه أمر يروق له تماماً، فقد شعر بأنه وضيع حقير مذنب وأراد توبيخ نفسه وزجرها بل ومعاقبتها.

«تحدث إليّ يا عزيزي الشاب. فأنت تعلم كم أحبك وأقدرك» تدخل العمّ وظهرت على أساريره علامات الرضا التام لأن سراً ما، قبيحاً ربما، سيُكشف له وأنه قد يكون ذو فائدة لابن أخيه.

«أولا، عليّ القول أنني شخص بائس، وضيع، خسيس، لا يصلح لشيء، نذل. نذل قولاً وفعلاً»

---

(١) ماذا سيكون لديك؟

مكتبة الفكر الجديد

«ماذا تقول يا يوجين» أجاب عمه وكأنه استاء من وصف ابن أخيه لذاته..

«ماذا أقول!! هل أكون غير إنسان بائس وضيع عندما أكون زوج ليزا، ليزا! تلك المرأة الطاهرة الصافية التي تكن لي حبا لا مثيل له، زوج ليزا، أنا، هل أكون غير إنسان نذل وقد عزمت على خيانتها مع إمرأة فلاحة؟»

«ماذا!! ولم أردت خيانتها؟ هل فعلا قمت بذلك؟»

«نعم، شيء من هذا القبيل... كنت أنوي القيام بذلك. كنت مستعدا للخيانة ولكن طرأ أمر وتعثرت الخطة، لو لم يحصل ذلك لكنت خنتها الآن. لا أدري ماذا كان يمكن أن أفعل»

«لكن أرجوك. اشرح لي»

«حسن، سأسرد لك القصة، عندما كنت أعزب كنت غبيا وأقمت علاقة مع إمرأة هنا في القرية، أعني أنني كنت ألتقي بها في الغابة في الحقل»

«هل كانت جميلة؟»

قطب يوجين حاجبيه على وقع هذا السؤال لكنه كان بحاجة ماسة إلى مساعدة شخص آخر، فتجاهل السؤال وكأنه لم يسمعه وتابع:

«حسن، اعتقدت أنها كانت نزوة عابرة ستضمحل عاجلاً أم آجلاً وتصبح طي النسيان. وبالفعل، أنهيت العلاقة قبل الزواج. ولم أرها ولم أفكر فيها طيلة السنة الأولى من الزواج». بدا سماع سرد القصة والتعبير عن ظروفه بلسانه أمراً غريباً. «بعدها، ولسبب لا أستطيع إدراكه، وعلى حين غرة رأيتها وبدأت الدودة تزحف في قلبي وتقضم منه شيئاً فشيئا. قد يكون الإيمان بالسحر والتعاويذ في مثل هذه الحالات أمراً مقبولاً.

مكتبة الفكر الجديد

على أية حال، أقوم الآن بتوبيخ نفسي وأعلم قباحة العمل وأتفهمه تماماً، أعني العمل الذي قد أقوم به في أي لحظة. لكن نفسي تنزع نحوه والسبب في عدم القيام به لغاية اللحظة هو تدخل العناية الإلهية لحفظي. لا شيء سوى ذاك. فالأمر لا علاقة لي به شخصيا للحيلولة دون ذلك. كنت البارحة في طريقي إليها عندما أرسلت ليزا في طلبي».

«ماذا! تحت المطر الغزير؟»

«نعم. لقد تعبت يا عمّ وقررت أن أعترف لك وأطلب مساعدتك»

«نعم بالطبع. قد يكون ذلك عمل قبيح لاسيما في مزرعتك وبين أملاكك، فالناس سيعلمون. أتفهم أن ليزا ضعيفة وأنه من المهم أن تداريها، ولكن لم ترغب القيام بذلك الشيء في ضيعتك هنا؟ ربما اخترت مكانا آخر؟»

مرة أخرى، حاول يوجين أن يتجاهل ما قاله العمّ وأصاب لباب الأمر فوراً فقال «نعم. أنقذني من نفسي، هذا ما أطلبه منك. تعثرت الخطة اليوم مصادفة، لكن غدا أو بعد غد لن تتعثر الخطة، لا تتركني وحدي»

«حسن، حسن، لكن هل أنت مهووس بها إلى هذه الدرجة؟ هل وقعت في غرامها؟»

«أوه،، ليس ذاك يا عم، على الإطلاق، ثمة قوة ما تسيطر على جوارحي وتقبض علي بإحكام، وبعدها تدفعني إلى....»

«حسن، يبدو أن خياري كان خياراً صحيحاً، فلنذهب إلى القرم»

«نعم بالفعل، هلم بنا إلى القرم، وفي الأثناء سألتزم صحبتك وأتحدث إليك، لا تتركني وحدي».

مكتبة الفكر الجديد

XVIII

إن حقيقة اعتراف يوجين بالسر والبوح به لعمه وشعوره بعذابات الضمير والخزي والعار الذي خبره في ذلك اليوم الماطر، كل ذلك شكل صفعة في وجهه أيقظته وأبعدت تأثير ستيبانيدا عليه. اتفق الجميع على الذهاب إلى يالطا بعد أسبوع. ذهب يوجين خلال الأسبوع إلى البلدة للحصول على المال استعدادا للرحلة وأصدر تعاليمه من المنزل والمكتب المتعلقة بإدارة عزبته، مرة أخرى شعر يوجين بالنشوة واقترب أكثر فأكثر من زوجته وبدأ يتعافى أخلاقيا.

وهكذا، لم تقع عيناه على ستيبانيدا بعد اليوم الماطر وسافر مع زوجته إلى القرم، وأمضى هناك شهرين رائعين. وقد ترسخت في مخيلته انطباعات جديدة بدت له أنها مسحت الماضي من ذاكرته. قابل يوجين وزوجته معارف سابقين في القرم وأصبحوا جميعاً أصدقاء. كما أنهم تعرفوا إلى أشخاص جدد. كانت الحياة في القرم بمثابة عطلة مستمرة بالنسبة ليوجين، بالإضافة إلى كونها عطلة مفيدة وتعليمية. أصبحوا أصدقاء مع مارشال سابق من النبلاء في مقاطعتهم. وهو رجل متحرر متفتق الذهن ذكي، أعجب بيوجين وقربه منه ودعاه إلى حفلته. وفي نهاية شهر أغسطس، أنجبت ليزا طفلة جميلة تتمتع بصحة جيدة، أما ولادتها فقد كانت يسيرة سهلة عكس التوقعات.

مكتبة الفكر الجديد

عاد الأربعة جميعهم (الزوجان والعم والأم) في سبتمبر/ أيلول إلى المنزل بما في ذلك الطفلة ومرضعتها. لأن ليزا لم يكن بمقدورها إرضاعها بنفسها. عاد يوجين إلى منزله رجلاً سعيدا هادئاً مطمئناً خالياً تماماً من رعب أدران الماضي. وبما أنه خبر التجربة الجديدة التي يختبرها أي زوج جديد حينما تحمل وتولد زوجته فإنه أصبح يحبها أكثر من أي وقت مضى. أما مشاعره تجاه المولود حين حمله بين يديه فكانت خليطاً بين المرح والفرح والغبطة والغرابة. وثمة اهتمام جديد طرأ على حياته، بخلاف انشغاله بعزبته، وبفضل معرفته بدومتشين (المارشال السابق) كان ينوي ترشيح نفسه للانتخابات في الإدارة المحلية في إقليمهم. كان ذلك اهتماماً طموحاً في جزء منه وشعوراً بالواجب في جزئه الآخر. وقد كان من المنتظر أن يعقد في أكتوبر اجتماعاً خاصاً ينتخب من خلاله يوجين. وبعد عودته إلى المنزل ذهب مرة إلى البلدة ومرة أخرى للقاء دومتشين.

أما بالنسبة للعذابات والإغراءات التي مرّ بها فقد نسي أن يفكر فيها أصلا، إذ أصبح من الصعب عليه أن يستذكرها، وبدا له وكأنه أصيب بنوبة جنون مؤقتة.

شعر يوجين بحرية تامة بعيدا عن المغريات السابقة لدرجة أنه سأل عن ستيبانيدا في أول لقاء جمعه مع المتعهد، وبما أنه كان قد تحدث إليه في ما مضى عن نفس الموضوع فلم يشعر بالحرج هذه المرة.

«حسن، وهل سيدور بيتشنيكوف لا يزال غائبا عن منزله؟» سأل يوجين.

«نعم، لا يزال في البلدة»

«وماذا عن زوجته؟»

«آه. تلك الساقطة، تقيم علاقة مع دجينوفي في هذه الأيام، انفلتت تلك المرأة من عقالها»

«حسن، هذا جيد» فكر يوجين «كم هو رائع أن أشعر باللامبالاة حين آتي على ذكرها! لقد تغيرتُ كثيرا!»

مكتبة الفكر الجديد

XIX

لقد تحقق كل ما كان يرغب فيه يوجين، فقد أبقى على عقاراته وعزز من أداء مصنعه وحسّن من محصول الشمندر في حقوله وتوقع عائدا ماليا كبيراً جراء ذلك. ولدت زوجته طفلتهما الجميلة من دون مشاكل تذكر وغادرت حماته منزلهما وانتُخب بالإجماع في الإدارة المحلية.

كان عائدا من البلدة إلى منزله بعد الانتخابات وانهالت عليه التهاني، كان قد تناول طعام العشاء وشرب خمسة أقداح من الشمبانيا. وبينما قفل من البلدة أخذ يفكر في الخطط الجديدة التي ستثري حياته. كان صيفاً دافئاً جافاً ذو سماء صافية وشمس ساطعة، أما الطريق فكانت مريحة.

كان يفكر في وضعه وموقعه أمام الناس لاسيما بعد الفوز في الانتخابات بينما كان يقترب من منزله، ذلك الموقع الذي طالما حلم به. أي أنه لن يكون بمقدوره خدمة الناس من خلال انتاجه وتوفير فرص عمل فحسب، بل من خلال نفوذه المباشر. فكر في الفلاحين الذين يعملون لحسابه والفلاحين الآخرين، وفكر في رأيهم فيه بعد ثلاث سنوات. فكر فيما يمكن أن يفكر فيه هذا الفلاح مثلاً فكر في ذلك وهو في عربته داخل القرية وهو ينظر إلى فلاح وإمرأة فلاحة كانا يعبران الطريق أمام العربة ويحملان جرة مليئة بالماء. توقفا ليدعا العربة تمرّ،

مكتبة الفكر الجديد

الفلاح لم يكن سوى بيتشنيكوف العجوز والمرأة لم تكن سوى ستيبانيدا، نظر إليها يوجين وعرفها وكان مسروراً لأنه حافظ على هدوئه رغم رؤيتها. كانت لا تزال جميلة كعهدها لكن ذلك لم يؤثر فيه. قابلته زوجته في الرواق، وكان المساء خلابا.

«حسن، هل لي بتهنئتك» قال العمّ

«نعم. لقد انتُخبت»

«رائع! يجب أن نشرب نخب الفوز»

في اليوم التالي، ذهب يوجين لتفحص أمور الزراعة التي كان قد أهملها، وجد المزرعة النائية ماكينة دراسة الحنطة تعمل على قدم وساق. وبينما كان يتفحصها انتقل لجهة النساء الفلاحات من دون أن يهتم بمراقبتهن، لكنه رغم محاولاته عدم النظر إليهن لمح مرة أو مرتين العينان السوداوان والشال الأحمر. لمح ستيبانيدا التي كانت تحمل القش/ التبن. نظر مرة أو مرتين جانبا إليها وشعر أن شيئاً ما يتحرك داخله لكنه لم يحدد ذلك الشعور بالضبط. وعندما ذهب في اليوم التالي إلى نفس المكان وأمضى ساعتين فيه من دون داع، نظر خلالهما مراراً وتكراراً إلى القامة الرشيقة للمرأة الشابة، شعر بالضياع الذي لا شفاء منه، ومرة أخرى عاودته تلك العذابات والتباريح، ولم يكن ثمة خلاص منها.

ما توقعه حصل تماماً، ففي مساء اليوم التالي ومن دون أن يدري وجد نفسه في حديقتها الخلفية بجانب كوخ القش حيث التقيا مرة من المرات في الخريف. وبينما تظاهر أنه يتمشى في ذلك المكان توقف ليشعل سيجارة، رأته فلاحة جارة لها، وبينما أراد أن ينعطف سمعها

تقول لشخص آخر: «اذهبي إنه في انتظارك، أقسم أنه يقف هناك، اذهبي إليه يا حمقاء»

رأى إمرأة ركضت إلى كوخ القش، إنها هي. ولكن فلاحاً اعترض سبيله مجدداً وأصبح من المحال الالتفاف إلى الوراء والذهاب إلى الكوخ، عندها، قفل راجعا إلى منزله.

مكتبة الفكر الجديد

XX

عندما دخل يوجين غرفة الاستقبال بدا كل شيء فيها غريبا وغير طبيعي، استيقظ في ذلك الصباح نشطاً مصمماً على أن يضرب بمسألة ستيبانيدا عرض الحائط وأن ينساها ولا يسمح لنفسه مجرد التفكير فيها، لكن ومن دون أن يلاحظ لم يكن طيلة ذلك الصباح غير مكترث بالعمل فحسب بل حاول تجنبه أيضاً. فما كان في السابق يثلج صدره ويسعده لم يكن كذلك اليوم. حاول وعلى نحو غير واع أن يتحرر من أي أعمال، وبدا له أن غياب العمل سيجعله قادراً على التفكير والتخطيط. فحرر نفسه من العمل وبقي بمفرده. وهكذا، وبينما بقي بمفرده وجد قدميه تنساقان باتجاه الحديقة ومن ثم إلى الغابة. وعلى الطريق تخضبت جميع البقع بذكريات جميلة قفزت إلى مخيلته فأسَرَتْه. شعر أنه كان يمشي في الحديقة يتظاهر لنفسه أنه يفكر في أمر ما لكنه لم يكن يفكر في أي شيئ بل كان مهووسا على نحو مجنون ولاعقلاني بتوقع رؤيتها. كان يتوقع أنه وبمعجزة ما ستعلم ستيبانيدا بأنه يتوقع رؤيتها وبالتالي ستأتي هنا على الفور ليذهبا سوية إلى مكان لا يراهما فيه أحد أو ستأتي في ليلة ظلماء يغيب فيها القمر بحيث لا يستطيع أحد رؤيتهما ولا تستطيع هي أيضاً رؤية أي شيء بل تأتي فقط ليتحسس جسدها و.....

«أنظر... تتحدث عن تصميمك على هجرها متى شئت!!» قال لنفسه

«نعم، وأن يكون لديك إمرأة تتمتع بصحة جيدة لتقيم علاقة معها

مكتبة الفكر الجديد

لأغراض صحية!! كلا، يبدو أنك لا تستطيع أن تلعب مع تلك الفتاة بهذه الطريقة. اعتقدت أنني كنت قد أسرتها لكنها هي التي أسرتني ولم تطلق سراحي. لماذا اعتقدت أنني حر طليق، لم أكن كذلك بل كنت أخدع نفسي عندما تزوجت، هراء، خداع. فمنذ الوقت الذي عاشرتها فيه اختبرت شعوراً جديداً، شعور الزوج الحق. نعم، كان يتعين علي العيش معها».

«ثمة حياتان متاحتان لي: إحداهما التي بدأت مع ليزا والخدمة وإدارة العزبة ورعاية الطفل واحترام الناس. وإذا كانت هذه هي الحياة وجب إذا أن تختفي ستيبانيدا ولا تكون جزءاً منها. يجب أن تُرَحّل كما قلت سابقاً أو أن تدمر وتختفي عن الوجود. أما الحياة الثانية فهي كالتالي: أن أخطفها من زوجها وأدفع له المال وأن لا أكترث بالعار أو الخزي أو كلام الناس ومن ثم أعيش معها. وفي تلك الحالة وجب أن تختفي ليزا عن الوجود. وتختفي ميمي أيضاً (الطفلة). كلا، لا يهم أن يبقى الطفل لكن اختفاء ليزا ضرورة ملحة، أي أن ترحل بعد أن تعرف ما يدور فتصب لعنتها علي وتغادر بلا رجعة، عليها أن تعرف أنني استبدلت امرأة فلاحة بها وأنني خائن ونذل! كلا، هذا فظيع جداً! مستحيل! لكنه ممكن!» أخذ يوجين يفكر «قد تقع ليزا في براثن المرض من جديد وتموت، وعندما تموت يصبح كل شيء رائعاً».

«رائع!! أوه، أيها النذل! كلا، إذا كان ولا بد أن يموت أحد ما فإنه ستيبانيدا، آه لو لقتْ حتفها. ستصبح الأمور أكثر من رائعة».

«نعم، هكذا ينتهي المطاف بالرجال حين يعزمون على قتل زوجاتهم أو عشيقاتهم بالسُّم، أو عوضا عن ذلك، خذ بيدك مسدسا واذهب لزيارتها وعوضا عن معانقتها أطلق النار على صدرها لينتهي الأمر».

مكتبة الفكر الجديد

«إنها الشيطان في صورة إمرأة، لقد تحكمت بمشاعري وتصرفاتي رغم أنفي، القتل إذاً؟ نعم. ثمة طريقتان للخروج من المأزق: إما قتلها أو قتل زوجتي، لأن الاستمرار في العيش على هذا النحو غير ممكن، مستحيل! يجب أن أنظر في الأمر وأفكر في المستقبل، إذا ما بقيت الأمور على حالها فماذا يمكن أن يحصل؟»

«ما سيحصل هو أنني سأقنع نفسي بالقول أنني لست بحاجة لها وأنني سأنهي العلاقة فوراً، لكن سأقوم بذلك قولا فقط، أما فعلا فإنني سأذهب إلى حديقتها الخلفية ما إن يحل المساء وسوف تعلم بمجيئي وتخرج لملاقاتي. وإذا علم الناس بما سيحصل وأخبروا زوجتي، أو إذا قمت بذلك شخصيا وكشفت الحقيقة لها لأنني لا أتقن الكذب لن أستطيع الاستمرار في العيش، لن أستطيع! فالناس سيعرفون، بارشا والحداد، وآخرون..... حسنٌ، هل بالإمكان الاستمرار في الحياة إذا ما حصل ذلك؟»

«مستحيل! ثمة طريقتان فقط: قتل زوجتي أو قتل ستيبانيدا، أو ربما...، نعم، ثمة طريقة ثالثة: أن أقتل نفسي» قال تلك الكلمات بخجل مخفضا صوته وشعر بسببها بالقشعريرة التي اجتاحت جلده فجأة «نعم الانتحار هو الحل. عندها سأوفر على نفسي قتل أي منهما». أصبح يوجين خائفا لأنه شعر أن الانتحار هو الحل الوحيد الممكن، فقد كان يملك مسدسا، «هل أقتل نفسي بالفعل؟ لم أفكر في هذا الأمر من قبل. سيكون ذلك غريبا جدا».

عاد إلى غرفة الدراسة وفتح مباشرة الخزانة التي يضع فيها المسدس وقبل أن يستله من الصندوق الخاص به دخلت زوجته الغرفة.

مكتبة الفكر الجديد

XXI

رمى بجريدة على المسدس.

«لا تغيير إذاً» قالت زوجته.

«ماذا تعني بلا تغيير؟»

«أعنى ذلك التعبير الفظيع على وجهك، التعبير الذي طغى على سحنتك في السابق ولم ترغب بشرح أسبابه. جينيا، عزيزي الأوحد، قل لي ما خطبك، أرى أنك تتعذب، قل لي وستشعر بتحسن، بغض النظر عن الموضوع، قل لي وستشعر بالارتياح عوضا عن هذا العذاب الذي تعاني منه، أعلم أن الأمر غير قبيح كما قد تتصور»

«أتعلمين؟ لاحقاً.. ربما..»

«أخبرني، أخبرني، أخبرني، لن أدعك تذهب».

ابتسم ابتسامة تثير الشفقة وقال: «هل أخبرك؟ كلا، مستحيل. ليس ثمة شيء أخبرك به على أية حال»

كان بالإمكان أن يخبرها في تلك اللحظات لولا دخول المرضعة لتطلب الخروج في نزهة لتتمشى خارج المنزل بصحبة الطفلة، وذهبت ليزا عندها لتغير ملابس الطفلة.

«ستخبرني إذا؟ سأعود في الحال»

مكتبة الفكر الجديد

«نعم، ربما...»

لم تكن لتنسى إطلاقا ابتسامته الخجولة لدى رده على السؤال، وخرجت ليزا من الغرفة.

عندها، أمسك بالمسدس بسرعة وسرية تامة، وكأنه لص يختلس شيئا، وأخرجه من الصندوق. كان المخزن معبئاً منذ فترة ولكن تنقصه سوى طلقة واحدة/ خرطوشة واحدة.

«إذاً، كيف لي أن أفعل ذلك؟» صوب المسدس إلى صدغه وتردد بعض الشيء، لكنه ما إن تذكر ستيبانيدا وقراره بعدم رؤيتها وكفاحه وإغوائه وسقوطه وإعادة تجديد صراعه مع المسألة، انتفض مرعوباً « كلا، أعتقد أن الانتحار أفضل» وضغط على الزناد.

عندما هُرعت ليزا إلى الغرفة، سمح الوقت لها فقط بأن تنزل من البلكونة حيث رأته ممددا ووجهه على الأرض يتدفق من جرحه دم أسود دافئ وتنتفض جثته.

فتح تحقيق في الأمر، ولم يستطع أحد أن يفهم أو يشرح أسباب الانتحار، حتى أنه لم يخطر ببال عمه أن يكون السبب متعلقا باعترافات يوجين التي قالها له منذ شهرين.

أكدت فارفرة ألكسييفنا أنها لطالما توقعت هذه الخاتمة، قالت أن ذلك كان واضحاً من خلال جدالها معه. أما ليزا وماريا بافلفنا فلم يفهما سبب الانتحار إطلاقا بالإضافة إلى أنهما لم تصدقا ما قاله لهما الطبيب من أن القتيل كان يعاني من اضطراب عقلي وأنه كان شخصاً سيكوباتياً مختلا معتلا. لم تقبلا هذا التفسير جملة وتفصيلا لأنهما علمتا أن يوجين كان ذو عقل راجح وكان متفوقاً بحكمته على مئات من معارفهم.

مكتبة الفكر الجديد

وبالفعل، فلو كان يوجين أرتيوناف مختلا عقليا لكان الجميع مختلا عقليا أيضاً. لأن أكثر الناس اضطرابا هم، يقيناً، أولئك الذين يرون في الآخرين آيات تدل على الجنون لا يكتشفونها في أنفسهم.

خاتمة أخرى لقصة «الشيطان»

... قال لنفسه، وتوجه إلى المنضدة واستل مسدسا من عليها وبعد تفحصه تبين أن المخزن يفتقد طلقة/ خرطوشة واحدة. أخذ الطلقة الناقصة ووضعها في جيب بنطاله.

«يا إلهي! ماذا أفعل؟» تعجب من تصرفه وفجأة رفع يديه إلى السماء وأخذ يصلي.

«اللهم أعنّي وأنقذني! فأنت تعلم أنني لا أنوي الشر لكنني إنسان ضعيف، لا تكلني لنفسي طرفة عين. أعنّي» قال ذلك وختمه برسم إشارة الصليب على صدره وهو يواجه أيقونة المسيح.

«نعم، أستطيع ضبط نفسي، سأذهب إلى الخارج لأتمشى وأفكر مليا في الأمر»

ذهب إلى بهو المدخل وارتدى معطفه وخرج إلى الرّواق، ومن دون وعي، أخذته قدماه إلى طريق الحقل مروراً بمحاذاة الحديقة وصولاً إلى المزرعة النائية، كانت الحصادة (لدراسة الحنطة) لا تزال تعمل بطريقة روتينية وصيحات من يشغلها مسموعة بوضوح. دخل يوجين مخزن الحبوب (الإسطبل) وكانت ستيبانيدا هناك، رآها مرة، وكانت تجرف الحنطة/ الذرة/ القمح وبرؤيته بدأت تركض برشاقة ومرح وعيونها تضحك وتجرف الحنطة المتناثرة برشاقة. لم يستطع يوجين سوى

مكتبة الفكر الجديد

مراقبتها رغم أنه لم يرد ذلك، تمالك نفسه فقط عندما غابت عن المشهد، قال له الكاتب أنهم على وشك الانتهاء من دراسة الحنطة التي تم معالجتها من قبل وهذا هو سبب تأخر وضعف المحصول. ذهب يوجين إلى آلة بذر البذور (رش البذور) الذي كان يطرق عليها في بعض الأحيان لأن الحزم التي...... كانت تمر من تحته وسأل الكاتب عن عدد الحزم، حزم الحنطة المطحونة؟

«ثمة حمولة لخمس عربات»

«انظر هنا إذاً..» بدأ يوجين لكنه لم يكمل الجملة، فقد اقتربت ستيبانيدا من آلة بذر الذرة وبدأت بجرف الحنطة من تحتها وأخذت تنظر إلى يوجين فأحرقته بنظرات عيونها الضاحكة، نظرتها التي عكست المرح والحب الخالي من العقد بينهما وحقيقة أنها علمت أنه يشتهيها وأنه أتى إلى كوخها وأنها دائماً كانت مستعدة للعيش معه بمحبة وسرور بغض النظر عن التبعات أو الظروف. شعر يوجين بأنه في قبضتها لكنه لم يرغب في الاستسلام.

تذكر صلاته وحاول تكرارها، بدأ يتمتم مع نفسه لكنه شعر أن صلاته بلا فائدة، فقد طغت عليه فكرة واحدة الآن لا غير وهي كيفية ترتيب لقاء معها بحيث لا يلحظ الآخرون مجريات المناورة.

«إذا أنهينا هذه الكمية اليوم هل سنبدأ بدفعة أخرى أو ربما نؤجل الأمر ليوم الغد؟» سأل الكاتب.

«نعم، نعم» أجاب يوجين وتبع ستيبانيدا، مضطراً إلى كومة الحنطة التي اجتمع حولها نساء أخريات يعملن أيضاً.

«هل خسرت إرادتي وإلى الأبد؟ هل من المعقول أن لا أقوى على

مكتبة الفكر الجديد

التحكم بسلوكي؟ لقد هلكت! يا إلهي! لكن الإله غير موجود، لا إله بل شيطان فحسب، وهي عين الشيطان، لقد مسني الشيطان، فهي تسيطر علي سيطرة تامة، لكنني لن أستسلم، لن أستسلم، الشيطان! نعم، الشيطان»

ومرة أخرى توجه نحوها وسحب المسدس من جيبه وأطلق النار عليها مرة ومرتين وثلاث من الخلف، ركضت لبعض الخطوات وما لبثت أن سقطت على كومة الحنطة.

«يا إلهي، يا إلهي! ما هذا؟» صرخت إمرأة.

«كلا، لم يكن حادثا، قتلتها عمداً» صرخ يوجين وتابع «أرسلوا في طلب ضابط الشرطة»

ذهب إلى المنزل ودخل غرفة المكتب وقفل الباب على نفسه دون الحديث مع زوجته.

«لا تأتي إلي» صرخ من خلال الباب «ستعرفين كل شيء..»

بعد ساعة قرع الجرس وأمر الخادم قائلاً: «اذهب وتحرى عن ستيبانيدا. هل هي ميتة أم على قيد الحياة؟»

أما الخادم فقد كان على علم بجميع التفاصيل فقال له أن ستيبانيدا ماتت منذ ساعة.

«حسن، تمام، دعني وشأني الآن، انصرف، وأخبرني عندما يأتي ضابط الشرطة أو المحقق»

أتى الضابط بصحبة المحقق في الصباح التالي وأخذا يوجين إلى السجن بعد أن ودع زوجته وطفلته.

مكتبة الفكر الجديد

كان مرهقا، وخلال الأيام الأولى من المحاكمة بحضور لجنة محلفين قررت أنه يعاني من نوبة جنون مؤقتة ومن ثم عوقب بأداء كفارة للكنيسة.

أبقي عليه في السجن لتسعة شهور ومن ثم في دير لشهر واحد.

بدأ بشرب الكحول وهو في السجن واستمر في ذلك في الدير وعاد إلى المنزل واهنا مُدمنا عديم المسؤولية.

أكدت فارفرة ألكسييفنا أنها لطالما توقعت هذه الخاتمة، قالت إن ذلك كان واضحاً من خلال جدالها معه. أما ليزا وماريا بافلفنا فلم تفهما سبب القتل إطلاقا بالإضافة إلى أنهما لم تصدقا ما قاله لهما الطبيب من أن القاتل كان يعاني من اضطراب عقلي وأنه كان شخصاً سيكوباتياً مختلا معتلا. لم يقبلا هذا التفسير جملة وتفصيلا لأنهما علمتا أن يوجين كان ذو عقل راجح وكان متفوقاً بحكمته على مئات من معارفهم.

وبالفعل، فلو كان يوجين أرتيوناف مختلا عقليا لكان الجميع مختلا عقليا أيضاً. لأن أكثر الناس اضطرابا هم، يقيناً، أولئك الذين يرون في الآخرين آيات تدل على الجنون لا يكتشفونها في أنفسهم.

انتهى

مكتبة الفكر الجديد

في أعقاب الحفلة الراقصة

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

«إذن أنت تقول إن المرء لا يستطيع بمفرده فهم ماهية الخير أو الشرّ وأن الأمر مرتبط بالبيئة إذ يقع المرء ضحية البيئة التي يعيش فيها. لكنني أعتقد أن الأمر برمته متعلق بالحظ، دعني أخبرك عن نفسي قليلاً».

هكذا بدأ إيفان فاسيليفيتش الذي كنا نحترمه جميعاً الحديث بعد محادثة كنا قد ناقشنا فيها محاولة بلوغ الكمال الفردي والحاجة المنطقية المسبقة إلى تغيير الظروف التي يعيش فيها الناس. ولم يقل أحد في واقع الأمر أن المرء لا يستطيع بمفرده أن يفهم الخير والشر لكن إيفان فاسيليفتش دأب في مثل هذه المواقف على الاستجابة للأفكار التي كانت تجول في خاطره هو خلال المحادثة مستخدما تلك الأفكار كذريعة لسرد بعض فصول حياته. وغالبا ما كان السّرد يستحوذ عليه لدرجة أنه ينسى السبب الذي دفعه لقول ما يقول لاسيما أنه يقص الروايات بصدق وإخلاص عجيبين، وهذا ما كان يقوم به الآن.

«سأخبرك عن نفسي قليلا، تشكلت حياتي على ما هي عليه الآن ولم تتشكل على نحو آخر ليس بسبب البيئة بل بسبب شيء مختلف تماماً»

«ما هو؟» سألناه جميعاً

«تلك قصة طويلة، ولكي تفهمونها ينبغي عليّ سرد تفاصيل كثيرة»

مكتبة الفكر الجديد

«انطلق إذاً واسرد لنا القصة»

بدأ إيفان في التفكير، وهزّ برأسه يمينا ويساراً، ثم قال «نعم، تغيّرت حياتي برمتها بسبب ليلة واحدة أو بالأحرى، صباح واحد»

«ماذا حصل؟»

«ما حصل هو أنني وقعت في الغرام حتى النخاع، وقعت في الهيام مرّات عديدة من قبل لكن تلك المرّة مثلت الحب الأعمق في حياتي. مضى على الحادثة زمن طويل الآن.... فالمرأة الآن متزوجة ولديها بنات متزوجات أيضاً، كان اسمها باء، نعم فارينكا باء........ (ذكر لقبها أيضاً) حتى في عمر الخمسين كانت إمرأة حسناء جميلة على نحو يثير الدهشة. أما في ربيع الشباب أي في عمر الثمانية عشر، فقد كانت فاتنة ساحرة رشيقة حلوة الشمائل طويلة النجاد ذات جسد نضر وجلال وبهاء تلفت أنظار الجميع. وقد كانت واثقة الخطوة تمشي منتصبة القامة تدفع برأسها شيئاً قليلاً إلى الوراء وهذا بحد ذاته بالإضافة إلى جمالها الأخاذ وطولها أضاف صبغة ملكية على تألقها. هذا التألق الملكي كان يمكن أن يخيف الناس ويدفعهم بعيدا عنها، رغم كونها نحيفة لا يكتسي جسدها أي لحم، لولا ابتسامتها الدائمة اللطيفة البهيجة وعيونها البراقة المتلألئة الساحرة وشبابها المفعم بالحياة.

«يا إلهي كيف يرسم إيفان فاسيليفيتش هذه الصورة» علق أحدهم.

«حسن، بغض النظر عن كيفية رسمها، فمن المحال رسمها بطريقة تستطيع أن تفهم من خلالها حقيقة جمال تلك الفتاة، لكن ذلك لا يهم، ما وددت قوله هو إن القصة حصلت في الأربعينات. فعندما كنت طالبا

مكتبة الفكر الجديد

في جامعة ريفية، لا أدري إن كان وجود نظريات وحلقات[1] في جامعتنا قد يشكل فكرة سديدة أو العكس، لكن لم يكن لدينا أي حلقات أو أي نظريات في تلك الفترة في جامعتنا..... بل كنا شبانا وشابات نستمتع بفترة الشباب، إذ كنا ندرس وكنا سعداء. كنت شابا مفعما بالنشاط سعيدا وثريا أيضاً. وكان لدي حصان رائع وكنت أمارس لعبة التزحلق على الهضاب مع الفتيات (التزلج كما نعرفه اليوم لم يكن موضة حينها) وكنت أتجول مع رفاقي (لا نشرب سوى الشمبانيا في ذلك الوقت: وإذا لم يكن بحوزتنا المال كنا نتوقف عن الشراب بما في ذلك شرب الفودكا التي يهيم بها الناس الآن). وكنت استمتع بالحفلات الساهرة الراقصة أكثر من أي شيء آخر. كنت راقصاً ماهراً ولم أكن دميم الخلقة. قاطعته إحدى السيدات الشابات قائلة «حسن، لا سبب يدعو للتواضع، فلقد رأينا صورتك القديمة[2]. فأنت لم تكن قبيحاً بتاتاً بل وسيما جداً في شبابك».

بغض النظر عن وسامتي، فالمهم هو أنني كنت في وقت هيامي العميق وحبي المجنون مدعواً لحفلة راقصة في اليوم الأخير من الأسبوع

---

(١) الحلقات والنظريات: كانت فترة الأربعينات من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ فترة ريانة بـ«الحلقات» التي يجتمع فيها طلاب ذوو توجه فلسفي يناقشون فيها مذهب المثالية الألمانية (شيلينغ وهيجل وفيتشه) واليوطوبيا الاشتراكية الفرنسية. تلك الفلسفات وقدرتها على بث روح «التفكير الحرّ» لا سيما طرح الأفكار التي تشكل بديلا للحكم القائم آنذاك كانت تعتبر مناوئة لحكم الرجل الواحد (الأوتوقراطي نيقولاي الأول الذي أقفل عام ١٨٤٨ جميع أقسام الفلسفة في الجامعات الروسية).

(٢) هذا النوع من الصور (يطلق عليه اسم داغيروتيب) اخترعه لويس داغير في القرن التاسع عشر وهي ذات خلفية فضية تشبه المرآة (المترجم)

مكتبة الفكر الجديد

الذي يسبق الصوم الكبير[١] في منزل مارشال المقاطعة، الرجل الطيب اللطيف الثري المضياف حاجب الإمبراطور[٢]. كانت زوجته الطيبة تستضيف الناس وهي ترتدي ثوباً مخملياً أرجوانياً وتضع على رأسها تاجاً من قماش مرصع بالألماس كاشفة عن صدرها المكتنز وكتفيها العريضين الأبيضين وصدرها كما في صور يليزافيتا بيتروفنا[٣].

كانت الحفلة رائعة والقاعة جميلة خصوصاً بوجود الكورال وأوركسترا مؤلفة من الخدم الذين كانوا مشهورين في تلك الفترة يقودهم موسيقي هاو. أما المائدة فقد كانت حافلة بما لذ وطاب وسيل متدفق من الشمبانيا. لم أشرب هناك لأنني كنت ثملا بالحب قبل وصولي ولكن لأعوض عدم شرابي رقصت ورقصت ورقصت حتى النهاية. رقصت الكادريل والفالس والبولكا مع فارينكا قدر الإمكان. كانت تلبس فستانا مع وشاح زهري وقفازات بيضاء لم تصل إلى مرفقيها البارزين النحيفين وحذاء أبيض من الساتان.

سُرقت مني رقصة المازوركا، إذ طلب مهندس عدواني كريه يُدعى أنيسيموف مراقصتها بمجرد وصولها بعد تأخري قليلاً بسبب ذهابي إلى الحلاق وتوقفي لشراء قفازات. لن أغفر له ذلك ما حييت. لم أرقص المازوركا معها بسبب تأخري لكنني أكملت الرقصة مع فتاة ألمانية شابة كنت قد تعرفت عليها في مناسبة أخرى سابقا. لكنني أخشى القول أنني

---

(١) أسبوع المرفع: الأسبوع الذي يسبق الصوم الكبير بحيث يصوم المؤمنون عن اللحم ولا يصومون عن مشتقات الحليب. أما أثناء الصوم الكبير فيصوم المؤمنون عن تناول اللحم ومشتقات الحليب على حد سواء.

(٢) الساعد الأيمن للإمبراطور ومن ينوب عنه في غيابه. (المترجم)

(٣) إمبراطورة روسيا (١٧٤١ ـ ١٧٦١)

مكتبة الفكر الجديد

لم أكن لطيفاً معها في تلك الأمسية. فلم أحادثها ولم أنظر إليها لأنني كنت أرى ذلك القوام الطويل والجسد الرائع والفستان الأبيض الموشح بشال زهري. كنت أرى فقط ذلك الوجه المضيء وغمازات الوجنتين وتلك العينان الحانيتان اللطيفتان العزيزتان على قلبي. لم أكن الوحيد الذي كان يفترسها بنظراته بل كان الجميع يرمقها بنظرات الإعجاب، الرجال والنساء على حد سواء فتفوقها شكلا ومضمونا على جميع النساء، جعلها محطّ أنظار الجميع بالفعل، ولم يستطع المرء سوى الإعجاب بها.

لم أرقص رقصة المازوركا معها رسميا لكنني في واقع الحال رقصت معها تلك الرقصة في جميع الأوقات تقريبا. من دون أي إحراج، قطعت القاعة بأكملها متجهة نحوي فقفزتُ من دون انتظار الدعوة فشكرتني مع ابتسامة لتفهمي نيتها في دعوتي للرقص. وعندما تأهبنا للانضمام إلى الرقصة اقتربت وفشلت في تحديد قدراتي[1]. هزت بكتفيها ومدت يدها إلى شخص آخر. وعندما استُبدل راقصوا الفالس براقصي المازوركا انطلقتُ لمراقصتها. راقصتها الفالس لفترة طويلة بينما كانت تلهث وتنفث بأنفاسها في صدري مبتسمة وتقول «هل من مزيد». رقصت ورقصت معها لدرجة أنني لم أشعر بجسدي وآلامه إطلاقاً.

قال أحد الضيوف «كيف يمكنك أن لا تشعر بجسدك كما تدّعي؟

---

(١) قدراتي: هو طقس متبع في اختيار الشريك ويتطلب الكشف عن «القدرة» الراسخة أصلا للراقص المعني. وهذا شيء شبيه باسم رمز سري قائم على الفضيلة أو الرذيلة في الشريك المحتمل.

مكتبة الفكر الجديد

أعتقد أنك شعرت به تماماً بل شعرت بجسدها أيضاً عندما وضعت ذراعيك على وسطها لدى مراقصتها».

شعر إيفان بالخجل فجأة، تورد وجهه واستشاط غضبا وبدأ يتحدث بنبرة عالية أشبه بالصراخ «هكذا أنتم شباب اليوم، لا تهتمون سوى بالجسد ولا ترون شيئاً سواه. في أيامنا تلك، كان الوضع مختلفا، كلما تعمق الحب أصبح جسدها أقل أهمية بالنسبة لي. لكنكم في أيامكم التعيسة هذه تركزون على السيقان والكواحل وما خفي أعظم. تعرُّون المرأة التي تقعون في غرامها. أما بالنسبة لي فالوضع مختلف، فكما قال ألفونسو كار[١]، وهو كاتب رائع، الشيء الذي أحبه يرتدي دائماً رداء مصنوعا من البرونز، لم نحاول فقط ستر نسائنا بل حاولنا أن نغطي على عريهن كما فعل ابن نوح الصالح[٢] مع أبيه. لكنكم لا تفهمون».

قال أحد المستمعين «لا تصغوا إليه، ماذا في جعبتك بالإضافة إلى ما قلته؟»

نعم، رقصت معها ولم ألحظ كيف مرّ الوقت بنا، ومع تفشي التعب

---

(١) صحفي وروائي فرنسي (١٨٠٨ ـ ١٨٩٠). جمعت أعماله بين رهافة الحس واتقاد العقل والذكاء. خُلِّد اسمه بسبب قصيدته القصيرة المشهورة التي عكست روح الثورات عام ١٨٤٨ وعنوانها: «كلما تغيرت الأمور بقيت على حالها» (plus ca change, plus c'est la meme chose) ربما قد يترجم عنوان القصيدة بالمقولة العربية المشهورة «يقيت دار لقمان على حالها» (المترجم)

(٢) ابن نوح الصالح: أصبح نوح مزارعاً بعد الطوفان. وقد كان يزرع الكروم، بالإضافة إلى زراعة أشياء أخرى. وفي يوم من الأيام شرب من نبيذ كرمه حتى الثمالة وتمدد عاريا في خيمته. رأى ابنه حام هذا المشهد وأخبر به أخويه سام ويافث. فدخل الأخيران خيمته مدبرين لكي لا يروا عورة أبيهم وغطياه برداء طويل (الإصحاح ٩ : ٢٠ ـ ٤). وهكذا فقد كان الابن الصالح ابنان وليس ابناً واحداً كما يؤمن إيفان فاسيليفيتش.

مكتبة الفكر الجديد

والإجهاد كما يحصل عادة في نهاية الحفلات الراقصة، استمر العازفون بإعادة معزوفة المازوركا ذاتها وبدأ الآباء والأمهات بالنهوض من على طاولات لعب الورق وغادروا قاعة الإستقبال لتناول طعام العشاء. وبدأ الخدم بالحركة الدؤوبة يحملون الأطباق. كانت الساعة تشير إلى الثالثة فجرا. وكان علي استغلال اللحظات القليلة المتبقية، فاخترها مرة أخرى ورقصنا حول الغرفة للمرة المئة.

«هل لي أن أرقص معك رقصة الكادريل بعد العشاء؟» سألتها وأنا أصحبها إلى مكان جلوسها.

«بالطبع، إذا لم يخطفني أحدهم بالطبع» أجابت وهي تبتسم.

«لن أسمح لهم»

«هات مروحتي»

«آسف لاضطراري إعادتها إليك» أجبت وأعدت لها المروحة البيضاء الرخيصة.

قطعت ريشة من المروحة وقدمتها لي وقالت «هذه لك لكي لا تشعر بالأسف»

«أخذت الريشة وطغت على أساريري نفحات من السعادة القصوى والامتنان. لم أكن أشعر بالرضا فحسب بل شعرت بالسعادة والبركة. كنت كما لم أكن من قبل. فقد تحولت إلى إنسان صالح لم ير الشرّ في حياته وكأنني ملاك لا أنتمي إلى تراب هذه الأرض. لم يكن بمقدوري سوى فعل الخير، أخفيت الريشة في قفازي ووقفت على قدماي ولم أقوى على مفارقة جميلتي»

«انظر، النساء يطلبن من أبي مراقصتهن» قالت لي بينما كانت تشير

مكتبة الفكر الجديد

إلى شخص جليل طويل القامة ذو قوام متين برتبة عقيد كان يقف على الباب مع المضيفة وسيدات أخريات.

«فارينكا، تعالي» سمعنا صوت مضيفتنا بتاجها القماشي المرصع بالألماس وكتفاها النحيفان اللذان يشبهان كتفي الإمبراطورة يليزافيتا بيتروفنا. توجهت فارينكا نحو الباب وتبعتها «ابنتي العزيزة، اقنعي والدك ليرقص معك الآن، أرجوك، بيتر فلاديسلافيتش» توجهت المضيفة بكلامها الأخير إلى العقيد.

كان والد فارينكا رجلاً وسيما جداً طويلاً وقوراً جليلاً، وجهه متورد يكسو صدغيه شعر أملس ممشط ذو شارب شائب أبيض ملفوف على الطرفين، كشارب نيقولاي الأول[1]، يلتقي مع سالفيه الأبيضين على الجانبين. أما نظراته فكانت لطيفة كنظرات ابنته وابتسامته براقة متلألئة جميلة كابتسامتها أيضاً، ذو قوام رائع وكتفان صلبان وساقان طويلتان منحوتتان بعناية وصدر واسع تزينه بعض الأوسمة مشرئب كما لو أنه في أكاديمية عسكرية. فقد كان قائدا عسكريا من الطراز الرفيع مخضرم في قواعد الانضباط التي طغت على حقبة نيقولاي الأول.

عندما اقتربنا من الباب كان العقيد يرفض فكرة الرقص لأنه نسي كيف يقوم المرء بذلك كما زعم، ولكنه ابتسم بعدها وأشاح بذراعه إلى اليسار واستل سيفه من غمده وأبقاه في عهدة شاب قريب منه وبعد أن رتب قفازه السويدي على يده اليمنى قال مبتسماً «كل شيء وفقاً

---

(١) نيقولاي الأول: حاكم روسيا (١٨٢٥ ـ ١٨٥٥) المطلق الذي ارسى دعائم حكم عسكري صلب صبغ ايقاع ومزاج وشكل تلك الفترة من عمر روسيا القيصرية.

مكتبة الفكر الجديد

للقواعد»، وأخذ بيد ابنته ووقفا في المربع الخاص في انتظار بدء المعزوفة.

«وحين بدأت موسيقى المازوركا، تقدم بذكاء بخبطة قدمه اليمنى محركا اليسرى إلى الأمام بادئاً بسلاسة ولطف ومن ثم بصخب وسرعة في أرجاء القاعة ضاربا بنعل حذائه الطويل الأرض بقدميه واحدة تلو الأخرى، تبعت فارينكا حركات والدها بإيقاع متزامن وخطوات دقيقة قصيرة تارة وطويلة تارة أخرى ناقلة قدميها بلطف محركة جسدها برشاقة وأناقة ومبرزة حذاءها الأبيض المغلف بقماش الساتان. تابع من في القاعة خطوات الوالد وابنته بشغف واهتمام كبيرين. لم أعجب بهما فقط بل تحركت مشاعري وطغت علي سعادة كلما نظرت إليهما. ما حركني على وجه الخصوص هو حذاء الوالد الطويل المربوط برباط دقيق والمصنوع من جلد العجل. ليس المروس الذي يرتديه الضباط في هذه الأيام باتباعهم الموضة بل ذو الطراز القديم المربع من الأمام والذي يخلو من الكعب. بالطبع صنع الحذاء على يد سكافي الكتيبة لكي يشترى أبهى الملابس لفتاته المفضلة ويدفعها للمشاركة في أوساط المجتمع المخملي، كان عليه أن يرتدي هذا الحذاء قديم الطراز ولا يجازف في اتباع الموضة» فكرت في ذلك وقد أثار إعجابي تصميم حذائه لا سيما مقدمته المربعة.

كان واضحاً أنه كان راقصاً ماهراً في مرحلة سابقة لكنه الآن أصبح بديناً ولم تستطع ساقاه مساعدته على الاستمرار في الخطوات الرشيقة السريعة التي كان يحاول أدائها. ورغم ذلك استمر بالرقص وجاب القاعة مرتين بمهارة. وبعد أن ثبت قدميه بسرعة على نحو متباعد ضمهما مرة

مكتبة الفكر الجديد

أخرى بصعوبة وسقط على ركبته وبعد أن عدلت ابنته من تنورتها مع ابتسامة بسبب امساكه بطرفها التفت حوله وعانقته بلطف مما حدا بالمتفرجين إلى التصفيق بحرارة. وبعد أن وقف بشيء من الصعوبة أمسك برأس ابنته بحنان وحب وقبل جبينها وأتى بها إلي معتقدا أنني كنت أرقص معها قبل أن يأتي، فقلت له أنني لم أكن شريكها في رقصة المازوركا.

«لا يهم، أرقص معها الآن» قال وهو يبتسم واضعا سيفه في غمده من جديد.

وكما يحصل بعد قطرة الشمبانيا الأولى التي يتبعها تدفق لجداول منها تدفقت إمكانات الحب المكنونة في روحي وتجلت كجداول من الحب الروحي لفارينكا. أحببت المضيفة ذات التاج الألماسي والصدر المكتنز كصدر ييليزافيتا بيتروفا وأحببت زوجها وضيوفها وخدمها حتى أنني أحببت المهندس أنيسيموف الذي بدأ يخالجه الآن شعور بالغيظ تجاهي. شعرت أيضاً في تلك اللحظة بشعور بالحنان واللطف تجاه فارينكا ووالدها اللذان كانا يبتسمان طيلة السهرة. أعجبت بحذائه الطويل أيما إعجاب.

«انتهت رقصة المازوركا ودعا المضيف والمضيفة الزوار إلى العشاء، لكن العقيد رفض وقال إن عليه الاستيقاظ باكراً في الصباح. ومن ثم استأذن وغادر المكان. خشيت أن تغادر فارينكا أيضاً لكنها بقيت مع أمها»

«رقصت معها رقصة الكادريل التي وعدتني بها بعد العشاء ورغم أنني بدوت سعيدا حتى الثمالة إلا أن منسوب سعادتي كان يرتفع أكثر

مكتبة الفكر الجديد

فأكثر. لم نتحدث عن الحب. ولم أسألها إن كانت تحبني أو لا. فقد كان كافيا أن أحبها. لكنني خشيت أن يعكر مزاجي وصفو حبي أمر ما».

«عندما وصلت إلى البيت، خلعت ملابسي وبدأت في التفكير بالنوم لكن النوم لم يتصالح معي بتاتا في تلك الليلة. كنت أمسك بيدي الريشة التي قدمتها لي من مروحتها والقفاز الذي أعطتني إياه لدى مغادرتها عندما كانت تهم بالصعود إلى العربة وساعدت أمها على الجلوس ومن ثم ساعدتها. تمعنت في تلك الأشياء واجتاحت صورتها مخيلتي وقفزت أمامي من دون أن أغلق عيناي وكان عليها أن تختار من بين شريكين لمراقصتها وفي تلك اللحظة حاولت أن تخمن مستوى قدراتي لمراقصتها ومن ثم اقتربت مني وبصوتها الرائع قالت «كبرياء، صحيح» وقدمت لي يدها بسعادة. والآن وبعد العشاء ولدى ارتشافها لكأس الشمبانيا كانت تنظر إلي بعينيها الحنونتين وكأنها لا تثق بي. لكن المشاهد التي طغت علي كانت مرتبطة برقصها مع أبيها ملتفة حوله بلطف وهي تجوب القاعة وتنظر إلى المتفرجين المعجبين نيابة عن أبيها أيضاً. وبينما وعلى نحو غير واع ربطت بينهم جميعاً شعرت بمشاعر الحنان واللطف».

كنت أعيش في تلك الفترة مع أخي المتوفى الآن، وفي العموم، لم يكن يكترث أخي بالمجتمع وحفلاته الراقصة، بالإضافة إلى أنه كان يحضر لاجتياز الاختبارات النهائية للتخرج من الجامعة وكان يعيش حياة عادية تماما. كان نائما في تلك اللحظات وكنت أنظر إلى رأسه المدفون في الوسادة والمغطى نصفه بالبطانية وبدأت أشعر بالأسى والحب والتعاطف معه لأنه لم يكن يشعر بالسعادة التي كنت أشعر بها.

مكتبة الفكر الجديد

أتى خادم أسرتنا بيتروشا حاملا شمعة وأراد مساعدتي في نزع الملابس لكنني لم أسمح له. فرؤية وجه أخي النائم وشعره الأشعث أثر في تأثيراً كبيراً. حاولت أن لا أثير ضجيجاً، فمشيت على أطراف أصابعي باتجاه غرفتي وجلست على سريري. كلا، لم أستطع النوم فقد كنت في غمرة من السعادة القصوى. بالإضافة إلى أنني كنت أشعر بالحرارة في الغرفة الدافئة وعوضا عن نزع ملابسي ذهبت إلى الردهة وارتديت معطفي الشتوي وفتحت الباب الأمامي وخرجت إلى الشارع بهدوء.

غادرت الحفلة بعد الرابعة صباحاً ولبثت في منزلي ساعتين تقريبا وعندما غادرت كان الفجر قد انبلج والضوء قد شع. كان الطقس متسقا مع السنوات السابقة في أسبوع المرفع. فقد عمّ الضباب وذاب الثلج المشبع بالماء على الطرقات وتسربت المياه من أسطح المنازل. في تلك الفترة، كانت تعيش عائلة فارينكا في أطراف البلدة بالقرب من حقل واسع من جهة، كان يخصص أحيانا للطوابير العسكرية، ومدرسة خاصة داخلية للبنات من الجهة الأخرى. قطعت شارعنا المهجور وانتقلت إلى الشارع الرئيسي حيث شاهدت بعض الرّكاب وسائقي العربات المثقلة بالحطب لدرجة احتكاك مزلقاتها بأرضية الشارع. والأحصنة التي تحرك برؤوسها المبتلة على نحو متناغم وسائقي عربات الأجرة يهدرون بجانب عرباتهم مرتدين أحذيتهم الضخمة، أما المنازل على الشارع فقد بدت شاهقة بسبب الضباب. كل ذلك بدا لي رائعاً وذو مغزى.

عندما وصلت إلى الحقل بجانب منزلهم رأيت شيئاً ضخما أسود في نهايته في اتجاه أرض الطوابير العسكرية ومن هناك سمعت أصوات طبل

مكتبة الفكر الجديد

وناي. كانت روحي طوال الوقت لا تزال هائمة بالأغنية ولحن المازوركا كان يطن في أذني من حين إلى آخر. لكن هذا الصوت كان نوعا آخر من الموسيقى القاسية والجافة وغير المريحة.

ما هذا؟ فكرت في نفسي وأنا متوجه إلى مصدر الصوت على طول الممر الزلق المرغ في منتصف الحقل. وبعد أن قطعت مئة خطوة تقريبا، بدأت أرى من خلال الضباب بعض الأشخاص السود. جنود، بالطبع «ربما مناورات» فكرت في نفسي ثم تقدمت وأمامي حداد كان يرتدي مريلة ملطخة ومعطف من جلد الخراف ويحمل شيئاً في يده. تحركت بسرعة ورأيت طابورين من الجنود يرتدون ثيابا سود يقفون مقابل بعضهم البعض واضعين بنادقهم على أقدامهم من دون أن يحركوا ساكنا، ووقف خلفهم عازف طبل وعازف ناي كانا يكرران من دون انقطاع النغمة المقززة المرعبة ذاتها.

«ماذا يفعلون؟» سألت الحداد الذي كان يقف بجانبي.

«يضربون شخصاً تتري بسبب هروبه من الجيش» أجاب الحداد وهو غاضب ونظر عن قصد إلى نهاية الطابور.

بدأت أنظر في نفس الاتجاه ورأيت بين الصفوف شيئاً فظيعا يتجه نحوي، كان هذا الشيء رجلاً منزوع الملابس من نصف جسده الأعلى مربوطاً ببندقيتين لجنديين كانا يقودانه. وعلى جنبه يمشي ضابط يعتمر قبعة ويلبس معطفا. يبدو وأن الضابط ليس غريبا علي. كان الرجل ينتفض من رأسه إلى أخمص قدميه وكانت قدماه تغرقان في الثلج الذائب تحتهما وكان يتعرض للكمات من كل اتجاه. بدأ الرجل الذي تعرض للعقوبة بالاتجاه نحوي بينما كان الجنديان يشدانه إلى الوراء

ويدفعانه بقسوة إلى الأمام. إما الرجل الطويل الذي كان بمحاذاته فلم يتركه البتة، بل كان يمشي بخطوات ثابتة، عرفت الرجل، لقد كان أباها بوجهه المتورد وشاربه الأبيض وعارضاه الجانبيان.

ومع كل لكمة، كان كأنه مندهش، كان الرجل يشيح بوجهه باتجاه اللكمة التالية كاشفا عن أسنانه البيضاء مكرراً بعض الكلمات، فهمت تلك الكلمات فقط عندما اقترب مني. لم يكن يتفوه بتلك الكلمات بل كان ينوح بها «أرحموني أيها الشباب، أشفقوا علي أيها الشباب». لكن الشباب لم يرحموه، فبينما اقترب الموكب أكثر فأكثر رأيت جنديا ينهال بعصاه ضربا على المسكين ويوجه الضربات على ظهره. سقط التتري إلى الأمام لكن ضباط الصف أمسكوا به، وانهال عليه آخر بعصا أخرى من الجهة المقابلة ثم الجهة الأخرى وهكذا دواليك. كان العقيد لا يزال يمشي بمحاذاته، نظر إلى قدميه ثم إلى التتري ثم استنشق دفعة من الهواء عميقا زفرها من خلال شفتيه الممشوقتين ببطء بعد أن نفخ وجنتيه. بعدها مرّ الموكب من أمامي ورأيت ظهر الرجل المضروب بين صفوف الجنود. كان ظهره رطبا غير طبيعي تلون بألوان مختلفة لدرجة أنني لم أصدق أن ظهرا كهذا ينتمي إلى بشر.

«يا إلهي» قالها الحداد الذي كان يقف بجانبي.

بدأ الموكب يبتعد رويداً رويدا لَكن الضربات واللكمات توالت بلا انقطاع من الجانبين مصحوبة بالعزف على الناي والقرع على الطبل. أما صاحبنا العقيد فلم يغير من ايقاع خطواته في مشيته بجانب المسكين. توقف العقيد فجأة وأسرع باتجاه أحد جنوده وصرخ في وجهه «سأعلمك كيف تكون متساهلا معه، هل تساهلت معه؟ هل فعلت؟»

مكتبة الفكر الجديد

«ورأيته يلطم الجندي الخائف الضعيف السقيم في وجهه بقوة يده ذات القفاز السويدي لأن الجندي لم يضرب ظهر التتري بالقوة اللازمة بعصاه».

«أحضر لهم حزمة من عصي الخيزران الجديدة!» صرخ العقيد ونظر حوله والتقت عيناه بعيناي. تظاهر بعدم معرفتي واستدار بسرعة غاضبا مقطب الحاجبين. شعرت بالخجل وكأنه ألقى القبض علي متلبسا بجريمة دنيئة تجلب العار ولم أدري أين أتوجه بنظراتي. أطرقت وذهبت إلى البيت على الفور. وعلى طول الطريق المؤدي إلى المنزل لم يغادر ذلك المشهد مخيلتي ولم تغادر أصوات الطبل والناي أذني. وصوت الشاب وهو يصرخ «ارحموني أيها الشباب» من جهة وصوت العقيد «هل تساهلت معه؟ هل فعلت؟؟» من جهة أخرى. شعرت بالأسى في أعماق قلبي لدرجة أنني شعرت بالغثيان بحيث توقفت عدة مرات شعرت خلالها أنني على وشك التقيؤ بسبب ذلك الرعب الذي اجتاحني من جراء ذلك المشهد. لا أتذكر كيف استطعت الوصول إلى المنزل والخلود إلى النوم. ولكن ما إن وضعت رأسي على الوسادة حتى استذكرت شريط الحدث برمته واستيقظت مجددا.

«من الواضح أنه يعلم شيئاً لا أعلمه» فكرت وصورة العقيد لا تبرحني «لو كنت عالما بما علم لتفهمت المسألة وتجاوزت بالتالي العذاب الذي يعتصرني». ولكن بغض النظر عن محاولات التفكير مليا في الأمر إلا أنني لم أستطع أن أفهم ما كان يخفيه العقيد واستطعت فقط أن أخلد إلى النوم في المساء بعد أن ذهبت قبلها إلى صديق عاقرت عنده الخمر حتى الثمالة.

مكتبة الفكر الجديد

«هل تعتقدون إذا أن الحالة التي اعترتني بسبب فداحة ما رأيت كانت مرتبطة بوقت حدوث الحدث فحسب؟» كلا على الإطلاق «إذا كان الجنود والعقيد قد قاموا بما قاموا به بطمأنينة تثير العجب واعتقدوا أن ذلك واجب عليهم، هذا يوحي بأنهم يعرفون شيئاً لا أعرفه. فكرت في ذلك وحاولت أن أكتشف ما غاب عني. وبالرغم من تكرار المحاولات المضنية لم يكن بمقدوري اكتشاف ما غاب عني من الأسباب التي دفعتهم للقيام بتعذيب التتري. وبما أنني لم أستطع التوصل إلى حل، لم أستطع أن التحق بخدمة العلم كما رغبت بذلك سابقاً. وهكذا لم أخدم في الجيش ولا في الخدمة المدنية وكنت وما زلت شخصاً لا يقدم ولا يؤخر كما ترون».

قال أحدنا «حسن، نحن على علم بأنك عديم الفائدة، من الأفضل لك التحدث عن أولئك الذين أصبحوا عديمي الفائدة بسببك»

«هذا هراء محض» أجاب إيفان فاسيليفيتش وهو حانق أشد الحنق.

سألناه بعدها «وماذا عن غرامك ومحبوبتك؟»

«حبي؟ بدأ حبي يذبل منذ ذلك اليوم، فعندما كانت تغرق في التفكير راسمة ابتسامتها المشعة على شفتيها كنت أستذكر على الفور العقيد وما فعله في ذلك اليوم البشع، حيث يصبح الجو غير حسن وغير مريح بالنسبة لي وهكذا بدأت أراها أقل فأقل. وأخيراً انتهى حبي لها. وهكذا تجري الأحداث وتتزاحم. وذاك هو الشيء الذي قد يحصل ليغير من حياة المرء برمتها ويعيد توجيه بوصلتها. وأنتم تقولون......»

وهكذا أنهى حديثه.

مكتبة الفكر الجديد

الأب سيرغيه

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

I

في عقد الأربعينات من القرن التاسع عشر حدث أمر غريب في بطرسبورغ، إذ كان الجميع يتوقع لأحد الضباط المنتمين إلى حرس الفرسان ذوي الدروع[١]، الذي كان أميراً وسيماً، أن يتقلد منصب المعاون الشخصي للإمبراطور نيقولاي الأول وأن يتمتع بمسار وظيفي باهر. لكن الذي حدث هو أنه استقال من الخدمة وفك ارتباطه بخطيبته الحسناء التي كانت الفتاة المفضلة لدى الإمبراطورة، وتبرع بملكيته (العزبة الصغيرة) إلى أخته وانسحب من الحياة العامة وزهد الدنيا لينضم إلى دير للرهبان ويصبح راهباً، وقد بدا ذلك أمراً غريباً واستثنائياً لا يمكن تفسيره من قبل أولئك الذين لم يدركوا دوافعه الداخلية. لكن الأمير ستيبان *كاساتسكي* يرى أنه تصرف تصرفاً طبيعياً ولم يكن أمراً غريباً بالنسبة له، فانتقاله إلى الدير كان أمراً عادياً يجب أن يحصل.

كان ستيبان يبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة عندما توفي والده الذي كان عقيدا متقاعدا في الحرس الإمبراطوري، وكان ينوي قبل وفاته إرسال ابنه إلى الأكاديمية العسكرية، ونزولا عند رغبة الوالد قامت والدة

(1) Cuirassiers from French *cuirassier*, were cavalry equipped with armour and firearms, first appearing in late 15th-century Europe. This French term means "the one with a cuirass" (*cuirasse*), the breastplate armour which they wore.

مكتبة الفكر الجديد

ستيبان بإرساله إلى الأكاديمية رغم أسف وحزن الأم وولدها. لكن الأم وابنتها *فارفارا* انتقلتا حينها إلى بطرسبورغ كي تبقيا بالقرب من ستيبان ليسهل عليه زيارتهما في العطل.

تميز الولد بقدراته المبهرة وثقته القوية. وتفوق بذلك على جميع أقرانه في الدراسات النظرية لاسيما في الرياضيات التي أحبها، كما تميز في التدريبات العملية لاسيما ركوب الخيل. ورغم طوله الذي فاق المعدل الطبيعي إلا أنه كان رشيقا ووسيما وكان بإمكان أن يصبح المجند/ الطالب المثالي لولا عصبيته وانفعالاته السريعة. لقد كان نزيها إلى أبعد الحدود ولم يكن خليعا أو فاسقا أو مدمنا على الخمر. أما الشوائب التي أثرت سلبا على سلوكه فكانت نوبات الغضب التي كانت تعتريه حيث لم يكن باستطاعته أن يكظم غيظه أو يضبط نفسه، بل كان يتحول إلى حيوان هائج جامح. ففي أحد الأيام كان على وشك أن يرمي بأحد الطلاب من النافذة لأن الأخير أزعجه بإلحاحه على أمر يتعلق بمجموعة المعادن التي جمعها. وفي مناسبة أخرى، استشاط غضبا ورمى بماعون الكستلاتة (شرائح لحم) في وجه ضابط كان يعمل حارسا وهجم عليه، وقيل إنه لكمه أيضاً بسبب اقترافه الكذب بوقاحة وعدم إيفائه بوعد كان قد قطعه على نفسه. كان سيفقد رتبنه العسكرية بسبب تلك الحادثة لولا تدخل مدير الأكاديمية وتكتمه عليها وفصله للضابط الحارس.

وعند حلول ميلاده الثامن عشرانضم *ستيبان كاساتسكي* إلى كتيبة الحرس الأروستقراطية برتبة ملازم.

لفت *كاساتسكي* نظر الإمبراطور نيقولاي بافلافيتتش (الأول) بينما

مكتبة الفكر الجديد

كان لايزال في الأكاديمية، واستمر الإمبراطور بالسؤال عن أحواله بعد انتقاله إلى الكتيبة. وفي تلك الفترة بالذات توقع الناس تعيين *كاساتسكي* كمعاون شخصي للإمبراطور، حتى أن *كاساتسكي* نفسه كان يرغب في ذلك رغبة شديدة لا لطموح شخصي أراد تحقيقه بل لأنه كان مخلصاً ومتفانياً ويدين بالولاء بشغف لنيقولاي بافلافيتش منذ أيام الأكاديمية. فقد كان الإمبراطور يدأب على زيارة الأكاديمية، وفي كل مرة كان يزور فيها نيقولاي ذو القامة الطويلة والصدر الواسع والمعطف العسكري والخطوات المتسارعة والأنف المعقوف والصوت الجهوري والعارضان القصيران والشاربان العظيمان، في كل مرة كان يتحدث الإمبراطور مع طلبة الأكاديمية كان كاساتسكي يشعر بسعادة قصوى، الشعور ذاته الذي طغى عليه عندما وقع في غرام محبوبته. بالفعل، فقد كان إعجابه الشغوف بالإمبراطور أكثر قوة ربما من حبه لفتاته، لأنه رغب في التضحية بشيء أو كل شيء أو حتى التضحية بنفسه ليبرهن مدى تفانيه في خدمة سيده. أما السيد فقد كان على علم أن إثارة هذا الشعور سيولد سعادة كبيرة لدى *كاساتسكي*. وقد عكف على إثارته دائماً. فقد كان الإمبراطور يلهو مع الطلاب وأحاط نفسه بهم، وكان يعاملهم ببساطة طفولية في بعض الأحيان وبرسمية ورهبة ملوكية في أحيان أخرى، وكصديق في أحايين أخرى. وبعد حادثة العراك بين *كاساتسكي* والضابط لم يقل الإمبراطور شيئاً له ولكنه عندما توجه إلى الإمبراطور أومأ له بيده كي يبتعد وقطب حاجبيه وهز بالسبابة باتجاهه، وعندما هم بالرحيل قال له: «تذكر أنني على علم بكل شيء، بعض الأشياء أحبذ أن لا أعرف بها، لكنها تبقى هنا» وأشار إلى قلبه.

وعنما استقبل الإمبراطور طلاب الأكاديمية بعد تخرجهم لم يشر مرة

مكتبة الفكر الجديد

أخرى إلى جنحة كاساتسكي لكنه قال لهم جميعاً كما هو العرف أنه باستطاعتهم أن يتوجهوا إليه مباشرة متى دعت الحاجة وإنه يتوجب عليهم خدمته وخدمة الوطن وإنه سيكون دائماً بمثابة الصديق الأفضل لهم. تأثر جميع الطلاب بكلام الإمبراطور تأثراً بالغاً حتى أن كاساتسكي ذرف بعض الدموع مستذكراً الماضي وأقسم أنه سيخدم القيصر الذي يحبه بروحه ودمه.

عندما انضم كاساتسكي إلى كتيبة الحرس الإمبراطوري انتقلت أمه وأخته أولاً إلى موسكو ومن ثم إلى العزبة الريفية. وتبرع كاساتسكي بنصف ممتلكاته لأخته وأبقى على ما يحافظ على مستواه الراقي ضمن الكتيبة المترفة التي انضم إليها.

في الظاهر، كان *كاساتسكي* ضابطاً عادياً ذكياً شاباً أراد أن يصنع لنفسه مساراً مهنياً مميزاً لكن صراعات معقدة كانت تعتمل في داخله. فمنذ نعومة أظفاره كانت جهوده تبدو متنوعة لكن الخيط المشترك فيها كان مرتبطاً بمحاولته دائماً وأبدا في أي عمل كان يقوم به أن يصل إلى الكمال والنجاح كي يفضي إلى ذهول ومديح الناس من حوله. وسواء كان الأمر مرتبط بدراسته أو تدريباته العسكرية عكف كاساتسكي على تذليل العقبات والتصدي للمسألة حتى انهال الناس عليه بالمديح ليصبح مثالا يحتذى به في الجد والكمال. وبعد انتهائه من مهمة ما كان ينتقل لينجز أخرى. وهكذا احتل المركز الأول في صفه وحصل على مراتب الشرف في جميع المواد. لكنه وجد ضعفا لديه في المحادثة باللغة الفرنسية. فصمم على إتقانها، وبعد فترة أتقنها كما يتقن الروسية، وقد طبق التوجه ذاته في احتراف لعبة الشطرنج وأصبح لاعباً ماهراً بينما لايزال في الأكاديمية.

مكتبة الفكر الجديد

فيما عدا مهمته الحقيقية في الحياة، خدمة القيصر والوطن، كان كاساتسكي يضع لنفسه هدفا ما وبغض النظر عن أهميته كان يتفانى فيه ويسخر كل طاقاته ليفي به. وما إن يفي به حتى يضع نصب أعينه هدفا آخر. هذا الشغف في التميز عن الآخرين أو الشغف في تحقيق شيء يميزه عن الآخرين ملأ حياته وكان شغله الشاغل. فعندما انضم إلى الكتيبة الأروستقراطية وضع لنفسه هدفا على الفور مفاده الحصول على أكبر قدر ممكن من الكمال في معرفة هذه الخدمة. وهكذا أصبح بالفعل الضابط المثالي القدوة رغم عدم قدرته على التخلص من سمة سرعة الغضب التي لا سبيل لكبحها مما حدا به إلى ارتكاب أخطاء ألحقت الضرر بنجاحه في مسعاه. بعدها، اكتشف ذات مرة من خلال محادثة عامة في المجتمع أن معلوماته العامة شحيحة. لذا، انكب على المطالعة ليسد تلك الثغرة وقد نجح في ذلك، ورغبة منه في ضمان موقع بارز في أوساط المجتمع المخملي سعى إلى تعلم الرقص وأنجز المهمة بنجاح أهّله ذلك خلال فترة وجيزة ليصبح مرشحاً لحضور كافة الحفلات الراقصة في أفضل الأوساط الأروستقراطية وبعض اجتماعاتهم المسائية أيضاً. لكن ذلك لم يكن ليرضيه. فقد تعود على أن يكون الأول دائماً وفي ذلك المجتمع المخملي كان بعيدا عن المركز الأول.

تألف المجتمع الراقي في تلك الفترة، وفي كل حقبة على ما أعتقد، من أربعة أنواع من البشر: ١) أثرياء يستضافون في البلاط الملكي، ٢) أشخاص ليسوا أثرياء لكنهم ولدوا أو نشأوا في أوساط البلاط الملكي، ٣) أثرياء تملقوا واجتهدوا في سبيل الوصول إلى البلاط الإمبراطوري، ٤) أشخاص ليسوا أثرياء ولا ينتمون إلى البلاط الملكي لكنهم تملقوا واجتهدوا في سبيل الوصول إلى النوع الأول والثاني من هذا التصنيف.

مكتبة الفكر الجديد

لم ينتمي كاتاتسكي إلى المجموعة الأولى أو الثانية لكنه رحب به في المجموعات الأخرى. حتى أنه عندما ولج إلى ذلك الوسط في المجتمع الراقي وضع لنفسه هدفا مفاده إقامة علاقة مع حسناء من ذات المجتمع. وكم كان هو نفسه مندهشاً لسرعة تحقيق ذلك الهدف. لكنه سرعان ما أدرك أن تلك الأوساط التي تحرك فيها لم تكن الأكثر رقيا وأنه رغم قبوله في أرقى تلك المجموعات إلا أنه لم يشعر بانتمائه لها. فقد كان الناس في ذلك المجتمع لطفاء معه لكن سلوكهم عموما أظهر أن ثمة حاجزا أو هوة بين أفكارهم وأفكاره وأنه لا ينتمي إليهم. رغب كاساتسكي بالإنضمام إلى تلك المجموعة الضيقة، ولكي يحقق ذلك الهدف تعين عليه أن يصبح المعاون الشخصي للإمبراطور ـ وقد توقع ذلك بالفعل ـ أو أن يتزوج بفتاة من تلك الحلقة الضيقة على أن لا تكون الفتاة مجرد شخص منتم إليها، بل أن تكون مدعومة بصداقات مع أشخاص رفيعي المستوى راسخون في أوساط المجتمع الأكثر رقيا. وتلك الفريسة كانت الكونتيسة كاروتكافا. بدأ كاساتسكي بزيارتها ليس فقط ليعزز من موقعه المهني بل لأنها أيضاً كانت جذابة بامتياز وما لبث أن وقع في غرامها. كانت باردة في التعامل معه في البداية على نحو ملحوظ. بعدها تغير ذلك وأصبحت رقيقة وحانونة عليه، وقد رافق ذلك دعوات أمها المتكررة له لزيارتهم. وبالفعل، تقدم كاساتسكي لخطبتها وقوبل بالإيجاب. وقد كان مندهشاً لهذا الأمر الذي أدى إلى تعزيز شعوره بالسعادة. ورغم أنه لاحظ أمراً غريباً وغير اعتيادي في تصرف الأم وابنتها تجاهه لكن الحب كان قد أعمى بصيرته إذ لم يدرك ما كان يدركه جميع أهل المدينة من أن خطيبته كانت عشيقة نيقولاي بافلافيتش في السنة الماضية.

مكتبة الفكر الجديد

II

قبل أسبوعين من يوم الزفاف كان كاساتسكي في قرية تسارسكوي في منزل خطيبته الريفي. كان يوماً حاراً من أيام شهر مايو. كان قد تمشى هو وخطيبته في الحديقة وجلسا على مقعد في زقاق مظلل بشجر الزيزفون. ارتدت ماري فستانا أبيض جميل مصنوع من نسيج قطني كان يليق بها تماما. بدت تجسيدا لنقاء وطهارة الحب. جلست وأطرقت رأسها ومن ثم رفعته لتنظر إلى الرجل الطويل الوسيم الذي كان يحادثها بلطف رائق ورهافة حس وانضباط نفس عجيب وكأنه كان يخشى مع كل لفظ وحركة أن تخدش الكلمات أو الإيماءات صفاءها الملائكي. كان كاساتسكي ينتمي إلى جيل أربعينات القرن التاسع عشر، أولئك الرجال الذين انقرضوا في أيامنا هذه. الرجال الذين بينما يبررون، وعلى نحو مقصود ومن دون أي تردد، عدم الطهارة في أنفسهم، يعتبرون جميع النساء غير المتزوجات في أوساطهم يمتلكن صفاء منقطع النظير يستوجب التعامل معهن على ذاك الأساس ويطلبون بالتالي صفاء ملائكي ومثالي فيهن. ثمة كثير من الزيف والضرر في تلك النظرة المتعلقة بالتساهل الذي سمح الرجال لأنفسهم به، لكن بالنسبة للنساء فإن تلك النظرة القديمة البالية تختلف تماماً عن نظرة شباب اليوم الذين يرون جميع الفتيات يلهثن وراءهم لمصاحبتهم، تلك النظرة في اعتقادي كانت

مكتبة الفكر الجديد

ذات قيمة مميزة، فالفتيات اللواتي خضعن للنظرة السامية تلك سعين بكل ما أوتين من قوة ليصبحن شبه آلهة. كانت تلك نظرة كاساتسكي إزاء النساء وهكذا كان ينظر إلى خطيبته. كان هائما في الحب في ذلك اليوم بالذات ولكنه لم يشعر بأي رغبة جنسية حسية نحوها. بل على العكس، تصرف معها برفق متناه وكأنها إمرأة لا سبيل لمعاشرتها.

انتصب على قدميه ووقف أمامها واضعا كلتا يديه على سيفه وقال مبتسما ابتسامة خجولة: «لقد علمت للتو معنى السعادة التي يمكن أن ينعم بها المرء، السعادة هي أنت عزيزتي. أنت من وهبني هذه السعادة».

لم يتعود الخطيبان على المجاملات بعد. وبينما كان كاساتسكي يقدر خطيبته وينظر إليها باحترام وتبجيل شعر بأن عبارات الإطراء في تلك المرحلة قد لا يستسيغها ملاكه الصغير.

أجابت: «شكراً لك لأنني بدأت أعرف نفسي من خلالك أكثر فأكثر واكتشفت أنني أفضل مما كنت أعتقد»

«علمت ذلك منذ زمن بعيد، لذلك بدأت في التعبير عن حبي لك»

صدح العندليب بصوته قريبا منهما واهتزت الشجيرة الخضراء بعد أن داعبها النسيم العليل.

أمسك بيدها وقبلها واغرورقت عيناه بالدموع. فهمتْ أنه كان يعبر عن شكره لها لأنها قالت إنها أحبته. خطى بضع خطوات وبقي صامتا للحظة ثم اقترب منها وجلس على المقعد من جديد.

«أتعرفين عزيزتي، علي أن أقول لك شيئا. أقول إنني لم أكن مكترثا عندما بدأت بزيارتك، كنت أبحث في البداية عن موطئ قدم في

مكتبة الفكر الجديد

المجتمع الراقي، لكن كلّ ذلك أصبح عديم القيمة مقارنة معك لاسيما عندما بدأت بالتعرف عليك، أنت لست غاضبة مني، صحيح؟»

لم تجب لكنها لمست يده، وفهم أن تلك الحركة عنت: «كلا، لست غاضبة»

«قلت.....» تردد لأنه شعر أن الشجاعة خانته. «قلت أنك بدأت بمحبتي ولكن سامحيني، أنا أصدقك ولكن ثمة شيء يزعجك ويختبر مشاعرك دائماً. ما هو؟»

«نعم. الآن أو أبداً، سيعرف لا محالة، لكن إن قلت له الآن فلن يهجرني، ولكن ماذا لو فعل؟ آه.. سيكون الأمر مرعبا» فكرت في نفسها ورمقت قامته الطويلة النبيلة القوية بنظرة حنونة، فقد أحبته الآن أكثر مما أحبت نيقولاي، وإن لم يكن الأمر مرهونا بالكبرياء والكرامة الإمبريالية لكانت قد فضلت الإمبراطور عليه.

«اصغ إلي! لا أستطيع خداعك، يتعين علي أن أصارحك، سألت عن الأمر الذي يؤرقني؟ لقد أحببت من قبلك، هذا هو».

مرة أخرى وضعت يدها على يده مستجدية عطفه، وبقي هو صامتا.

«هل تريد أن تعرف من هو؟ إنه الإمبراطور».

«جميعنا نحبه. أستطيع تخيل الأمر، فتاة في المدرسة....»

«كلا، حصل ذلك بعد سنوات المدرسة. حينها كنت مفتونة ولكن الأمر انتهى. لكن علي أن أبوح لك ب..»

«ماذا إذاً؟»

«كلا، كنت ببساطة»، وغطت رأسها بيديها.

مكتبة الفكر الجديد

«ماذا؟ استسلمت له؟»

لم تنبس بكلمة

«عشيقته؟»

لم تنبس بكلمة.

انتصب واقفا أمامها وبدأ يرتجف وتحول لون وجهه شاحبا كلون الموت. تذكر الآن كيف هنأه نيقولاي بيتروفيتش بلطف عندما التقيا في نيفسكي.

«يا إلهي!! ماذا فعلت!! ستيفيا!!!»

«لا تلمسيني! لا تلمسيني! يا إلهي كم هو مؤلم!»

استدار وذهب إلى المنزل، والتقى هناك بأمها.

ماذا دهاك يا أمير؟ «أنا.....» صمتت حينها بعد أن رأت الدم يتدفق في عروق رأسه معلنا حالة فريدة من الغضب.

«أنت علمت بالأمر واستخدمتيني لتغطي على فضيحة ابنتك. لو لم تكوني إمرأة لكنت...» ورفع قبضته القوية صارخا في وجهها ثم استدار وغادر المكان.

لو كان عشيق خطيبته شخصاً عادياً من العامة لقتله، لكن العشيق هو الرجل الذي أحبه، القيصر.

في اليوم التالي تقدم بطلب إجازة ادّعى أنها إجازة مرضية كي يغادر المكان من دون أن يرى أحداً. وهكذا ذهب إلى الريف.

أمضى الصيف في قريته يرتب شؤونه، وعندما انتهى الصيف لم يعد إلى بطرسبورغ بل التحق بالدير وأصبح بعدها راهبا.

مكتبة الفكر الجديد

راسلته أمه لتحاول ثنيه عن اتخاذ تلك الخطوة الحاسمة لكنه أجاب بأنه شعر أن الرب يناديه وأن ذلك النداء يسمو على جميع الاعتبارات الأخرى. فقط أخته، التي كانت فخورة وطموحة مثله، استطاعت أن تفهمه.

فهمت أنه أصبح راهبا لأنه أراد أن يسمو فوق أولئك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم أفضل منه. وقد فهمته على النحو الصحيح. فبتحوله إلى راهب أظهر الازدراء لكل شيء بدا مهما للآخرين وبدا له أيضاً عندما كان على رأس عمله في السابق. أما الآن فقد ارتقى إلى الأعلى وينظر إلى الأمور التي كان يغبط غيره عليها، لا يكترث بها الآن بل يتعالى عليها. ولكن لم تكن تلك الأسباب وحدها التي فكرت فيها أخته بل ثمة شيء آخر في داخله وجهه لما قام به وهو شعور ديني مخلص لم تكن فارفارا تعلمه اجتمع مع شعور الكبرياء والرغبة في البقاء في المركز الأول. فاستياؤه من خطيبته ماري التي كان يعتبرها ملاكا وشعوره القوي جداً بالجرح، أوصله إلى اليأس واليأس بدوره دفع به إلى ـ ماذا؟ إلى الله، إلى إيمانه في سن الطفولة الذي لم ينمحي أبدا.

مكتبة الفكر الجديد

III

دخل كاساتسكي إلى الدير في موسم / عيد شفاعة وحماية مريم. أما رئيس الدير فقد كان رجلاً لطيفا وكاتبا مثقفا وشيخا مرشدا، أي كان ينتمي إلى سلسلة من الرهبان الذين ينحدرون من واليشيا بحيث يختار كل منهم مديراً ومعلماً يطيعونهما ضمنيا. وهو كان طالبا/ مريدا / تلميذا للشيخ المرشد المشهور باسم أمفروسي، تلميذ ماكاري، تلميذ الشيخ المرشد ليونيد، تلميذ بايسي فيليتشكوفسكي، أما كاساتسكي فقد سلم نفسه لرئيس الدير واعتبره شيخه المرشد.

وجد كاساتسكي متعة في سعيه إلى الكمال داخليا وخارجيا، بالإضافة إلى الشعور بالسمو على الآخرين بسبب أسلوب هذه الحياة الذي سلكه في الدير. وكما كان في الكتيبة ضابطاً خالياً من العيوب يقوم بأكثر من واجباته ويوسع حدود الكمال كان كذلك في الدير يحاول أن يكون مثالياً مجتهداً عفيفاً حليماً ذلولاً خجولاً مطيعاً طاهراً ليس فقط في الفعل ولكن في التفكير أيضاً. وجعلت سمة الطاعة، على وجه الخصوص، حياته أسهل بكثير مما كانت عليه في السابق. فإذا لم ترق له كثير من متطلبات الحياة في الدير ـ الذي كان قريبا من العاصمة ويتردد عليه كثير من الناس ـ وأحاطت به الإغراءات من كل جانب، كان ذلك يتبدد ويزول بالطاعة. كان لسان حاله يقول: «لا يتوجب علي أن

أعقلن المسائل بل علي انجاز المهام الموكلة إلي كالوقوف بجانب الرفات أو الغناء في الكورال أو اجراء حساباتي في منزل الضيافة في الدير». وجميع احتمالات الشك كانت تنطفيء بطاعة الشيخ المرشد. ولو لم يكن الأمر متعلقا بالطاعة لشعر كاساتسكي بالظلم بسبب طول فترة الصلوات في الكنسية ورتابتها بالإضافة إلى جلبة الزوار الكثر وقبح سمات بعض الرهبان الآخرين. ولكنه لم يحتمل تلك الأمور برحابة صدر وسعادة فحسب بل وجد فيها عزاءه وسلوانه. «لا أدري لماذا يتعين على المرء سماع الصلوات ذاتها عدة مرات في اليوم الواحد لكنني أعلم أن ذلك ضروري وبذلك أجد المتعة في أدائها» قال له الشيخ المرشد إن الجسد بحاجة إلى طعام كوقود للمحافظة عليه كما تحتاج الروح إلى غذاء من نوع آخر هو الصلوات والأدعية للمحافظة على نقائها. آمن كاساتسكي بذلك رغم أن صلوات الكنيسة شكلت بعض الصعوبة له لا سيما صلوات الصباح الباكر لكنها جعلته إنسانا أكثر هدوءاً ووفرت له الغبطة والمتعة. كان ذلك الإذعان مرتبطاً بوعيه بضرورة التواضع واليقين الذي تأتى من فضيلة ما كان يمليه عليه الشيخ المرشد. إذ لم يكن اهتمامه بالحياة مرتبطاً بتواضعه وخنوعه المتزايدين فحسب بل في اكتساب جميع فضائل المسيحية التي بدت للوهلة الأولى أمراً سهل المنال. فقد تبرع بكامل ممتلكاته لأخته ولم يشعر بأي ندم ولم يتراخى في ذلك. أما التواضع مع الآخرين ممن هم دونه في الدرجة والمقام فلم يكن سهلا فقط بل وفر له السعادة والسرور، حتى أن التغلب على معاصي الشهوة والجشع والجنس كان سهلا بالنسبة له. فقد حذره الشيخ المرشد من معصية الشهوة، لكن كاساتسكي كان في حل من تلك المعاصي.

مكتبة الفكر الجديد

ذكرى خطيبته كان الشيء الوحيد الذي عذبه، فلم يكن استذكارها سبب هذا العذاب، بل الصورة الواضحة لما كان يمكن أن يكون، ومن دون قصد، تخيل عشيقة الإمبراطور المفضلة التي تزوجت لاحقا وأصبحت زوجة تثير الإعجاب وأما وقوراً، تخيل زوجها ذو المنصب المحترم والتأثير والنفوذ والشرف وتخيل الزوجة الطيبة التائبة.

لم تزعج تلك الأفكار كاساتسكي في لحظات الصفاء، فعندما كان يستذكر ما حصل أو كان يمكن أن يحصل كان يشعر بالرضا والارتياح لأن الإغراء قد زال. لكن في أوقات أخرى كان يشعر بأن ما يكوّن حياته الآن بدأ بالذبول فجأة، لحظات لو لم يتوقف فيها عن الإيمان بالأهداف التي وضعها لتوقف عن رؤيتها لغابت عنه الثقة فيها بل لاجتاحته الذكريات والندم على تغيير مجرى حياته.

الأمر الوحيد الذي أنقذه في تلك الحالة العقلية هو الطاعة والعمل وانشغاله طوال اليوم بالصلاة. فقد كان يمارس طقوس الصلاة حتى أنه كان يبالغ في أدائها لكن من دون خشوع. كان يرتل التراتيل ويحرك شفتاه وينحني ويقوم بالطقوس فحسب. فقد كانت تغزو جوارحه تلك الحالة ليوم أو يومين ثم ما تلبث أن تتبدد. لكن تلك الأيام كانت موجعة، إذ كان يشعر أنه ضائع وأن الله بعيد عنه. وكأن شخصاً آخر يمسك بتلابيبه، شخص غريب، كل ما كان باستطاعته فعله حينها هو طاعة الشيخ المرشد ليضبط نفسه وأن لا يتعهد بشيء وينتظر. وعلى العموم، عاش في تلك المرحلة وفق رغبة وإرادة الشيخ المرشد وليس وفق إرادته هو. ومن خلال طاعة الشيخ المرشد وجد طمأنينة من نوع خاص.

وهكذا عاش في الدير الأول لسبع سنوات. وفي نهاية السنة الثالثة كلل رأسه[1] وطوب ليصبح قسيسا باسم جديد: الأب سيرغيه. شكلت هذه المرحلة مفصلا مهما في حياته الروحانية، فقد كان يواسي نفسه أبلغ المواساة ويشعر برضا روحي عظيم حين يتلقي القداس. أما الآن فهو يباشر القداس بنفسه وهذا ما ملأ روحه غبطة وشعوراً عميقاً بالنشوة لاسيما أثناء التحضير لأداء القداس. لكن هذا الشعور ما لبث أن مات رويدا رويدا فقد اكتشف مرة أثناء مباشرته القداس وهو في حالة اكتئاب أن تأثير الصلاة عليه لم يعد أمراً مستداماً. وبالفعل، فقد غاب تأثير الصلاة وأصبحت عبارة عن عمل روتيني ليس إلا.

وعلى العموم، أصاب سيرغيه في السنة السابعة نوبات من السأم، فقد تعلم كل ما كان بالإمكان تعلمه وأنجز كل ما كان بالإمكان إنجازه ولم يبق من شيء يمكن القيام به. وقد ازداد مستوى خموله الروحي. وفي تلك الفترة توفت والدته وتزوجت خطيبته ماري إلا أن الحدثان لم يؤثرا عليه البتة، لأن تركيزه الكامل واهتمامه التام كانا ينصبان على نفسه الباطنة وروحه الكامنة.

في السنة الرابعة من رهبانيته حيث كان الأسقف لطيفا جداً في التعامل معه بالذات دون غيره قال له الشيخ المرشد أنه ينبغي عليه أن لا يرفض عرضا قد يأتي إليه ليتبوء مهام عليا. ذلك الطموح في التدرج في

---

(1) **Full Definition of *TONSURE***

1: the Roman Catholic or Eastern rite of admission to the clerical state by the clipping or shaving of a portion of the head

2: the shaven crown or patch worn by monks and other clerics

3: a bald spot resembling a tonsure (Miriam-Webster dictionary)

مكتبة الفكر الجديد

سلك الرهبانية، الأمر الذي كان يتقزز من ملاحظته لدى رهبان آخرين، هو ذات الطموح الذي حرك فيه غريزة حب الوصول والحيثية. أوكل مهمة إدارة دير بالقرب من العاصمة، رغب بالرفض لكن الشيخ المرشد أمره أن يقبل التعيين، وهكذا فعل واستأذن الشيخ المرشد وغادر إلى الدير الجديد.

شكل انتقال سيرغيه إلى دير العاصمة حدثا مهما في حياته، فقد اعترضت سبيله كثير من الإغراءات والفتن التي وظف جميع قواه وإرادته ليتصدى لها.

في الدير القديم لم تكن النساء تشكل فتنة على عكس هذا الدير الذي شكلت فيه النساء عنصر إغراء لا يمكن التخلص منه. فثمة سيدة اشتهرت بشطحاتها الغرامية وسلوكها المسرف وقد بدأت في السعي وراء مشورته. تحدثت معه وطلبت منه أن يزورها. فرفض بحزم ولكنه ارتعب من تحرك مشاعره وتحديدا رغباته. وقد ذعر من الموقف لدرجة أنه أرسل رسالة إلى الشيخ المرشد شرح فيها ما حدث. بالإضافة إلى أنه تحدث في الأمر مع راهب شاب، وذلك ليضبط نفسه ويراقبها عن طريق طرف ثالث، واعترف له، بعد أن تجاوز خجله بضعفه وطلب منه أن يراقبه وأن لا يدعه يذهب إلى أي مكان سوى لأداء مهامه الكنسية وأداء الصلوات.

بخلاف تلك الإغراءات، كان سيرغيه يشعربإغراء آخر يتمثل في الامتعاض البالغ وعدم القدرة على التعاطف مع رئيس الدير الذي كان يتمتع بالدهاء وحب الدنيا. إذ أراد أن يختط لنفسه مساراً وظيفياً مربحاً في هذا الدير. وبغض النظر عن محاولاته المتكررة للتصارع مع فكرة

مكتبة الفكر الجديد

إمكانية التعاطف مع رئيس الدير إلا أن جميع محاولاته باءت بالفشل. كان سيرغيه يطيع ما يمليه عليه رئيس الدير لكنه لم يتوقف عن التنديد به في أعماق نفسه حتى انفجر في وجهه في يوم من الأيام في السنة الثانية من إقامته. وقد حصل ذلك كالتالي: كانت ليلة الشموع ماضية على قدم وساق في الكنيسة الكبرى مساء بداية عيد شفاعة السيدة مريم العذراء[1]. وقد ازدادت أعداد الزوار في تلك الأمسية. وكان رئيس الدير يقوم بالقداس وكان الأب سيرغيه يقف في مكانه المعتاد يصلي أي كان بالأحرى في تلك الحالة المربكة التي تعتريه أثناء الصلاة وتتصارع فيها شهواته مع مبادئه لاسيما في الكنيسة الكبرى حيث لا يقوم بأداء القداس بنفسه. وعزز هذا الصراع شعوره بالانزعاج لدى رؤية حشودا من الرجال والنساء على وجه الخصوص. حاول أن لا يسترق النظر أو يلاحظ ما يجري: كيف أتى جندي وبدأ يهش العامة وكأنه يهش على قطيع من الغنم وكيف كانت النساء تشير إلى الرهبان وتتضاحك فيما بينهن لاسيما حينما أشرن إليه لأنه كان مشهوراً بالوسامة. حاول أن يتجاهل كل ما يجري شاغلا نفسه بالتركيز على الشموع والأيقونيستاز (جدار الأيقونات) وأولئك الذين يقومون بأداء القداس. وحاول أن لا يصغي إلى شيء سوى الصلوات التي تقرأ أو ترتل لكي لا يشعر بشيء سوى الذوبان في أداء المهمة الدينية، ذلك الشعور الذي لطالما شعر به لدى سماعه أو ترتيله الصلوات التي سمعها مراراً وتكراراً.

وهكذا وقف الأب سيرغيه على قدميه ورسم إشارة الصليب وانحنى بحسب العرف وتصارع مع نفسه بينما لم يستسلم للتنديد البارد أو

---

(١) يسمى بالروسية عيد باكروف (أي الحماية والشفاعة)

مكتبة الفكر الجديد

لطغيان تلك الأفكار والمشاعر عليه. بعدها أتى قداسة الأب نيكوديم، الذي يشكل عامل فتنة لسيرقيه، حيث كان قد أنبه على تزلفه وتملقه لرئيس الدير، اقترب منه وانحنى وطلب منه الحضور إلى المحراب، عدل الأب سيرغيه من ردائه ووضع عليه غطاء الرأس الخاص بالرهبان[1] وذهب باحتراس من خلال الحشود الحاضرة.

سمع صوت إمرأة تقول: «أنظري إلى الجهة اليمنى. ها هو!»

«أين... أين.... لا يبدو وسيما كما ذكرت»

علم أنهن كن يتحدثن عنه، فقد سمعهن وكرر الكلمات التي عادة ما تقال في لحظات الفتن، «اللهم أبعد عنا الفتن ما ظهر منها وما بطن» وانحنى برأسه وأطرق النظر إلى الأسفل ومر بمحاذاة منبر الوعظ ومن ثم من خلال الباب الشمالي متجنبا الكهنة المرتلين الملتحفين بعباءاتهم وهم يمرون بجانب جدار الأيقونات وبدخوله المذبح/ بيت القربان انحنى ورسم شارة الصليب كالعادة وركع مرتين في وجه الأيقونة بعدها رفع برأسه ومن دون أن يلتفت لمح بطرفه رئيس الدير الذي كان يقف مع شخص آخر يلبس رداءً براقا.

كان رئيس الدير يقف بجانب الجدار مرتديا ثوبه الكهنوتي وبعد أن حرر يديه القصيرتين المكتنزتين من تحت الرداء وضعهما على جسده السمين وكرشه الممتلىء المنبلج وبينما كان يتلهى بأصابعه بأحبال الثوب الكهنوتي كان يتكلم مبتسما مع رجل عسكري يلبس بزة جنرال عسكري ينتمي إلى الجناح الإمبراطوري مع قلادة حفر عليها اسمه وشارات دلت

---

(1) Klobuk: a tall cylindrical-shaped headpiece with a veil at the rear, worn by Orthodox monks.

مكتبة الفكر الجديد

على رتبته، التقطتها الأب سيرغيه بعينه الثاقبة الخبيرة. اتضح أن ذاك الجنرال كان قائد الكتيبة التي خدم فيها سيرغيه سابقا. ويبدو أنه يشغل منصبا مهما الآن إذ لاحظ الأب سيرغيه أن رئيس الدير على دراية تامة بمنصب الرجل حيث تورد وجهه وسطع رأسه الحليق بالرضا والسعادة. حير الأمر الأب سيرغيه وجعله مستنكفا مما يدور لاسيما بعدما علم أن رئيس الدير أرسل بطلبه ليبين للجنرال ويفي بفضوله لدى معرفته أن هذا الأب قد خدم في كتيبته سابقا كما تبين من خلال الحديث التالي.

«يطيب لي أن أراك في هذه الصورة الملائكية، أتمنى أن لاتكون قد نسيت رفيقا قديماً» قال الجنرال وهو يمد يده باتجاه الأب سيرغيه.

تقزز الأب من رؤية وجه رئيس الدير المتورد المبتسم وغرته البيضاء وسماع حديث الجنرال والنظر في وجهه الناعم المعالم وابتسامته التي تنم عن رضا النفس وشم الخمر المنبعث من فمه ودخان السيجار المنبعث من شاربيه. انحنى مرة أخرى لرئيس الدير وقال: «نيافتكم أرسلتم بطلبي؟» ودلت ملامح عينيه ووجهه على معرفة السبب.

«نعم. أرسلت في طلبك للقاء الجنرال» أجاب رئيس الدير.

«نيافتكم. لقد زهدت في الدنيا وتركت كل شيء لكي أنقذ نفسي» قالها الأب وشفتاه ترتجفان ولونه يمتقع بالشحوب، ثم أضاف: «لماذا تعرضني على الدنيا مرة أخرى ونحن في خضم الصلاة في بيت من بيوت الله؟»

«يمكنك أن تنصرف. انصرف!» أجاب رئيس الدير مقطبا حاجبيه وهو يستشيط غضبا.

في اليوم التالي طلب الأب سيرغيه العفو من رئيس الدير والأخوة

مكتبة الفكر الجديد

الرهبان بسبب كبريائه بالأمس وجفائه. لكنه قرر في ذات الوقت، وبعد ليلة قضاها في الصلاة، الرحيل عن هذا الدير. وكتب إلى الشيخ المرشد متوسلا رخصته للعودة إليه في الدير القديم. وشرح أنه شعر بالضعف وعدم القدرة على الكفاح ضد المغريات من دون مساعدته وقد اعترف آسفا بكبريائه وعدم قدرته على استساغة رئيس الدير. وهكذا، استلم رسالة ردّ من الشيخ المرشد شرح فيها أن أنفة سيرغيه أصل لكل الشرور وسبب ما حدث. وقد أشار الرجل المسن إلى أن نوبات الغضب التي تصيب سيرغيه مردها أن الأب برفضه لجميع التشريفات الدينية قد أذل نفسه ليس في سبيل الله بل في سبيل أنفته وكبريائه. «**هكذا إذا، ألست رجلاً رائعاً لكي لا أطلب شيئا؟**» ولهذا لم يستطع أن يتحمل أفعال رئيس الدير. «لقد نبذت كل شيء من أجل تمجيد الله. وها أنا أقدم للجنرال كوحش بري!» «لو أنك طرحت الكبرياء جانبا لأجل الله لكان بمقدورك تحمل رئيس الدير. لكن الأنفة وحب الدنيا لم يمت فيك بعد. لقد فكرت في حالك سيرغيه، يا بني. وصليت من أجلك وقد ألهمني الله إلى التالي: في صومعة تامبوف مات الناسك *إلاريون* وهو الرجل المتعبد الذي عاش حياة القديسين. وقد عاش في ذلك المكان لثمانية عشر عاما. وقد طلب رئيس دير تامبوف البحث عن رجل يحل مكان الناسك. وها قد استلمت رسالتك. اذهب إلى الأب بيزي في دير تامبوف وسأكتب له وأخبره عن قدومك. يجب أن تسأل عن صومعة *إلاريون*. لا أعني بهذا أن تحل محل *إلاريون* وتتقمص روحه بل أردت لك السكينة لتقمع أنفتك وكبريائك. فليباركك الرب».

أطاع سيرغيه الشيخ المرشد وأظهر الرسالة لرئيس الدير وبعد

مكتبة الفكر الجديد

الحصول على موافقة الأخير سلم مكانه وسريره وممتلكاته وحوائجه وتوجه إلى صومعة تامبوف.

استقبل رئيس الدير الجديد، وهو رجل ذو خلفية تجارية، الأب سرغيه ببساطة وهدوء ووضعه في صومعة *إلاريون* وفوض أخا من الرهبان للعناية به في الفترة الأولى ثم ما لبث أن تركه بمفرده بطلب من الأب سيرغيه نفسه. كانت الصومعة عبارة عن كهف مزدوج محفور في جانب الهضبة وفيه كان قد دفن *إلاريون* في قبر في الجهة الخلفية من الكهف. أما المقدمة ففيها ركن للنوم تغطيه فرشة من القش ومنضدة صغيرة ورف وضعت عليه بعض الأيقونات والكتب. وفي خارج الباب الرئيسي الذي يقفل بمزلاج رف آخر كان يضع عليه أحد الرهبان طعاما من الدير مرة في اليوم.

وهكذا أصبح سيرغيه ناسكا متصومعا.

مكتبة الفكر الجديد

IV

في أسبوع المرفع في السنة السادسة من حياة سيرغيه كناسك في الصومعة أقامت مجموعة من الأثرياء من النساء والرجال القاطنين في البلدة المجاورة أقاموا حفلة على متن عربة/ مزلجة تجرها ثلاثة جياد تسمى بالترويكا بعد تناول وجبة من البليني[١] والخمر. تألفت المجموعة من محاميين ومالك أراضي ثري وضابط وأربع سيدات إحداهن كانت زوجة الضابط وأخرى زوجة مالك الأراضي والثالثة أختها والرابعة إمرأة مطلقة حسناء ثرية غريبة الأطوار أذهلت وصدمت البلدة بأسرها بسبب مغامراتها الغرامية.

كان الطقس رائعاً والطريق أملس تغطيه الثلوج. قطعت المجموعة سبعة أميال في العربة خارج البلدة توقفوا بعدها وتشاوروا بشأن العودة أو الاستمرار قدما.

«ولكن أين تؤدي هذه الطريق؟» سألت ماكوفكينا، الحسناء المطلقة.

«إلى تامبوف، على بعد ثمانية أميال من هنا». أجاب أحد المحامين

«وبعدها إلى أين؟»

(١) فطائر تقليدية تقدم مع الزبدة والكريمة الرائبة خلال أسبوع المرفع

مكتبة الفكر الجديد

«بعدها إلى...... ما بعد الدير»

«حيث يعيش الأب سيرغيه؟»

«أجل»

«كاساتسكي، الناسك الوسيم؟»

«أجل»

«سيداتي سادتي! هلم بنا ننطلق لنرى كاساتسكي! يمكننا التوقف في امبوف لتناول الطعام»

«لكننا لن نستطيع العودة إلى البلدة في هذه الليلة»

«لاضير في ذلك، ننام في صومعة كاساتسكي»

«حسن، ثمة دار ضيافة جيدة جداً في الدير. أمضيت ليلة هناك عندما نت أترافع عن ماخين»

«كلا، سأمضي ليلتي عند كاساتسكي!»

«مستحيل! حتى لو وظفت جميع إمكانتك ومواهبك لن تستطيعي عل ذلك»

«مستحيل! هل تراهنني إذاً؟»

«حسن! إذا أمضيت الليلة معه سأقدم لك ما شئت»

«....»

«وأنت أيضاً ملزمة بذلك»

«نعم. بالطبع. هيا إذا فلننطلق»

وزعت الفودكا على السائقين وأخرج المحتفلون صندوقا من

مكتبة الفكر الجديد

البيراشكي[1] والنبيذ والحلويات. التحفت النساء بمعاطفهن البيضاء المصنوعة من وبر الكلاب وبدأ السائقون يتجادلون بشأن من من الجياد سينطلق أولا بينما قام السائق الأصغر سنا بتحريك سوطه وصرخ في الأحصنة. بدأت أجراس الترويكا تدق وأصدرت الأجزاء السفلى من المزلجة أصواتا جراء احتكاكها بالثلج.

لم تنحرف المزلجة عن مسارها إلا نادراً، وانطلق الجياد بفرح وسلاسلة على الطريق الأملس الذي بدا وكأنه يتحرك بعكس اتجاة العربة بسرعة بينما كان السائق يمسك بلجام الجياد ويحركها باحتراف. جلس الضابط والمحامي في المقابل وكانا يتكلمان هراء مع من يجلس بجانب ماكوفكينا. أما ماكوفكينا فقد جلست بلا حراك تفكر وتلتحف المعطف الصوفي. «دائماً ما يتكرر المشهد. نفس الوجوه المتوردة المشعة التي تبعث روائح النبيذ والسيجار. ونفس الأحاديث والأفكار ودائماً أحاديث عن نفس الرذائل. أما المتحدثون فهم مقتنعون تماماً أن الحديث ينبغي أن يكون كذلك وسوف يستمرون في حياتهم على هذا النحو حتى الموت. لكنني لا أستطيع ذلك. فهذا يبعث في نفسي السأم. أريد شيئاً مختلفا يقلب الطاولة عليهم. أفترض أن ذلك قد يحصل معنا كما حصل مع أولئك الناس، في ساراتوف على ما أعتقد، حيث استمر السائقون في القيادة حتى تجمدوا وماتوا. ماذا عسانا فاعلين؟ وكيف سيتصرف السادة والسيدات إذا ما واجهنا نفس المصير؟ بدناءة بالطبع، كل سينجو بجلده. وعلي أنا أيضاً أن أتصرف بدناءة لكنني على أي حال

(١) مقبلات تشبه الكعك او الفطائر المحشوة بالملفوف المخلل أو البطاطس المهروسة أو اللحم.

مكتبة الفكر الجديد

باركني الله بمسحة جمال، وهم جميعاً يعرفون ذلك. وماذا عن ذلك الراهب؟ هل من الممكن أنه لم يعد يقدر الجمال؟ كلا! الجمال هو الشيء الوحيد الذي يتفهمه ويقدره جميع الرجال بلا استثناء. كذلك المجند في الخريف. يا إلهي ما أحمقه»

«إيفان نيكولايفيتش!»

«أوامر»

«كم عمره؟»

«من؟»

«كاساتسكي»

«اجتاز الأربعين، على ما أعتقد»

«وهل يستقبل الجميع»

«نعم، الجميع لكن ليس على مدار الساعة»

«غطي قدماي. ليس على هذا النحو. يا ألهي كم أنت أخرق! كلا، أكثر فأكثر. نعم هكذا! لكن لا ينبغي عليك أن تضغط عليهم بهذا الشكل»

وهكذا وصل المحتفلون إلى الغابة التي تحتوي على صومعة كاساتسكي.

ترجلت ماكوفكينا من الترويكا وطلبت منهم أن يستمروا في سبيلهم. حاولوا أن يثنوها عن فعل ذلك لكنها انزعجت وأمرتهم أن ينصرفوا. وعندما غابت المزلجة مشت في الطريق المؤدي إلى الصومعة ملتحفة بالمعطف، خرج محام من العربة وتوقف ليراقبها.

مكتبة الفكر الجديد

٧

كانت تلك سنة الأب سيرغيه السادسة التي عقبت تنسكه. وقد بلغ من العمر تسعة وأربعين عاما. كانت حياته الإنطوائية شاقة للغاية ليس بسبب الصيام والصلاة (لم يشكل ذلك عناء بالنسبة له) بل بسبب صراع داخلي لم يتوقعه البتة. وكان مصدر ذلك الصراع أمران: الشك وشهوة الجسد. وقد توائم هذان الخصمان مع بعضهما دائماً. بدا له أنهما خصمان منفصلان مختلفان لكنهما في الواقع كانا خصماً واحداً متوائماً عنيدا. فبمجرد اختفاء الشك كانت الشهوة تختفي أيضاً ولكن بالنظر إلى تفكيره بأن الأمران يمثلان شيطانان مختلفان عكف بالتالي على محاربتهما كل على حدا.

«يا إلهي! يا إلهي! لماذا لا تنعم علي بالإيمان؟ ثمة شهوة بالطبع حتى أن القديسين كافحوها كالقديس أنطون وغيرهم. لكنهم كانوا مؤمنين حقا بينما أنا أفتقد الإيمان للحظات وساعات وحتى لأيام أيضاً. لماذا تبتهج الحياة بخضرتها وإغراءاتها ولماذا يطفح العالم بالملذات والأسارير إذا كان كل ذلك يدعو إلى الخطيئة ويجب أن ينبذ؟ لماذ خلقت يا ربي هذه الفتن؟ الفتن؟ هل من الفتنة أيضاً أنني أرغب بالتخلي عن جميع الملذات وأحضر لنفسي شيئاً في عالم آخر ربما لن يوجد؟» فكر كاساتسكي بهذا الأمر وأصبح منزعجا وخائفا ومتقززا من نفسه.

مكتبة الفكر الجديد

«أيها المخلوق الدميم. أيها الشرير. أتريد أن تصبح قديسا؟؟؟» وبخ نفسه أشد التوبيخ ثم لجأ إلى الصلاة. وحالما بدأ في الصلاة تخيل نفسه بوضوح كما كان في الدير عظيم الهيئة يرتدي عباءة الرهبان. هز برأسه يميناً ويساراً وقال: «كلا، ثمة خطب ما. إنه الغش. قد أحتال على الناس لكنني لا أستطيع الاحتيال على نفسي أو على خالقي. أنا لست رجلاً عظيما بل رجلاً سخيفا يثير الشفقة». عندها رمى بثنيات عباءته وتبسم وهو ينظر إلى ساقيه النحيفتين والملابس الداخلية التي تغطيها.

بعدها أرخى ثنيات الرداء وبدأ بالصلاة مجددا راسما إشارة الصليب وراكعا وساجدا. «هل يمكن أن يصبح هذا السرير نعشي؟» قرأ ذلك وبدا وكأن الشيطان همس في أذنه: «سرير من دون شريك هو بحد ذاته نعش. إنها كذبة». وفي مخيلته رأى كتفا إمرأة أرملة كان قد عاش معها. انتفض وعاد إلى قراءة الصلوات. وبعدما قرأ الوصايا أمسك بالإنجيل. وفتح الكتاب وإذ به يفتحه بفقرة عادة ما كان يرددها وهو يحفظها عن ظهر قلب: «يا إلهي، آمنت فأعني على الثبات ودع عني الشكوك» وهكذا تبددت جميع الشكوك التي كانت تساوره حينها. وكما يعيد المرء وضع شيء مختل التوازن في مكان آخر ليعيد التوازن إلى مجموعة الأشياء قام سيرغيه بالإبتعاد بحذر عن الشك المبدد آنيا وتركه في مكانه لكي لا يعبث في اليقين الحالي الذي توصل إليه. أعاد قراءة صلاة الطفولة: «يا إلهي! قربني منك. خذني إليك» عندها، لم يشعر بالارتياح فقط بل شعر بالفرح إذ تحركت عواطفه متأثراً بالصلاة. رسم شارة الصليب وتمدد على المقعد الضيق واضعا غفارة ردائه الصيفية تحت رأسه. وغط في النوم بمجرد أن وضع رأسه على المقعد سامعا في سباته الخفيف صوت أجراس المزلجة. لم يميز بين الحلم واليقظة حينها لكن

مكتبة الفكر الجديد

طرقا على الباب أيقظه. جلس غير مصدق لما يجري. لكن الطارق طرق الباب مجددا. نعم، ثمة من يطرق الباب وثمة صوت إمرأة يتزامن مع طرقه.

«يا إلهي! هل من الممكن، كما قرأت في سير القديسين، أن يتشكل الشيطان في شكل إمرأة؟ نعم، إنه صوت إمرأة. صوت لطيف مرهف الحس خجول. تفووووو» بصق سيرغيه. «كلا. لقد كان الأمر محض خيال» طمأن نفسه وذهب إلى الزاوية حيث المنضدة[1] وخر على ركبتيه بالطريقة ذاتها التي دأب عليها ووفرت له العزاء والرضا. غاص في حالة من السجود بشعره المتدلي على وجهه ورأسه الذي بدأ يصيبه الصلع ضاغطاً على السجادة الباردة المبللة على الأرضية المعرضة للهواء. وقرأ السفر الذي لقنه إياه الأب بيمون وقال إنه يدرأ الإغراء. بعدها رفع بجسده النحيل الخفيف بسهولة منتصبا على ساقيه القويين محاولا الاستمرار في التسبيح لكنه على نحو غير مقصود أطرق سمعه وأراد أن يسمع المزيد من خلف الباب لكن الصمت كان سيد الموقف. استمرت قطرات الماء بالتسرب والسقوط من زاوية السقف على الحوض في الأسفل. كان الضباب في الخارج يزحف ليعانق الثلج على الهضاب والطرقات. كان الوضع هادئاً هدوء الموتى. لكنه سمع فجأة حفيفا لثوب بجانب النافذة والصوت الدافىء الخجول اللطيف الذي لا

(١) منضدة القراءة: تلفظ أنالوي بالروسية وقد أضاف المؤلف لاحقة إلى آخر الكلمة فجعلها أنالويتشيك ربما ليصبغ الحدث ببعض التهكم (أي مفارقة الكتب الدينية ووجود المرأة الفاتنة خلف الباب)

مكتبة الفكر الجديد

يمكن أن يصدر سوى عن إمرأة حسناء جميلة: «دعني أدخل من أجل المسيح»!

بدا وكأن الدم في عروقه تدفق من كافة الأنسجة والخلايا ليستقر في قلبه. لم يستطع بالكاد أن يتنفس. «فليقم الرب وليبدد شمل أعدائه....»

«لكنني لست الشيطان!» تفوهت المرأة بهذه الكلمات التي صدرت عن شفاه مبتسمة بلا ريب. «لست الشيطان، لكنني إمرأة فاسقة اقترفت الخطيئة وضللت طريقها. أعني ضللت طريقي بالفعل وليس تورية» ضحكت وهي تشرح جزئية الضلال تلك وقالت: «تجمد الدم في عروقي من البرد وأطلب منك إيوائي»

ضغط بوجهه على النافذة لكن القنديل الصغير عكس بنوره على الزجاج وحجب عنه الرؤية. وضع كفيه على جانبي وجهه واسترق النظر إلى الخارج. ضباب وشجرة وهناك إلى اليمين وقفت المرأة. نعم هناك على بعد أمتار قليلة وقفت المرأة ذو الوجه الحسن اللطيف الخائف تعتمر قبعة وتلبس معطفاً طويلاً من الفرو الأبيض تميل باتجاهه. التقت عينا سيرغيه بعيني ماكوفكينا وتعرفت عليها على الفور. لم يلتق الشخصان من قبل لكن من خلال تبادل النظرات، لا سيما نظرة الأب، علما أنهما عرفا وفهما بعضهما البعض. بعد تلك النظرة لم يكن بالإمكان تخيل تلك المراة البسيطة اللطيفة العذبة الخجولة على أنها الشيطان.

«من أنت؟ ولماذا أتيت إلى هنا؟»

«افتح الباب أرجوك!» أجابت بنفس نزق. «أنا متجمدة. قلت لك ضللت الطريق»

مكتبة الفكر الجديد

«لكنني راهب، ناسك»

«يا إلهي! أرجوك افتح الباب. أو ربما رغبت في أن أتجمد هنا تحت نافذتك وأنت تسبح وتصلي؟»

«ولكن كيف عرفت.......»

«لن ألتهمك. دعني أدخل من أجل الرب! لقد تجمدت من البرد»

قالت الجملة الأخيرة بصوت حزين وكأنها تبكي بالفعل. فقد شعرت بالخوف.

تراجع كاساتسكي عن النافذة ونظر إلى أيقونة المسيح المخلص وتاج الشوك الذي يلف رأسه وقال: «يا إلهي، ساعدني! اللهم ساعدني!» رسم إشارة الصليب على صدره وانحنى وبالغ في الإنحناء ثم توجه إلى الباب الداخلي وفتحه على الممر وأمسك بمزلاج / لقاطة الباب الخارجي وبدأ برفعها. سمع الخطى في الخارج فقد توجهت المرأة من النافذة إلى الباب وتنهدت فجأة: «آآآه» وفهم أنها تعثرت واسقطت قدمها في بقعة الماء لدى الباب. البقعة التي سببها سقوط الماء من زاوية السقف. ارتجفت يديه ولم يستطع أن يرفع لقاطة الباب المغلق بإحكام.

«آآه. ما الذي تفعله؟ أدخلني. تبللت من رأسي إلى أخمص قدمي. وتجمد الدم في عروقي. وأنت تفكر في إنقاذ روحك وتتركني أتجمد حتى الموت»

أمسك بالباب وشده ورفع اللقاطة ومن دون التفكير بما كان يفعل دفع الباب بقوة بحيث انفتح إلى الخارج وارتطم بها.

مكتبة الفكر الجديد

«آآه. أرجو المعذرة. سامحيني لم أقصد بتاتا» وعاد إلى صنيعه ومعاملته اللبقة مع النساء.

ابتسمت لدى سماعها «أرجو المعذرة». «فهو، في نهاية المطاف، ليس رجلاً مفزعاً رهيبا» فكرت في نفسها ثم قالت: «لا ضير. أنت من يجب أن يغفر لي. لم يكن لائقا أن أخاطر وأطرق بابك لولا هذه الظروف الاستثنائية»

«تفضلي أرجوك» قالها ووقف جانبا ليتسنى لها الدخول. وعبقت في أنفه رائحة قوية طيبة لم يستنشق مثلها منذ أمد بعيد. دخلت من خلال الردهة وصولا إلى الزنزانة/ القبو/الحجرة الذي يعيش فيه. أوصد الباب الخارجي من دون إقفاله وتبع خطواتها.

«يا إلهي..يا مسيح..يا ابن الرب، انزل علي رحمتك، أنا العبد العاصي! يا رب، ارحم عبدك الخطاء» كرر هذه الدعوات بلا انقطاع ليس في سره فحسب بل بطريقة لاارادية على شفاهه. «أرجوك. تفضلي» كررها مجددا. وقفت في منتصف الغرفة والنداوة تقطر منها على الأرض بينما كانت تمحص هيئته بعيونها الضاحكة.

ثم قالت: «سامحني إن كنت قد عكرت عليك صفو خلوتك. لكنك ترى حالتي. بدأ الرحلة بالمراهنة، حيث انطلقنا من البلدة في رحلة في عربات التزلج وراهنت أصدقائي أنني سأعود إلى البلدة مشيا على الأقدام من فوروبيوفكا. لكنني ضللت الطريق وإذا لم أعثر على مكانك ولم أدخل صومعتك..» بدأت هنا بالكذب لكن وجهه أربكها فلم تستطع الاستمرار فصمتت. لقد كانت صورته في مخيلتها تختلف تماماً عن صورته الحقيقية. فلم يكن وسيما بالقدر الذي تخيلته لكنه بدا جميلا في

عيونها بشعره الأبيض الرمادي ولحيته المعقوصة بعض الشيء وأنفه الدقيق وعيناه اللتان تتوهجان كالجمر عند النظر إليهما. كل ذلك خلف انطباعا قويا لديها.

تبين له أنها تكذب فقال: «نعم، حسنا» ونظر إليها ثم غض بصره وأخفض عيناه. «سأذهب هناك وأترك لك هذا المكان. إنه خاصتك الآن. تصرفي فيه كيفما شئت»

وبعدما أنزل قنديلا صغير الحجم وأشعل شمعة وانحنى لها ثم خرج إلى الحجرة الصغيرة بعد الجدار الفاصل. سمعته يقوم بتحريك شيء ما هناك. «ربما يُمتْرس نفسه خوفا مني» فكرت في سرها وابتسمت ورمت بمعطف الفرو وحاولت نزع قبعتها التي تشابكت مع شعرها ومع الوشاح المحبوك الذي كانت تلفه على رقبتها. لم تكن قد تبللت عندما كانت تقف تحت النافذة بل تظاهرت بذلك ليسمح لها بالدخول. لكنها بالفعل تخبطت في بريكة صغيرة بجانب الباب مما بلل قدمها اليسرى حتى الكاحل وامتلأ حذاؤها بالماء. جلست على سريره الذي كان مجرد مقعد مغطى ببعض السجاد وبدأت بخلع حذائها. بدت الحجرة ساحرة بالنسبة لها. غرفة صغيرة ضيقة (ثلاث أرشينات[1] عرضا بأربع طولاً)، نظيفة كنظافة الزجاج. لم تكن تحتوي على شيء سوى المقعد التي جلست عليه ورف الكتب فوقه ومنضدة القراءة في الزاوية. علق في الزاوية معطف مصنوع من جلد الماعز ورداء كاهن على مسامير في الباب. وفوق منضدة القراءة ضوء شمعة وأيقونة للمسيح معتمراً تاجاً من

---

(١) وحدة قياس روسية (أرشين) تساوي ٢٨ بوصة أو ٧١ سنتمتر.

مكتبة الفكر الجديد

الأشواك. أما رائحة الحجرة فبدت على نحو غريب أشبه برائحة التراب والعرق. أحبت كل شيء في الغرفة حتى الرائحة. قدماها المبتلتين، لاسيما إحداهما، لم يوفرا لها الراحة. فأخذت تخلع حذاءها وجواربها بسرعة وهي مبتسمة. لم تكن راضية تماماً عن تحقيق هدفها لأنها شعرت أنها أضعفت ثقة ذلك الرجل الساحر الغريب الجذاب المدهش بنفسه. «لم يستجب ولكن ما السر؟» حدثت نفسها ثم نادته: «الأب سيرغيه! الأب سيرغيه! أو بم يناديك الناس؟»

«ما خطبك؟» أجاب بصوت هادىء.

«أرجو أن تغفر لي تعكير صفو خلوتك، لكنني لم أستطع، ربما كان علي أن أصاب بالبرد والمرض. ولا أدري ما عساي فعله الآن، فجسدي مبلل وقدماي كالجليد».

«سامحيني، لا أستطيع تقديم أي مساعدة»

«لم أكن لأزعجك لو استطعت التصرف، سأبقى هنا فقط ريثما يطلع النهار»

لم يُجب بل سمعته يتمتم بشيء ما. ربما أدعيته.

«لن تأتي إلى هذه الحجرة، صحيح؟ لأنني سوف أنزع ملابسي لأجفف جسدي»

لم يُجب بل استمر في قراءة أدعيته.

«نعم، هو بالفعل رجل» فكرت في نفسها بينما كانت تخلع حذاءها بصعوبة، حاولت بكل قواها نزعه لكن دون فائدة، دهشت لسخافة الموقف وبدأت بالضحك بصوت خافت غير مسموع تقريبا. لكنها علمت أنه سيسمع ضحكاتها لا محالة وسوف يتأثر بها لأنها كانت

مكتبة الفكر الجديد

ترغب بذلك، فبدأت بالضحك بصوت أعلى. وبالفعل، فقد تأثر الأب بضحكاتها الطبيعية اللطيفة المرحة، كما أرادته أن يتأثر.

«نعم، باستطاعتي أن أقع في غرام رجل كهذا بعيونه الرائعة ووجهه البسيط النبيل وشغفه أيضاً رغم تلك الأدعية التي ما فتىء يكررها!» فكرت في نفسها ثم قالت بينما نجحت في خلع حذائها أخيراً وبدأت بنزع جواربها «لا يمكنك أن تخدع إمرأة بهذه الأمور، فبمجرد ما وضع وجهه على النافذة ورآني فهم المسألة وعرف سبب قدومي، رأيت اتقاد ذلك الحب والرغبة الجياشة في عينيه، لقد بدأ يحبني ويشتهيني، نعم يشتهيني». ولكي تنزع تلك الجوارب الطويلة المربوطة بأربطة مطاطية كان من الضروري رفع الجزء الأسفل من فستانها/ تنورتها، شعرت عندها بالخجل وقالت:

«لا تدخل!»

لكنها لم تحصل على إجابة من الجانب الآخر للجدار. فتمتمته استمرت بلا انقطاع مع صوت حركة ما في هذه المرة.

«لابد أنه يسجد على الأرض، لا ريب» فكرت. «لكن ذلك السجود والركوع لن يساعده، فهو يفكر بي الآن كما أفكر به تماماً، وهو يفكر بقدماي الحلوتين ويعتريه الشعور ذاته». نزعت الجوارب المبتلة ورفعت قدميها ووضعتهما على المقعد وجلست لبعض الوقت وذراعيها تلتفان على ركبتيها واستغرقت في تفكير عميق ثم قالت: «لكن المكان هنا مهجور وخاو كالصحراء... وفي هذا الصمت لن يعرف أحد بما دار بيني وبينه...»

نهضت وأخذت جواربها واتجهت نحو المدفئة ووضعتهما على

مكتبة الفكر الجديد

ملقط بابها لتجفيفها. حتى ملقط فوهة المدفئة كان غريبا. وضعت الجوارب وعادت بلطف تمشي بقدميها العاريتين إلى المقعد وجلست هناك ورفعت قدميها مجددا، صمت مطبق على الجانب الآخر من الجدار. نظرت في الساعة الصغيرة المتدلية من جيدها، أشارت الساعة إلى الثانية صباحاً سيعود المحتفلون في الثالثة» لديها ساعة تمضيها في هذا المكان إذاً حسن، هل ينبغي علي الجلوس هكذا لوحدي؟ هذا غير منطقي! لا أريد أن أجلس بمفردي. سأستدعيه في الحال»

«الأب سيرغيه، الأب سيرغيه! سيرغيه ديميتريتش! الأمير كاساتسكي!» صمت يخيم على الجانب الآخر.

«اسمع! هذا فظيع! لم أكن لأناديك لولا أني بحاجة ملحة لذلك، أنا أشعر بالتوعك، لا أدري ما هو مصابي» قالت ذلك بنبرة معاناة. «آآه! آآآه!» تأوهت ورمت بنفسها على المقعد، ومن الغريب أنها بالفعل شعرت بأن قواها لم تعد كما كانت، إذ أصبحت ضعيفة وبدأت تشعر بالدوار وشعرت بأن كل شيء فيها يؤلم وكانت ترتجف من الحمى

«اسمع! ساعدني! لا أدري ماذا أصابني. آه. آه». فكت رباط فستانها العلوي وكشفت عن صدرها ورفعت ذراعاها العارتين حتى المرفقين وأخذت بالتأوه: «آآآه. آآه».

وقف الأب سيرغيه طوال تلك الفترة على الجانب الآخر من الجدار يصلي. وبعد انتهائه من جميع أدعية المساء وقف الآن بلا حراك ينظر بعينيه إلى طرف أنفه ويردد في عقله الباطن بكل جوارحه: «أيها الرب يسوع، عيسى المسيح، ابن الرب، تغمدني برحمتك»!

لكنه سمع كل شيء. سمع حفيف الحرير عندما نزعت فستانها

مكتبة الفكر الجديد

وسمع وقع قدميها العاريتين عندما وطئتا الأرض وسمع كيف فركت/ مسدت/ دعكت/ قدميها بيدها. شعر بضعفه وشعر بأنه قد يضيع في أية لحظة. ولهذا كان يصلي باستمرار. شعر كما شعر بطل القصة الخرافية الذي كان يركض ويركض من دون أن يلتفت إلى الوراء. شعر سيرغيه إذا بأن الخطر والدمار يحومان حوله وأن باستطاعته الخلاص فقط عندما يمتنع عن النظر إلى ذلك الاتجاه ولو للحظة. ولكن، وعلى نحو مفاجيء، سيطرت عليه رغبة النظر في ذلك الاتجاه بينما قالت المرأة في ذات اللحظة «هذا غير إنساني. قد ألقى نحبي هنا!»

«نعم، سأذهب إليها ولكن سأقوم بما قام به القديس الذي وضع يداً على الزانية وأدخل الأخرى في كانون الجمر، لكن لا يوجد كانون هنا» نظر حوله وتفحص المكان، المصباح/ القنديل. وضع إصبعه فوق الشعلة وقطب حاجبيه واستعد للمعاناة، ولفترة طويلة، كما بدا له، لم يشعر بأي إحساس، لكنه فجأة، رغم أنه لم يقرر إذا كان الأمر مؤلماً بما فيه الكفاية، نفض يده بعيدا وتلوى ألما وأخذ يلوح بيده في الهواء لتخفيف الألم «كلا! لا أستطيع تحمل ذلك!»

«من أجل الرب! تعال إلي. إنني أموت! آآه!»

«هل سأفنى هنا؟ كلا، ليس بهذه الطريقة»

«سآتي إليك حالاً» وبعد أن فتح الباب دخل من دون أن ينظر إليها ومر في الحجرة حتى وصول إلى الممر حيث تعود أن ينشر الحطب هناك. وجاء بعقب خشب وفأس كانت موضوعة على الجدار.

«حالا» قال لها، واستل الفأس بيمينه ووضع سبابة اليد اليسرى على قطعة الخشب رافعا الفأس وانهال بها على إصبعه مستهدفا ما تحت

مكتبة الفكر الجديد

المفصل الثاني بضربة واحدة. انفصل اصبعه وطار بخفة أخف من طيران عصا شبيهة السماكة وقفز وارتطم بطرف قطعة الخشب وسقط بعدها على الأرض.

سمع سقوطه قبل أن يشعر بأي ألم ولكن قبل أن يتسنى له الاندهاش مما حصل، شعر بألم حارق ودفء الدم المتدفق.

لف الجدعة بسرعة مستخدما تنورة رداء الكاهن وضغط عليها على وركه وعاد إلى الغرفة ووقف أمام المرأة وغض بصره وسأل بصوت خافت «ماذا تريدين؟»

نظرت إلى وجهه الشاحب وخده الأيسر المرتعش وشعرت بالعار فجأة، نهضت وأمسكت بمعطفها وألقته على كتفيها وتلحفت به.

«كنت أتألم..... أصبتُ بنزلة برد... أنا...... الأب سيرغيه... أنا...»

نظر إليها بعيون تشع بفرح هادىء لطيف وقال:

«أختي العزيزة، لماذا أردت أن تدمري روحك الخالدة؟ تعصف الفتن بعالمنا لكن الويل لمن يثير نار الفتنة ويحرك مياهها الراكدة. ادعي الله لعله يغفر لنا!»

أصغت وهي تنظرإليه، ثم سمعت صوت شيء يقطر. نظرت إلى الأسفل ورأت الدم يتدفق من يده ومن ردائه.

ماذا فعلت بيدك؟ وتذكرت الصوت الذي سمعته فأخذت الشمعة وهرعت نحو الردهة، هناك على الأرض، رأت الإصبع المخضب بالدم. عادت ووجهها شاحب أكثر من شحوب وجهه، أرادت أن تتحدث إليه لكنه انسحب إلى الحجرة بصمت وأغلق الباب.

مكتبة الفكر الجديد

«اغفر لي» صرخت «كيف لي أن أكفر عن خطيئتي؟»

«إرحلي»

«دعني أضمد جرحك»

«إرحلي من هنا»

ارتدت ملابسها بسرعة وصمت وما إن جلست تنتظر القافلة حتى سمعت أجراس المزلقة والعربة خارج الصومعة.

«اغفر لي أيها الأب سيرغيه»

«إذهبي. الله سوف يغفر لك»

«الأب سيرغيه. سأغير من مسار حياتي. لا تتخلى عني!»

«إذهبي»

«سامحني وباركني ببركتك!»

«باسم الأب والابن والروح القدس!» سمعت صوته من خلف الجدار «إنصرفي»

أجهشت بالبكاء وغادرت الحجرة، أتى المحامي ليلاقيها.

«حسن، أرى أنني خسرت الرهان، لا فائدة، أين ستجلسين؟»

«لا فرق عندي»

جلست في مكانها ولم تنبس ببنت شفة طوال الطريق إلى البلدة.

و بعد سنة دخلت الدير كراهبة مبتدئة وعاشت حياة متقشفة صارمة بتوجيهات من الناسك أرسيني الذي كان يراسلها بين فترة وفترة تطول المدة بينهما.

مكتبة الفكر الجديد

VI

عاش الأب سيرغيه كرجل متوحد منعزل متصومع ناسك لسبع سنوات أخرى.

في البداية كان يقبل جل ما يحضره له الناس ـ من شاي وسكر وخبز أبيض وحليب وملابس وحطب. لكن مع مرور الأيام وتوالي الليالي أصبح أكثر تقشفا رافضا كل شيء يزيد عن الحاجة وأخيراً رفض كل شيء سوى خبز الجاودار/ الردة مرة في الأسبوع. وكان يوزع كل شيء آخر على الفقراء الذين كانوا يزورونه. أمضى كل وقته في الحجرة يصلي ويبتهل ويستقبل الزوار الذين ازدادت أعدادهم يوما بعد يوم. كان يذهب إلى الكنيسة ثلاث مرات في السنة فقط ويذهب لجمع الماء والحطب متى استدعت الحاجة.

حصلت قصة ماكوفكينا بعد خمس سنوات من عزلته وتنسكه، وقد أصبحت تلك الحادثة معروفة لدى العامة. زيارتها الليلية والتغير الذي طرأ على حياتها وانضمامها إلى الدير... إلخ. ومنذ تلك الحادثة سطع نجم الأب سيرغيه، إذ تردد عليه المئات من الزوار وأتى رهبان آخرون واستقروا بجانب صومعته وبنيت كنيسة ومضافة بالقرب منه أيضاً. وفي ظل المبالغة بأعماله البطولية وكراماته، طارت شهرته فملأت كل

مكتبة الفكر الجديد

الآفاق، وبدأ الناس يتقاطرون عليه ويحضر بعضهم أشخاصاً مقعدين من ذوي الإعاقة يزعمون أنهم يشفون على يد الأب سيرغيه.

شفي صبي يبلغ من العمر أربعة عشر عاما على يده في السنة الثامنة من حياة الأب كناسك. أحضرت الأم ابنها إلى الأب سيرغيه وأصرت على أن يضع يديه على رأس ابنها. لم يخطر في بال سرغيه أن بإمكانه أن يشفي المرضى. فقد اعتبر مجرد التفكير بهذا الأمر كبيرة من كبائر الغرور والكبر. لكن الأم تضرعت له وألحت عليه وسقطت عند قدميه وقالت «لماذا ترفض مساعدة ابني بينما تعالج الآخرين». استجدته باسم المسيح، وعندما طمأنها الأب سيرغيه وقال أن الشافي هو الله وحده أجابت بأنها تريد منه فقط أن يضع يديه على رأس الفتى ويصلي له ويدعو الرب لشفائه. رفض الأب ذلك وعاد إلى حجرته. ولكنه وفي اليوم التالي أراد أن يجمع بعض الماء، وفي طريقه إلى البئر رأى المرأة ذاتها مع ابنها شاحب الوجه سقيم الهيئة. ناشدته مرة أخرى، وتذكر الأب سيرغيه قصة القاضي الظالم(١) كما جاءت في الإنجيل وفكر في أنه في السابق قد شعر أن عليه أن يرفض ذلك ولكنه الآن بدأ يشعر ببعض الشك، ولذا بدأ يدعو ويدعو حتى اتخذ القرار في سريرته، وقرر

---

(١) إنجيل لوقا (الإصحاح ١٨): «وقال لهم أيضاً مثلاً في أنه ينبغي أن يصلى كل حين ولا يمل. قائلاً كان في مدينة قاض لا يخاف الله ولا يهاب إنساناً. وكان في تلك المدينة أرملة وكانت تأتي إليه قائلة انصفني من خصمي. وكان لا يشاء إلى زمان ولكن بعد ذلك قال في نفسه وإن كنت لا أخاف الله ولا أهاب إنساناً. فإني لأجل أن هذه الأرملة تزعجني انصفها لئلا تأتي دائماً فتقمعني. وقال الرب اسمعوا ما يقول قاضي الظلم. أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً وهو متمهل عليهم. أقول لكم أنه ينصفهم سريعاً ولكن متى جاء ابن الإنسان ألعله يجد الإيمان على الأرض.» (المترجم)

مكتبة الفكر الجديد

أن ينزل عند طلبها وأن إيمانها قد ينقذ ابنها. أما الأب سيرغيه فهو مجرد أداة لا وزن لها اختارها الله لشفاء الصبي.

توجه إلى المرأة ولبى طلبها ووضع يديه على رأس الصبي وأخذ يدعو ويصلي.

غادرت المرأة مع ابنها وبعد شهر من تلك الزيارة شفي الصبي. وبالتالي، انتشر الخبر في كافة أرجاء المقاطعة وتعززت بذلك قدرات الشيخ المرشد سيرغيه (هكذا أصبح الناس ينادونه) المباركة في شفاء الآخرين. بعد ذلك، لم يمر أسبوع على الأب لم يخلو من زيارة مريض يأتي راكبا أو على الأقدام. وبما أن الأب قدم خدمته للمرأة وابنها فلم يستطع أن يرفض الآخرين حيث بدأت بركته تنتشر عند الآخرين من خلال الرقية التي كان يقرؤها على رؤوسهم. وشفي الكثيرون وزادت شهرته أكثر فأكثر.

مرت سبع سنوات في الدير وثلاث عشرة في حجرته/ صومعته. ظهر بمظهر الشيخ المرشد الآن. فلحيته نمت وغدت طويلة بيضاء رمادية لكن شعره رغم قصره كان لايزال متجعدا أسود.

مكتبة الفكر الجديد

VII

كان الأب سيرغيه خلال الأسابيع الماضية يفكر دائماً وأبدا بمدى صحة قبوله للمنصب الذي لم يسعى إليه شخصيا كما سعى في تقليده له رئيس الدير والآرشمندريت. حصل ذلك بعد أن تعافى على يد الأب سرغيه ذلك الصبي. ومنذ ذلك الوقت ومع مرور كل شهر وأسبوع ويوم كان الأب يشعر بأنه يفقد حياته وطمأنينته الداخلية ويعوضها بحياة خارجة عن نطاق سكينته. كان الأمر وكأن كيانه قد قلب رأسا على عقب.

اكتشف أنه أصبح وسيلة لاجتذاب الزوار وبالتالي جمع التبرعات التي تصب في خزينة الدير. وهكذا، رتبت سلطات الدير الأمور حتى تعزز الإستفادة منه قدر المستطاع. فعلى سبيل المثال، جعلوا من أمر قيام الأب سيرغيه بأية أعمال أمراً مستحيلاً وزودوه بكل ما يحتاج إليه وطلبوا منه أن لا يبخل ببركاته على أولئك الذين يسعون لها. وقد حددوا أياما معينة يستقبل فيها الزوار حسب راحته، كما رتبوا غرفة استقبال خاصة بالرجال ومكان مسوّراً بدرابزين لكي يتجنب تدافع جموع النساء الزائرات ولكي يستطيع مباركة الجميع براحة ومن دون إزعاج.

أخبروه بأن الناس بحاجة إليه وأن الالتزام بقانون المسيح في نشر المحبة يقتضي قبوله طلبات مرتاديه وأن تجاهلهم سيكون أمراً قاسياً. لم

مكتبة الفكر الجديد

يكن الأب سيرغيه يعارض مبادىء كهذه لكنه شعر أنه كلما استسلم لحياة كهذه شعر أكثر فأكثر أن باطنه تحول إلى ظاهره وأن نافورة الحياة الروحية الداخلية بدأت تجف وأن ما يقوم به الآن هو من قبيل خدمة الآخرين وليس خدمة الله والإخلاص في العمل لوجهه فحسب. وبغض النظرعن الخدمة التي قد تكون عظة أو بركة أو دعاء أو صلاة أو نصيحة أو سماعا لتعابير الحمد والثناء من قبل أولئك الذين ساعدهم على الشفاء أو الصدقة أو الوصية، لم يحل دون شعوره بالسعادة الدنيوية ولم يحل دون اهتمامه بالنتائج التي تمخضت عن بركته والتأثير العظيم على الناس من خلالها. اعتبر نفسه كنجم مضيئ وكلما ازداد شعوره بنجوميته غدا أكثر دراية بضعف وذبول النور الإلهي، نور الحقيقة الذي سطع في روحه. «كم هو مقدار الأعمال التي أبتغي فيها وجه الله وكم هي نسبة تلك التي أرائي فيها الناس؟» ذاك السؤال الذي قض مضجعه على الدوام، السؤال الذي كان يعلم الإجابة عنه في سريرته لكنه لم يقوى على مجابهته. ففي أعماق أعماقه علم أن الشيطان قد ساعد على استبدال العمل لوجه الناس، بالعمل لوجه الله. علم ذلك لأن صعوبة التخلص من العزلة في السابق تحولت إلى صعوبة العودة إليها الآن. تقاطر عليه الناس طالبين بركاته ورغم شعوره بالضغط والإجهاد بسببهم إلا أنه كان في أعماق قلبه يشعر بسعادة لوجودهم وحاجتهم إليه ومدحهم وإطرائهم الذي انهال عليه.

قرر في مرحلة ما أن يهجر المكان ويختفي، حتى أنه وضع خطة للإيفاء بذلك، فقد جهز لنفسه قميص فلاح وبنطال ومعطف وقبعة. قال إنه يريد هذه الحاجيات ليمنحها للمحتاجين، لكنه أبقى على تلك الملابس في حجرته وخطط أن يقص شعره ويرتدي ملابس الفلاحين

مكتبة الفكر الجديد

ويهرب. فكر أولا أن يقطع ٣٠٠ فرسخ بالقطار بعدها يترجل من القطار من قرية إلى أخرى.

سأل رجلاً عجوزا كان جنديا في شبابه عن رحلة تشرده وكيف تنقل مشيا على الأقدام من مكان إلى آخر ومن آواه وفي أية بلدة. أخبره الجندي أين يقطن أكرم الناس ومن يتصدق ومن يؤوي المتشردين السائحين الجوالين. وهكذا رغب الأب سيرغيه باستغلال هذه المعلومات، حتى أنه ارتدى تلك الملابس الفلاحية في ليلة من الليالي وأراد أن يهجر المكان لكنه وقع في حيرة من أمره ولم يستطع أن يحسم الموقف بين أفضلية الهروب أو المكوث. تردد في اتخاذ القرار أولا. بعدها، تبدد هذا التردد إذ اعتاد على الوضع الجديد وأذعن للشيطان واستمر الوضع على ما هو عليه وأصبحت ملابس الفلاح تذكاراً له يدل على مشاعره وأفكاره في تلك الفترة.

تكاثر عدد الزوار يوميا وضاق وقت الصلاة والتأمل الروحي أكثر فأكثر. وفي بعض الأحيان وأثناء لحظات التجلي فكر الأب أنه أصبح كمكان زاره الربيع ثم تخلى عنه. ثمة نبع ضعيف من المياه العذبة تدفق بهدوء من داخلي ومن خلالي. كانت تلك الحياة الحقة في الوقت الذي كانت «هي» (دائماً ما كان يفكر في تلك الليلة بنشوة عارمة. أما الآن فهي أصبحت الأم آنيا) مصدر الإغراء والفتنة. لقد ذاقت طعم المياه العذبة الصافية. لكن منذ تلك الحادثة لم يكن ثمة متسع للماء العذب أو لجمعه قبل أن يأتي العطشى يتدافعون ويتجمهرون. وقد داسوا كل شيء ولم يبق سوى الطين المبلل. هكذا كان يفكر في لحظات التجلي النادرة.

مكتبة الفكر الجديد

لكن شأنه في معظم الأوقات كان يعكس روحاً مجهدة يشفق على نفسه منها.

في الربيع، عشية منتصف عيد **العنصرة/ الخمسين**، كان الأب سيرغيه يباشر قداس ليلة الشموع في الكنيسة التي بنيت بالقرب من الصومعة، تلك الكنيسة الصغيرة التي احتوت ليلتها على عشرين من الرعية كحد أقصى بسبب صغر حجمها. كانت الرعية مؤلفة من ملاك أراضي أو تجار ميسورين. كان الأب سيرغيه يدخل الجميع لكن كوكبة من الزوار اختيرت من قبل الراهب ومساعده الذي أرسل إلى الكنيسة آتيا من الدير في كل يوم. جمع مجموعة من نحو ثمانين شخصاً، جلهم من النساء الفلاحات السائحات وقفن خارج الكنيسة في انتظار خروج الأب سيرغيه لمباركتهن. بينما كان الأب يقوم بأداء القداس، وفي الفترة التي خرج فيها إلى قبر سلفه ترنح وكاد أن يقع لولا أن تاجراً كان يقف خلفه وراهباً يعمل كشماس الكنيسة أمسكاه.

«ما خطبك أيها الأب سيرغيه؟ يا عزيزي! يا إلهي! انظروا إلى لونه الشاحب!» تساءلت المرأة.

لكن الأب تعافى على الفور، ورغم شحوب وجهه إلا أنه أومأ بيده ليتنحى التاجر والراهب جانبا واستمر في أداء القداس. توسل إليه كل من الأب سيرابيون والشماس ومساعدو الكهنة وصوفيا إيفانوفنا، السيدة التي كانت تعيش بالقرب من الصومعة وتخدمه، كلهم توسلوا إليه لينهي القداس.

«كلا، لا عليكم» أجاب الأب سيرغيه مبتسما ابتسامة شاحبة من تحت شاربيه واستمر في القداس وفكر في سره «نعم، هكذا يتصرف القديسون»

مكتبة الفكر الجديد

«قديس، ملك من السماء!» سمع صوت صوفيا إيفانوفنا تتمتم خلفه وصوت التاجر أيضاً الذي حال دونه ودون الوقوع. لم يكترث بمجاملاتهم لكنه استمر بتأدية القداس. وهكذا، عادت الجموع مجددا إلى الكنيسة من خلال الممرات الضيقة وهناك أنهى الأب سيرغيه قداس المساء رغم أنه كان مقتضبا بعض الشيء.

وفور انتهائه من القداس وإعلانه التبريكات على الحاضرين ذهب الأب سيرغيه إلى مقعد تحت شجرة الدردار على مدخل الكهف. ورغب في تناول قسط من الراحة وتنفس الهواء العليل الذي شعر أنه بحاجة إليه لكنه حالما غادر الكنيسة تبعه جمهور من الناس يريدون تبريكاته ونصائحه ومساندته. ثمة نساء سائحات يتجولن من مكان مقدس إلى آخر ومن شيخ مرشد إلى آخر تراهم دائماً يتبعون جميع الشيوخ المرشدين ويقفون عند مداخل الأضرحة.

عرف الأب سيرغيه هذا النوع الشائع من العامة غير المتدينين التقليديين الباردين. فثمة رجال سائحون أيضاً جلهم من الجنود المسرحين، الذين لم يألفوا الحياة المستقرة، والفقراء والمسنين السكارى الذين تجولوا من دير إلى دير مشيا على الأقدام ليستطعموا أهل الأديرة فحسب. كما أن هناك فلاحين وفلاحات من النوع الفظ العاصف الخشن قدموا بطلبات خاصة أنانية يسعون فيها لى شفاء مريض أو تزويج فتاة أو استئجار محل أو شراء قطعة أرض أو السؤال عن كفارة وأد طفل أو انجاب لقيط.

كل ذلك كان قصصاً قديمة لم تكن تثير اهتمامه البتة، إذ علم أنه لن يسمع شيئاً جديداً يأتي به هؤلاء القوم ولن يحركوا فيه أية مشاعر دينية.

مكتبة الفكر الجديد

لكنه أحب أن يرى الجموع التي باركها ونصح لها، رغم أنهم كانوا يضيقون عليه في كثير من الأحيان، وسرته حاجتهم تلك للبركات والنصائح التي كانت ضرورية وثمينة في نظرهم. بدأ الأب *سيرابيون* بسد الطريق عليهم قائلاً أن الأب سيرغيه منهك جدا. لكن الأخير، مستذكراً كلمات الإنجيل: «لا تمنعهم (الأطفال) من القدوم إلي»، شعر برقة في الأحاسيس وقال أنه لا ضير في استقبالهم.

قام الأب وذهب إلى الدرابزين الذي تجمع خلفه الجمهور وبدأ يباركهم ويجيب عن أسئلتهم ولكن بصوت خافت ضعيف أثار الشفقة على نفسه. ورغم رغبته بتلبية حاجاتهم جميعاً لم يستطع فعل ذلك. بدأت تظهر الغشاوة على عينيه من جديد وترنح وقبض على الدرابزين خشية السقوط وشعر بتدفق الدم في عروق رأسه وامتقع لونه بالشحوب وفجأة اندفع الدم في عروق وجه الذي تحول إلى اللون الأحمر «يجب أن أترك الباقي ليوم الغد، لا أستطيع فعل المزيد» وبعد أن أعلن عن منح البركة العامة لهم جميعاً عاد إلى المقعد وسانده التاجر مجددا، إذ أمسك ذراعه وساعده في الجلوس.

«أبانا!» صدح صوت من الجمهور، «أبانا العزيز! لا تتخلى عنا، من دونك نحن ضائعون.!»

اضطلع التاجر، بعد مساعدته للأب سيرغيه في جلوسه على المقعد تحت شجرة الدردار، بمسؤولية الشرطة وأبعد الناس بحزم. بالفعل، لقد تحدث التاجر بصوت خافت خشية أن يسمعه الأب سيرغيه، لكن كلماته كانت غاضبة حاسمة.

«انصرفوا! انصرفوا! لقد بارككم الأب للتو، ماذا تريدون بعد؟» هيا.

مكتبة الفكر الجديد

تحركوا وإلا لويت/ عصرت/ أقحمت أعناقكم! تحركوا! بسرعة! أنت، أيتها العجوز ذات الرباط القذر على الساق! تحركي! هيا! ماذا تريدون أكثر مما حصلتم عليه؟ قيل لكم أن القداس انتهى! إن غدا لناظره قريب. تعالوا غدا بإذن الله. خدمة اليوم انتهت! هيا!

قالت إحدى العجائز: «يا أبت! دعنى أكحل ناظري بوجهه الصبوح فقط؟»

«أنا الذي سأكحل عينيك البائستين الآن. انصرفي. كفى»

لاحظ الأب سيرغيه أن التاجر ربما كان يتصرف بخشونة مع الرعية وبصوت خافت قال لمساعده أن الناس لا ينبغي طردهم بهذه الطريقة. علم بالطبع أن الجمهور سيطرد لا محالة عاجلا أم آجلاً لكنه أراد أن يرسل رسالة يعزز فيها من حضوره لتشكل انطباعاً ساحراً إضافياً على الناس.

«حسن! حسن! أنا لا أطردهم، أنا أحتج على تصرفاتهم فحسب. أنت تعلم أنهم لن يترددوا في دفع الرجل إلى حافة الموت. عديموا الشفقة، يلهثون وراء مصالحهم فحسب. قلنا لكم أن القداس قد توقف اليوم، قلنا لكم أنكم لا تستطيعون رؤية الأب اليوم. انصرفوا! تعالوا غداً» وهكذا تخلص التاجر منهم جميعاً.

تكبد التاجر كل هذا العناء في طرد الجمهور لأنه يحب النظام ويحب الاستبداد بالناس ودفعهم بعيدا. ليس هذا فحسب، بل السبب الرئيسي وراء كل ذلك العناء أنه أراد أن يختلي بالأب سيرغيه لوحده. فقد كان أرملا ولديه ابنة تعاني من الإعاقة وغير متزوجة. وقد أحضرها معه لعلها تشفى على يد الأب سيرغيه قاطعا مسافة ألف وأربعمائة

مكتبة الفكر الجديد

فرسخ. وقد أمضى السنتين الماضيتين يتنقل من مكان إلى آخر طالبا العلاج. ذهب أولا إلى عيادة الجامعة في بلدة رئيسية في المقاطعة ولكن بدون فائدة ومن ثم توجه إلى طبيب في موسكو دفع له أموالا طائلة وبدون فائدة أيضاً. أما الآن فقد قيل له أن الأب سيرغيه يشفي المرضى فأتى إليه. وهكذا، وبعد ذهاب الجمهور اقترب التاجر من الأب سيرغيه وجثى على ركبتيه عند قدمي الأب وصرخ بصوت عال:

«أبانا الروحي! بارك ذريتي المريضة لكي تشفى من آفتها. أتوسل إليك. أجرؤ على السجود عندك قدميك المقدستين» وطوى يديه توسلا وتضرعا. قال ما قاله وفعل ما فعله وكأنه كان يقوم بأمر قد نصّ عليه القانون والعرف بوضوح وصرامة وكأن المرء ينبغي أن يطلب شفاء ابنته بالطريقة التي اتبعها لا بأي طريقة أخرى. توسل التاجر إلى الأب بطريقة مقنعة استثنائية لدرجة أنها نالت إعجاب الأب سيرغيه بحيث اعتقد أنها الطريقة المثلى لهذا المقام. ومع ذلك، طلب الأب من التاجر الوقوف على قدميه ليخبره عن المسألة. شرح التاجر أن ابنته التي تبلغ من العمر اثنين وعشرين عاما كانت قد وقعت في براثن المرض منذ سنتين بعد موت أمها المفاجىء. بحيث بدأت بالنحيب والأنين منذ ذلك اليوم. وقد ازداد الأمر سوءاً. وقد قطع أربعة عشر ألف فرسح وأحضرها معه وهي الآن تنتظر في بيت الضيافة حتى يأمر الأب برؤيتها. لم تخرج من البيت في النهار لأنها تخشى الضوء وتستطيع الحضور بعد الغروب فقط.

«هل هي في حالة وهن وضعف شديدين؟» سأله الأب

«كلا، لا تعاني من الوهن. فهي ممتلئة الجسم لكنها تعاني من ضعف في الأعصاب وبعض الاكتئاب أيضاً كما يقول الطبيب. فقط لو

مكتبة الفكر الجديد

سمحت لي أن أحضرها هذا المساء، أيها الأب سيرغيه سأطير كعفريت الجن لأحضرها. أعد الحياة لقلب أبيها، قداستك. أعد الحياة لنسله وانقذ ابنته بصلواتك». ومرة أخرى، جثى التاجر على ركبتيه وأشاح برأسه جانباً باتجاه يداه المطويتان وتجمد مكانه مرة أخرى. طلب منه الأب أن يقف على قدميه وبينما فكر الأب بثقل المجهود التي قام بها اليوم وكيف صبر على الرعية، تنهد بعمق وبعد لحظات صمت قال: «حسن، أحضرها في المساء، سأدعو لها، لكنني متعب الآن» وأغمض عينيه، «سأرسل في طلبها».

غادر التاجر بخفة على رؤوس أصابعه وهذا ما جعل حذاءه يصدر أصواتا أعلى مما لو مشي على عادته وبقي الأب سيرغيه بمفرده.

كانت حياة الأب سيرغيه حافلة بالصلوات والقداسات والزوار والمريدين، لكن اليوم كان يوما مختلفا تماماً عن جميع الأيام السابقة. فقد أتى في الصباح مسؤول مهم وتحادث مع الأب مطولا ثم أتت إليه أم مع ابنها الذي كان أستاذاً جامعياً ملحداً أرادت أمه المؤمنة، المخلصة للأب سيرغيه أن يتحدث معه. وقد كانت المحادثة مرهقة شاقة. ومن الواضح أن الأستاذ الشاب لم يرد أن يثير جدلاً مستعراً مع الراهب، وافق معه على جميع ما قال وكأن الأب بالنسبة له رجلاً متخلفا عقليا ودون مستواه الفكري. اكتشف الأب أن الشاب لم يكن مؤمنا لكنه مع ذلك كان راضيا مطمئنا ومرتاحا. تلك المحادثة أقلقت الأب الآن.

«هل ترغب ببعض الطعام، أبانا!» قال خادمه

«حسن، أحضر شيئاً منه»

مكتبة الفكر الجديد

ذهب الخادم إلى كوخ كان قد بني على بعد عشرة خطوات من الكهف وبقي الأب سيرغيه بمفرده.

لقد مضى وقت طويل الآن على عيش الأب بمفرده، حينها كان يخدم نفسه بنفسه ويأكل خبز الجاودار أو أقراص خبز صنعت للكنيسة. وقد نصح منذ ذلك الحين بعدم إهمال صحته ووفر له طعام مفيد صحي شريطة أن يكون ملائما للصوم. تناول الأب طعامه على نحو غير منتظم لكنه تناول كميات أكثر مقارنة بالسابق. كما أنه أصبح يتمتع بالطعام مقارنة مع عزوفه عنه في السابق وشعوره بالذنب لدى تناوله. وهكذا، تناول اليوم بعضا من العصيدة وشرب كوبا من الشاي وأكل نصف قرص خبز أبيض.

انصرف الخادم وبقي الأب سيرغيه بمفرده تحت شجرة الدردار.

كان أمسية رائعة من أمسيات شهر مايو حيث اكتست الأوراق الخضراء شجر الدردار والكرز والبلوط والبتولا والحور. شجيرات الكرز البري خلف شجرة الدردار كانت جميع براعمها متفتحة ولم تبدأ بعد أزهارها بالسقوط. عندليب غرد بالقرب من المكان واثنان أو ثلاثة آخرين في الشجيرات بجانب النهر بدأت ترتعش بأصواتها معلنة مقدمة المعزوفة ثم ما لبثت أن أنشدت المقطوعة كلها دفعة واحدة. وعند النهر تناهى إلى مسامع الأب أصوات الفلاحين وهم يغنون عائدون من أماكن عملهم. كانت الشمس تغرب وراء الغابة وبقيت أشعتها تنفذ من خلال أوراق الشجر. كل ذلك الجانب كان مخضراً بهياً رائعاً أما الجانب الآخر حيث شجرة الدردار فقد كان معتما. أما الخنافس الكبيرة فكانت تطير على غير هدى وتقع على الأرض عندما ترتطم بشيء ما.

مكتبة الفكر الجديد

بعد طعام العشاء، بدأ الأب سيرغيه بإعادة دعاء بصوت خافت «أيها الرب، يسوع المسيح. يا ابن الرب. ارحمنا!» بعد ذلك قرأ ترنيمة من الكتاب المقدس وفجأة في منتصفها طار عصفور من الشجيرة وحط على الأرض وقفز باتجاهه وهو يزقزق ولكنه فزع من شيء ما وطار. قرأ الأب صلاة تشير إلى نبذ العالم الدنيوي وأسرع في إنهائها لكي يرسل في طلب التاجر وابنته. فقد أثارت الإبنة اهتمامه لأنها وجه جديد سيلهيه عن المسائل الأخرى. ولأنها ووالدها كانا يعتبرانه قديسا ذو أدعية فعالة مؤثرة مستجابة. وهو كان ينكر تلك الفكرة ظاهريا بينما يؤمن بها في داخله.

كان الأب سيرغيه مندهشاً في غالب الأحيان لما آلت إليه حياته، فقد تحول ستيبان كاساتسكي إلى نوع فريد من البشر، تحول إلى قديس استثنائي صاحب كرامات ومعجزات. اندهش الأب من كل ذلك لكنه لم يساوره شك في مكانته التي وصل إليها إذ لم يكن ليخطأ الإيمان بالمعجزات التي حصلت على يديه شخصيا ابتداء من الفتى المريض وانتهاء بالمرأة العجوز التي رُد إليها بصرها بعد أن قرأ الأدعية على رأسها.

وهكذا كان الأمر رغم غرابته، وبالتالي فإن ابنة التاجر أثارت فيه اهتماماً خاصاً كونها شخصاً جديداً يؤمن بقدراته وسانحة جديدة للتأكيد على قدراته العلاجية وتعزيز شهرته. «يأتون بالناس من مناطق تبعد آلاف الفراسخ ويكتبون عن قصصهم في الصحف. يعلم الإمبراطور بذلك ويعرف الناس في أوروبا عن ذلك. أوروبا غير المؤمنة» فكر الأب في نفسه. وفجأة شعر بالخجل بسبب غروره وعاد فوراً إلى الصلاة. «اللهم مالك الملك، يا روح الحقيقة..! تعال وحل بنا وطهرنا من أدران الخطايا وانقذ وبارك أرواحنا، طهرني من خطيئة الغرور الدنيوي الذي

مكتبة الفكر الجديد

يؤلمني..!» فكر في عدد المرات التي أعاد فيها هذا الدعاء وكيف أن هذه الأدعية لم تفض إلى شيء ولم تخلصه من كبريائه، أما أدعيته للآخرين فقد أفضت إلى معجزات أما في حالته فلم يمنحه الرب بعد الحرية والانعتاق من شغفه التافه.

تذكر صلواته عندما بدأ حياته كناسك في صومعته وكان يصلي ليصبح نقيا متواضعا محبا وكيف بدا له حينها أن الله يقبل دعاءه. وقد استعاد صفاءه في تلك الفترة وبتر أصبعه ورفع الجزء المبتور الذابل إلى شفتيه وقبله. بدا له الأمر الآن أنه كان في تلك الفترة متواضعاً عندما بدا دائماً وأبداً محتقراً لنفسه بسبب خطاياها. وعندما تذكر عاطفته المرهفة التي أحس بها لدى لقائه رجلاً عجوزا كان قد أتى بجندي ثمل يطلب الصدقة وكيف قدم له الصدقة بحب وتواضع وكان الأب حينها محبا كريما. أما اليوم، فقد سأل نفسه فيما لو كان الآن يحب أحداً من رعيته أو زواره. إذا ما كان يحب صوفيا إيفانوفنا أو الأب سيرابيون أو الشاب المثقف العلماني الذي تناقش معه مطولا وأراد فقط أن يظهر مدى علمه وسعة اطلاعه وذكائه ليبرهن أنه يواكب معرفة ذلك الزمان. أراد سيرغيه حب الجميع لكنه لم يشعر بأنه يحب أحداً فيهم، فقد نفذ الحب والتواضع والصفاء من جعبته.

أسعده معرفة عمر الفتاة ابنة التاجر، فقد كانت في الثانية والعشرين من عمرها، وتساءل إن كانت جميلة المظهر، لأنه عندما استفسر عما إذا كانت ضعيفة سقيمة أراد في الواقع أن يكتشف إن كانت تمتلك جاذبية نسوية وملامح حسناء.

«هل سقطت إلى ذلك الدرك الأسفل من التفكير؟» سأل نفسه «يا إلهي! ساعدني! أعد إلي نفسي! يا إلهي!» وشبك يداه وأخذ يصلي.

مكتبة الفكر الجديد

بدأ العندليب يصدح بصوته وارتطمت بالأب خنفساء بدأت تزح على رقبته. نفضها جانبا بيده. **«ولكن، هل هو موجود؟ وماذا لو كنت أطرق الباب الموصود من الخارج؟ فالقضيب المعدني واضح تماماً، يستطيع أي شخص رؤيته. الطبيعة، العندليب والخنفساء هي القضيب المعدني».** وبدأ يصلي بعدها بصوت مرتفع. واستمر في الصلاة لفترة طويلة حتى تبخرت هذه الأفكار وشعر بعدها بالثقة والسكينة. رن الجرس وطلب من الخادم أن يقول للتاجر إن الأب في انتظاره هو وابنته الآن.

أتى التاجر ممسكا بيد ابنته وأدخلها إلى حجرة الأب وغادر على الفور.

كانت فتاة بيضاء مكتنزة قصيرة القامة ذات وجه طفولي شاحب خائف وجسد ناضج. بقي الأب سيرغيه جالسا على المقعد بجانب المدخل وعندما مرّت ووقفت بجانبه ليباركها اندهش الأب من نفسه بسبب الطريقة التي كان ينظر فيها إليها. فبينما كانت تمر بمحاذاته شعر وكأن شيئاً ما قد لسعه، واكتشف من مجرد النظر إليها بأنها كانت شهوانية وذات عقل ناقص. نهض وذهب إلى الحجرة حيث كانت الفتاة تنتظره جالسة على كرسي، وقفت الفتاة لدى دخوله.

«أريد أن أعود إلى أبي»

«لا تخافي، قولي لي مم تشتكين؟»

«أشعر بالألم في كل مكان في جسدي» وفجأة شع وجهها بابتسامة مشرقة.

«ستكونين على ما يرام، صلي معي!»

«وما فائدة الصلاة؟ أصلي دائماً بلا فائدة!» واستمرت بالتبسم.

«أريدك أن تصلي من أجلي واضعا يديك علي، لقد زرتني في المنام!»

«وكيف بدوت في المنام؟»

«رأيتك تضع يداك على صدري على هذا النحو» وأخذت بيده وضغطت بها على صدرها «هنا! في هذا المكان!»

سلم الأب يده اليمنى إليها.

«ما اسمك؟» سألها الأب وهو يرتجف من رأس إلى أخمص قدميه، وبدأ يشعر بأن الأمور انفلتت من عقالها وأن الرغبة الجامحة لديه لا سبيل لإيقافها.

«ماريا، لماذا تسأل؟»

وأخذت يده وقبلتها ووضعت يدها على وسطه وجذبته نحوها.

«ماذا تفعلين؟ ماريا، أنت شيطانة»

«آه، ربما، وما الفرق في ذلك؟» أجابت وعانقته وجلست معه على السرير.

وعند الفجر خرج الأب سيرغيه إلى الرواق/ الشرفة.

«هل حصل ما حصل؟ سيأتي أباها وستقول له كل شيء، إنها الشيطان بذاته، ماذا عساي أن أفعل؟ هذه هي الفأس التي بترت بها أصبعي» استل الفأس وعاد إلى الحجرة.

أتى الخادم «هل تريد تقطيع بعض الخشب؟ أعطني الفأس، دعني أقوم بذلك».

سلم الأب الفأس إلى الخادم ودخل إلى حجرته، كانت الفتاة نائمة

مكتبة الفكر الجديد

على السرير، نظر إليها برعب ثم انطلق بمحاذاة الجدار الفاصل حيث أنزل ملابس الفلاح ولبسها، وأمسك بمقص وقص شعره الطويل وخرج متبعا المسار المؤدي إلى النهر عبر الهضبة حيث لم تطأ قدمه ذلك المكان منذ ثلاث سنوات.

اتبع بعد ذلك طريقا بمحاذاة النهر ومشي حتى الظهيرة، بعدها ذهب إلى حقل الجاودار/ القمح واستلقى فيه، وفي المساء وصل إلى قرية على ضفاف نهر. لم يدخل القرية لكنه اتجه باتجاه النهر، باتجاه الجرف.

كان الوقت مبكراً قبل ساعة ونصف من شروق الشمس وكل شيء كان موحشاً وكئيباً وكانت الرياح الباردة المبكرة تهب من الغرب «نعم، يجب أن أنهي كل شيء، الرب لا وجود له، ولكن كيف لي أن أنهي الأمر؟ هل أرمي بنفسي في النهر؟ أستطيع السباحة وسأعوم ولن أغرق. أشنق نفسي بحبل؟ نعم، سأرمي هذا الحزام على غصن الشجرة وانتحر خنقا» بدا السيناريو الأخير ممكنا جداً وسهلا ولهذا ارتعدت فرائصه. وكالمعتاد في لحظات اليأس أراد أن يصلي، ولكن يصلي لمن؟ فالرب غير موجود. استلقى على الأرض وتوسد بذراعه، وفجأة غالبه النعاس بحيث لم يستطع دعم رأسه بذراعه فمد بها ووضع رأسه عليها وغط في النوم. لكنه استيقظ بعد لحظة، استيقظ على الفور وبدأ بالتخيل ومشاهدة أحلام يقظة.

رأى نفسه كطفل في بيت أمه في الريف بينما تأتي عربة ويترجل منها عمه نيقولاي سيرغييفتش بلحيته الطويلة التي تشبه المجرفة ومعه باشينكا، الفتاة النحيفة الصغيرة ذات العينين الوديعتين الكبيرتين والوجه

الخجول المثير للشفقة، التي أحضرت لكي تلعب مع الصبيان. توجب على الصبيان اللعب معها لكن اللعبة كانت تدعو إلى السأم. فالفتاة غبية وتنتهي اللعبة بالإستهزاء بها وإرغامها على إظهار معرفتها بفن السباحة. تستلقي الفتاة على الأرض وتشرح لهم كيفية السباحة فيضحك الجميع عليها ويستهزئون بها، ترى ذلك فتحمر وجنتاها وتذوب خجلا وتصبح مثيرة للشفقة أكثر فأكثر بحيث يشعر كاساتسكي الطفل بالعار ولا يستطيع أن ينسى تلك الابتسامة اللطيفة المذعنة الملتوية. ويتذكر سيرغيه أنه رآها بعد تلك الفترة. فبعد فترة طويلة، قبل أن يصبح راهبا بفترة بسيطة، تزوجت باشينكا بمالك أراضي بدد كل ثروتها وكان يعكف على ضربها أيضاً. رزقت بطفلين، ذكر وأنثى، لكن الإبن توفي وهو لا يزال شابا. يتذكر سيرغيه رؤيتها في حالة مزرية بائسة في تلك الفترة. ومرة أخرى رآها في الدير عندما أصبحت أرملة، وكانت على حالها، لم تكن على درجة من الغباء كما كانت في السابق لكنها كانت عادية تافهة عديمة الأهمية، جديرة بالشفقة. أتت إلى الدير حينها بصحبة ابنتها وخطيبها. كانت فقيرة معدمة في تلك الفترة. بعدها، سمع سيرغيه أنها انتقلت للعيش في قرية ريفية وازدات فقرا.

«لماذا أفكر فيها؟» سأل سيرغيه نفسه، لكنه لم يستطع سوى التفكير في تلك المرأة «أين هي الآن؟ كيف تدبر أمورها؟ هل ما زالت بائسة تعيسة كما كانت في السابق عندما كانت ترغم على السباحة على الأرض؟ ولكن لماذا ينبغي علي التفكير بها؟ ماذا أفعل؟ يجب أن أنتحر»

ومرة أخرى ارتعب من مجرد التفكير في الانتحار فحاول أن يهرب بعقله ليفكر في باشينكا مجددا.

مكتبة الفكر الجديد

تمدد على الأرض وبقي كذلك لمدة طويلة يفكر تارة في نهايته المحتومة وتارة أخرى في باشينكا. فقد كان التفكير فيها بمثابة الخلاص. أخيراً، استسلم للنوم. وفي منامه رأى ملكا أتى إليه يقول «إذهب إلى باشينكا وتعلم منها ما يتعين عليك فعله واكتشف خطيئتك، فهناك يكمن خلاصك».

استيقظ بعدها وقرر أن يلتزم بما قيل له في المنام لأنه جزم أن المنام كان عبارة عن رؤيا أرسلت له من الله ففرح بها. عرف القرية التي كانت باشينكا تعيش فيها، فهي تقع على بعد ثلاث مئة فرسخ، وعزم على أن يقطعها مشيا على الأقدام، وهكذا بدأ الرحلة.

مكتبة الفكر الجديد

VIII

توقفت باشينكا عن الاستمرار في كونها باشينكا منذ زمن بعيد، فقد أصبحت براسكوفيا ميخائيلوفنا العجوزالذابلة متجعدة الوجه، حماة مافريكييف الموظف الحكومي الفاشل السكير. كانت تعيش في القرية التي كان قد عيّن فيها مافريكييف في منصب حكومي ثم ما لبث أن فارقه بسبب اعتلال صحته. وكانت تعيل أسرة ابنتها المكونة من خمسة أطفال بالإضافة إلى أبيهم المريض المصاب بالوهن العصبي. وقد قامت بإعالة العائلة عن طريق إعطاء دروس في الموسيقى لبنات التجار لأربع أو خمس ساعات يوميا تدر عليها ستين روبل شهريا. إذ كانت الأسرة تعيش يومها بيومها في انتظار تعيين جديد لزوج ابنتها في منصب آخر. أرسلت رسائل عديدة لجميع معارفها وأقاربها تطلب فيها البحث عن وظيفة لزوج ابنها بما في ذلك رسالة أرسلتها للأب سيرغيه، لكنها لم تصله.

كان يوم السبت، وكانت براسكوفيا تخلط عجينة خبز الزبيب، وكان الطاهي في منزل والدها يقوم بذلك منذ أمد بعيد باحترافية عالية، وقد أرادت أن تحضر شيئاً لذيذا لأحفادها في يوم الأحد.

كانت ماشا، ابنتها، ترعى ابنها الأصغر بينما كان الابن الأكبر والبنت الكبرى في المدرسة. أما زوجها فقد كان نائما لأنه سهر طوال

الليل. كما أن براسكوفيا ميخائيلوفنا بقيت ساهرة معظم الليل محاولة التخفيف من حدة غضب ابنتها إزاء زوجها.

توصلت الأم إلى نتيجة مفادها أن زوج ابنتها، المخلوق الهش، لا يمكن أن يصبح إنسانا آخر وأن توبيخ ابنتها له على مدار الساعة لن يجدي فتيلا. لذلك لم تألو جهدا في ثني ابنتها عن ذلك وتخفف من وطأة التوبيخ لتحول دون حدوث نوبات غضب مضادة من طرف الزوج. ذلك العراك المستمر والبغض العميق بين الطرفين أثر على صحتها الجسدية. فقد كان واضح لها تماماً أن مشاعر الكره والبغض لن تقدم أو تؤخر في المسألة بل ستزيد الطين بلة. لم تفكر في واقع الأمر في ذلك لكنها عانت ببساطة بمجرد رؤية نوبات الغضب واشتعالها، تماماً كما لو أنها تعاني من رائحة كريهة أو صوت مرتفع أو لكمات توجه إلى جسدها.

ومع تدربها على الشعور بالرضا الذاتي أخذت تعلم لوكيريا على كيفية مزج العجين بينما فر حفيدها البالغ من العمر ست سنوات من المطبخ وعلى وجهه علامات الوجل وهو يرتدي مريلة وجوارب مرتوقة على ساقيه القصيرتين المقوستين.

«جدتي.. عجوز مخيف يريد رؤيتك» نظر لوكيريا باتجاه الباب.

«على ما يبدو أنه سائح متجول يا أمي»

فركت براسكوفيا ميخائيلوفنا ذراعيها النحيفتين ببعضهما ومسحت يديها بالمريلة وذهبت إلى الغرفة في الأعلى لتأتي بقطعة نقود من فئة الخمسة كوبيك[1] من محفظتها ولكنها تذكرت أن أصغر قطعة نقدية

---

(١) روبل= ١٠٠ كوبيك.

كانت من فئة العشرة كوبيك، لذلك قررت أن تقدم له الخبز عوضا عن ذلك. اتجهت إلى المطبخ لكنها شعرت بالخجل فجأة لأنها ضنت على السائح بعشرة كوبيك وبينما طلبت من لوكيريا أن يقطع قطعة من الخبز عادت إلى الغرفة العلوية مجددا لتحضر العشرة كوبيك «تستحقين هذا العناء، يجب عليك الآن أن تتصدقي بضعف ذلك»

قدمت الخبز والمال للسائح ثم اعتذرت لأنها أعطته القليل، رغم أنها قدمت له أكثر مما أرادت في البداية ورغم أنها كانت سخية بالنظر إلى فقرها وقلة حيلتها. أما مظهر الرجل فقد كان مهيباً جديراً بالاحترام. قطع الرجل مئتي فرسخ مشيا على الأقدام كان يتسول خلالها ويستعطي الطعام والشراب وفقد الكثير من وزنه. كان رث الثياب تظهر عليه علامات التعب والمعاناة من تقلب الطقس. ذو شعر قصير يعتمر قبعة الفلاحين ويرتدي حذاء من أحذيتهم طويلة الرقبة. رغم كل ذلك حافظ سيرغيه على بهاء طلعته وجاذبية روحه. لكن براسكوفيا ميخائيلوفنا لم تتعرف عليه، وكيف لها ذلك بعد أن كانت قد رأته منذ عشرين سنة.

«لا تؤاخذني، ربما أنت جائع تحتاج إلى بعض الطعام؟»

تناول الأب المال والخبز ولم يبرح المكان بل أخذ ينظر إليها. تفاجأت براسكوفيا من وقوفه أمام الباب.

«باشينكا، لقد أتيت إليك، أدخليني منزلك»

تلألأت عيناه السوداوان الجميلة وبدأت تغرورق بالدموع بينما كان ينظر إليها نظرة استعطاف وارتجفت شفتاه من تحت شارباه الرماديين على نحو يثير الشفقة.

مكتبة الفكر الجديد

وضعت براسكوفيا يداها على صدرها الذابل وضغطت عليه وفتحت فاها ووقفت متجمدة خائفة تنظر إلى السائح وحدقات عيناها تتوسع.

«كلا، مستحيل! ستيبا! سيرغيه! الأب سيرغيه!»

«نعم، هو كذلك» أجاب سيرغيه بصوت خافت «لكنني لست سيرغيه أو الأب سيرغيه بل مرتكب الخطايا ستيبان كاساتسكي، مرتكب الكبائر، الضائع ستيبان، خذيني إليك وساعديني»

«مستحيل! ماذا فعلت بنفسك؟ أدخل، تفضل بالدخول» ومدّت يدها إليه لكنه لم يتناولها بل تبعها إلى الداخل.

ولكن كيف ستأويه؟ كان المنزل ضيقا بأهله، وكان لديها في السابق غرفة صغيرة تشبه المقصورة لكنها استغنت عنها لاحقا وقدمتها لابنتها التي كانت تجلس وتهز طفلها كي ينام.

«إجلس هنا مؤقتا» قالت لسيرغيه مشيرة إلى مقعد في المطبخ.

«يا إلهي! يا إلهي! كيف ألحقت الذل بنفسك بعد أن كنت من أشهر الناس! يا إلهي! حالتك يرثى لها أيها الأب»

لم يجب سيرغيه بل ابتسم بخجل واضعا حقيبة الظهر تحت المقعد الذي جلس عليه.

«ماشا، هل تعرفين من هذا الرجل؟» وهمست الأم في أذن ابنتها مفصحة عن اسم الزائر، بعدها قامت الأم وابنتها بنقل سرير الطفل من الحجرة الصغيرة ليتسنى للأب المكوث فيها.

قادت براسكوفيا الأب إلى تلك الحجرة وقالت له «بإمكانك أخذ

مكتبة الفكر الجديد

قسط من الراحة هنا، أرجو المعذرة، يجب أن أغادر الآن، علي الذهاب»

«إلى أين؟»

«علي الذهاب إلى الدرس، أخجل أن أقول لك أنني أدرس دروسا في الموسيقى!»

«موسيقى؟ هذا طيب، فقط أمر واحد، براسكوفيا ميخائيلوفنا، لقد أتيت إليك ولدي هدف واحد في رأسي. اسمحي لي أن أكلمك فيه متى تسنح الفرصة»

«سيطيب لي ذلك بالطبع، هل فترة المساء مناسبة؟»

«نعم.، لكن ثمة أمر آخر، أرجو أن لا تتحدثي عني أو تفصحي عن هويتي، لقد كشفت لك هويتي، لكن لا أحد يعرف أين أنا وأين ذهبت، أرجو أن تبقي على هذا سراً بيننا».

«آه، لكنني أخبرت ابنتي للتو»

«حسن، أطلبي منها أن لا تخبر أحداً»

خلع بعدها سيرغيه حذاءه واستلقى على السرير وغط في النوم على الفور بعد ليلة لم يستطع النوم فيها وبعد أن قطع أربعين فرسخا دفعة واحدة.

وعندما عادت براسكوفيا كان سيرغيه يجلس في الحجرة الصغيرة في انتظارها. لم يخرج من الحجرة لتناول طعام العشاء لكنه تناول بعض الحساء والعصيدة التي أحضرها له لوكيريا.

«كيف حصل أن عدت مبكرا؟ هل يمكنني الحديث معك الآن؟»

مكتبة الفكر الجديد

«كيف حصل أن السعادة زارتني بلقاء واستضافة ضيف هو أنت أيها الأب؟ لقد أجلت درسا من الدروس، وهكذا أتيت مبكراً، كنت أنوي دائماً زيارتك، كتبت لك، لكن حظي وافر لأنك موجود بيننا الآن»

«باشينكا! أرجو أن تصغي إلي وتعتبري حديثي معك بمثابة اعتراف منى أمام الله في ساعتي الأخيرة. باشينكا، أنا لست قديسا، لا يمكنني أن أقارن صلاحي بصلاح أي شخص عادي. فأنا بغيض خسيس فاسق مغرور ضل طريقه. وإن لم أكن أسوء من جميع البشر فأنا على الأقل أسوء من السواد الأعظم من الأشرار».

نظرت باشينكا إليه باندهاش في بادىء الأمر ثم ما لبثت أن صدقت ما قاله وعندما فهمت فحوى حديثه لمست يده وابتسمت بلطف وقالت «ربما أنت تبالغ يا ستيفا؟»

«كلا، باشينكا. فأنا زان وقاتل وكافر ودجال»

«يا إلهي! وكيف ذلك؟»

«لكن علي الاستمرار في الحياة، أنا الذي اعتقدت أنني أعرف كل شيء، أنا الذي اعتقدت أنني قادر على تعليم الآخرين كيف يعيشون، أنا الآن لا أعرف شيئاً وأطلب منك أن تعلميني»

«ماذا تقول، ستيفا؟ أنت تتهكم علي، لماذا تهزأ بي دائما؟»

«حسن، لا بأس إذا كنت تعتقدين كذلك، لكنني على أية حال أريد منك أن تقولي لي كيف تعيشين وكيف عشت في السابق»

«أنا؟ لقد عشت حياة وضيعة مأساوية والآن يعاقبني الرب لأنني خليقة بالعقاب. أنا أعيش حياة شقاء منقطع النظير، بؤس»

مكتبة الفكر الجديد

«كيف كان زواجك؟ كيف عشت مع زوجك؟»

«لقد كانت زيجة سيئة، تزوجته لأنني وقعت في غرامه بطريقة دنيئة جديرة بالإزدراء. لم يوافق أبي على الزواج. لكنني لم أصغ لأحد وذهبت وتزوجته. بعدها، وعوضا عن مساعدة زوجي عذبته بغيرتي التي لم أستطع كبحها»

«سمعت أنه كان مدمنا على الخمر»

«نعم، لكنه لم يهنأ له بال بسببي، كنت أوبخه وأنتقده دائماً، لكنك تعلم أن معاقرة الخمر داء ليس له علاج! لم يستطع الانفكاك منه! أتذكر الآن كيف حاولت منعه من الشرب وكيف تحول ذلك المشهد إلى كابوس مرعب مخيف»

ونظرت إلى كاساتسكي بعيونها الجميلة المتعبة التي عانت الأمرين بسبب تلك الذكريات.

تذكر كاساتسكي كيف شرح له آخرون أن زوج باشينكا كان يعنفها ويضربها، والآن حينما ينظر إلى رقبتها النحيفة الذابلة وعروقها الواضحة خلف أذنيها وشعرها الغث الملفوف الذي اجتاح نصفة الشيب وترك النصف الآخر بلون الكستناء، يبدو وكأنه يكتشف الآن كيف كان يضربها زوجها.

«بعدها تُركت ومعي طفلين من دون مصدر رزق أو معيل»

«ولكنك كنت تملكين عزبة وممتلكات!»

«آه! بعنا تلك العزبة بينما كان فاسيا لا يزال على قيد الحياة وصرفنا جميع النقود. كان نريد أن نعيش، وكنت شابة ولم أدر كيف يمكن للمرء أن يكسب المال. كنت عديمة الفائدة وميؤوس من أمري، لذلك

مكتبة الفكر الجديد

صرفنا كل ما كان لدينا. علمت الأطفال وحسنت من تعليمي أيضاً بعض الشيء. بعدها، وقع ميتيا في براثن المرض عندما كان في الصف الرابع وانتقل إلى جوار ربه. بعدها وقعت ماشا في غرام فانيا، زوجها الحالي، ماذا عساي أن أقول؟ هو رجل ذو نية طيبة لكنه عاثر الحظ، فهو أيضاً مريض»

«ماما» قاطعتها ابنتها «خذي ميتيا، لا أستطيع أن أكون في مكانين في آن معاً»

ارتعشت براسكوفيا ميخائيلوفنا وانتصبت وخرجت من الغرفة بإيقاع سريع وهي ترتدي حذاءها المرقع. عادت بعد لحظات مع طفل على ذراعها يبلغ من العمر سنتين كان ينتفض إلى الوراء ويمسك بشالها بيديه الصغيرتين.

«أين كنا؟ آه، نعم. كان لديه وظيفة جيدة هنا، ورئيس عمله كان رجلاً طيبا، لكن فانيا لم يستطع أن يستمر في تلك الوظيفة فتخلى عنها لاحقا»

«ما خطبه؟»

«الوهن العصبي! إنه مرض رهيب. استشرنا طبيبا فقال لنا أن عليه الذهاب في رحلة استجمام وراحة. لكن حالتنا كما ترى، لم نستطع توفير النفقات، أتمنى دائماً أن يذهب عنه المرض من تلقاء نفسه، فهو لا يشعر بالألم على وجه التحديد بل...»

«لوكيريا!» صرخت الإبنتة مجدداً «دائماً تغيب عني عندما أحتاجها ماما»!

مكتبة الفكر الجديد

«في طريقي إليك» قاطعت براسكوفيا نفسها مرة أخرى «لم يتناول طعامه بعد، لا يستطيع أن يأكل معنا»

خرجت ورتبت شيئاً وعادت وهي تمسح بيديها النحيفتين الداكنتين.

«إذاً، هكذا هي حياتي، دائماً أشكو ودائماً غير راضية ولكن الحمد لله أحفادي جميعاً لطفاء وأصحاء ونستطيع أن ندبر أنفسنا، ولكن يكفي الحديث عني»

«ولكن من أين تحصلين على المال؟»

«حسن! أكسب بعض المال. كم كنت أكره الموسيقى، وكم هي الآن مفيدة لي.!» كانت يدها الصغيرة مرتكزة على خزانة الجوارير بجانب مكان جلوسها فمررت أصابعها على الخزانة مصدرة بعض الأصوات وكأنها تعزف مقطوعة.

«وكم تتقاضين لقاء الدرس الواحد»؟

«روبل في بعض الأحيان، خمسون كوبيكا في أحيان أخرى، وأحيانا ثلاثون كوبيكا، فهم جميعاً لطفاء معي»

«وهل يتعلم طلابك بسرعة؟» سأل كاساتسكي مبتسما بعض الشيء.

لم تصدق براسكوفيا أنه كان يطرح الأسئلة على نحو جاد فنظرت نظرة استفهام إلى عينيه.

«بعضهم يفعل. إحداهن فتاة رائعة، ابنة القصاب، ذات جمال أخاذ! كان يتعين علي، بالنظر إلى العلاقات التي كانت لدى والدي، لو كنت إمرأة ذكية، أن أجد بالطبع، وظيفة أخرى لزوج ابنتي. لكنني لم أستطع أن أفعل شيئاً وكما ترى فإنني جلبت عليهم الفقر جميعا»

مكتبة
الفكر الجديد

«نعم، نعم»، قال كاساتسكي وهو يخفض رأسه «ولكن، باشينكا، كيف تشاركين في أنشطة الكنيسة؟»

«آه! لا تأتي على ذكر الكنيسة لأنني مقصرة في ذلك الباب، أحافظ على الصيام مع الأولاد وأذهب إلى الكنيسة في بعض الأحيان ولكنني في أحيان أخرى أغيب عنها لشهور وأرسل الأولاد فقط»

«ولكن لماذا لا تذهبين بنفسك؟»

«لأقول لك الحقيقة» تورد وجهها وخجلت ثم تابعت «أصاب بالخجل الشديد لدى تفكيري في الذهاب مرتدية ثيابي الرثة التي لا أملك غيرها، فأجلس في البيت لكي لا ألحق العار بابنتي وأحفادي. بالإضافة إلى أنني كسولة».

«وهل تصلين في المنزل؟»

«نعم أفعل، ولكن أي صلاة أقوم بها؟ أداء ميكانيكي فقط بلا خشوع، أعلم أن الصلاة يجب أن تؤدى بخشوع لكن شعور التدين العميق غائب عني، الشيء الوحيد الذي أعرفه هو درجة الإنحطاط والوضاعة التي أعيش فيها».

«نعم، نعم هذا صحيح» عقب كاساتسكي وكأنه يقر بما قالت.

«في طريقي إليك، في طريقي إليك» أجابت نداء زوج ابنتها وبعد ترتيب ظفيرتها غادرت الحجرة.

لكنها استغرقت وقتاً طويلاً قبل أن تعود هذه المرة، وعندما عادت كان كاساتسكي لايزال في نفس الوضعية التي تركته عليها بمرفقيه المرتكزين على ركبتيه ورأسه المتدلي، لكنه حزم الحقيبة وراء ظهره.

مكتبة الفكر الجديد

عندما دخلت الحجرة تحمل قنديلاً صغيراً يكاد ظله يغيب، رفع كاساتسكي عيناه الناعستان وتنهد عميقاً.

«لم أقل لهم أنك هنا» بدأت براسكوفيا بصوت خجول «قلت لهم أنك مجرد سائح في الأرض ورجل نبيل كنت على معرفة بك في السابق، تفضل إلى غرفة الطعام لتناول العشاء»

«كلا»

«حسن، سأحضر لك بعض الطعام إلى هنا».

«كلا، لا أريد شيئا، بارك الله فيك، باشينكا! سأغادر الآن، إذا أشفقت علي أرجو أن لا تخبري أحداً بأنك رأيتني، أستحلفك بالرب أن لا تفشي هذا السر. شكراً لك. أردت أن أسجد عند قدميك لكنني أعلم أن ذلك سيربكك، شكراً لك. وسامحيني من أجل المسيح»

«باركني أيها الأب»

«بارك الله فيك! سامحيني أرجوك، من أجل المسيح»

وقف سيرغيه ولكنها لم تدعه يذهب قبل أن تزوده بالخبز والزبدة والكعك، أخذ المؤونة وانطلق.

كان الظلام دامسا، وقبل أن يمر بمحاذاة المنزل الثاني غاب عن الأنظار، علمت فقط بوجوده بسبب نباح الكلب في منزل القسيس الجار.

«إذا، ذاك هو مغزى حلمي! كان يتعين علي أن أكون باشينكا لكنني فشلت، فقد عشت من أجل البشر بذريعة العيش في سبيل الرب. بينما هي عاشت في سبيل الله وتخيلت أنها تعيش من أجل البشر، نعم فعل

مكتبة الفكر الجديد

صدقة وحيد كشربة ماء تقدم لآخر من دون التفكير في الثواب هي بمثابة أية فائدة كنت أعتقد أنني قدمتها للناس. ولكن، في نهاية المطاف، ألم يكن ثمة شطر من الرغبة المخلصة لخدمة الرب؟ سأل نفسه والإجابة كانت بـ«نعم»، كانت الرغبة موجودة لكنها غلفت ودفعت ونمت برغبة طلب الشهرة والمجد الدنيويين. نعم، لا رب لمن عاش كما عشت من أجل الشهرة بين بني البشر. سأسعى الآن إلى الرب!»

وأخذ ينتقل من قرية إلى أخرى كما فعل في رحلة البحث عن باشينكا يلتقي خلال رحلاته بسائحين آخرين، نساء ورجال، ويطلب كسرة خبز من هنا وهناك وليلة دافئة في مكان أو آخر باسم المسيح. وفي بعض الأحيان كان يتلقى نقداً لاذعاً وتوبيخاً مريراً من ربة منزل غاضبة أو فلاح ثمل ولكنه في معظم الأحيان كان يحصل على وجبة وشراب وفي أحيان أخرى يزود بطعام يأخذه معه في رحلته المستمرة. لعبت ملامح وجهه النبيلة دورين مختلفين. فقد جذبت بعض الناس لصالحه وأثارت فيهم الشفقة عليه ودفعت عنه آخرين أرادو أن يشمتوا بحالته المزرية وطاب لهم أن يروا شخصاً نبيلاً انحدر إلى مستوى المتسولين.

لكن لطفه انتصر في النهاية مع السواد العظم ممن التقى بهم.

غالبا ما كان يجد نسخة من إنجيل في كوخ يبدأ بقراءته بصوت مرتفع ولدى سماع الناس له تجيش فيهم العواطف ويدهشون لحدث من هذا القبيل لم يكونوا قد اعتادوا عليه.

وعندما كان ينجح في مساعدة الناس عن طريق إسداء النصيحة أو من خلال معرفته بالقراءة والكتابة أو المصالحة بين طرفين متنازعين لم

مكتبة الفكر الجديد

ينتظر امتنانهم وشكرهم لكنه كان يغادر على الفور بعد الانتهاء مباشرة من تقديم الخدمة. وشيئاً فشيئاً بدأ الله يكشف الغطاء عنه ليتعرف أسرار روحه.

في يوم من أيام الله، كان سيرغيه يمشي بصحبة امراتين مسنتين وجندي أوقفوا من قبل مجموعة مكونة من سيدة ورجل في عربة ذات عجلتين وسيدة ورجل يمتطيان فرسا. كان الزوج وابنته يمتطيان الحصان بينما كانت زوجته في العربة مع رجل فرنسي يبدو أنه مسافر/ عابر سبيل.

توقفت المجموعة لتسمح للفرنسي أن يكحل عيناه برؤية السواح الذين هم، وفقا لخرافة روسية شعبية، يتجولون مشيا على الأقدام من مكان إلى آخر بغرض التسول عوضا من أن يزاولوا مهنة.

تحثوا بالفرنسية ظنا منهم أن أحداً لن يفهم ما يقولون.

قال الفرنسي:

"Demandez-leur s'ils sont bien sûr de ce que leur pèlerinage est agréable à Dieu"[1]

طرح السؤال فأجابت إحدى الإمرأتين: «قبول ذلك منوط بالرب. وطأت أقدامنا الأماكن المقدسة لكن قلوبنا قد لا تصل أبداً»

سألوا الجندي نفس السؤال فقال أنه وحيد في هذه الدنيا وليس لديه مكان يأوي إليه.

سألوا عن كاساتسكي، أرادوا معرفة من يكون.

---

(١) أسألهم إن كانوا مقتنعين تماماً أن سعيهم هذا يرضا عنه الرب

مكتبة الفكر الجديد

فقال: «خادم/ عبد الله»

"Qu'est-ce qu'il dit? Il ne répond pas"(١)

"Il dit qu'il est un serviteur de Dieu. Cela doit être un fils de prêtre. Il a de la race. Avez-vous de la petite monnaie??(٢)

وجد الفرنسي بعض النقود المعدنية وقدم عشرين كوبيكا لكل سائح.

"Mais dites-leur que ce n'est pas pour les cierges que je leur donne, mais pour qu'ils se régalent de thé. Chay, chay pour vous, mon vieux!"(٣)

قال ذلك مبتسما وربت على كتف كاساتسكي بيده المغطاة بقفاز.

«فليبارك المسيح» أجاب كاساتسكي من دون أن يعتمر قبعته وقد حنى رأسه الأصلع تعبيراً عن احترامه للمعطي.

شعر كاساتسكي بشعور غامر بعد ذلك اللقاء لأنه لم يشعر بالأنفة بل بالتواضع والإنكسار أمام الله إذ قام بتجاهل رأي البشر وأراد أن يرضي ربه من خلال العمل البسيط السهل المتواضع، أي قبول العشرين كوبيك وأعطائها لزميله الشحاذ الأعمى. فكلما زهد في رأي البشر شعر أكثر فأكثر بوجود الرب بداخله.

استمر كاساتسكي بالتجوال والتنقل من مكان لآخر لثمانية شهور إضافية وفي الشهر التاسع اعتقل بتهمة عدم حيازته لجواز سفر. حصل

---

(١) ماذا يقول؟ أهو يجيب؟

(٢) قال إنه عبد الله. ربما هو ابن لقسيس. فهو لا يبدو من العامة. هل لديك فكة؟

(٣) ولكن أخبروهم أنني لا أقدم النقود ليصرفوها في شراء شموع للكنيسة بل ليشتروا بعض الشاي. شاي، شاي، لك أيها الرجل العجوز.

مكتبة الفكر الجديد

ذلك في مأوى ليلي في بلدة ريفية حيث أمضى الليلة مع بعض المتجولين الآخرين. قادوه إلى مركز الشرطة وعندما سأل عن هويته وجوازه أجاب بأنه لا يمتلك جواز سفر وأنه عبد الله وخادمه. صنف بعدها كمتشرد بلا مأوى وأصدرت عقوبة بحقه وأرسل ليعيش في سيبيريا.

استقر في سيبيريا كأجير لفلاح ثري، وهو يعيش الآن هناك ويعمل في حديقة المطبخ ويدرس الأطفال ويرعى المرضى.

انتهى

الفهرس

سيرة مقتضبة ٥
تعليق ٧
مصرع إيفان إيليتش ١٥
يُمهل ولا يُهمل ١٠٩
متى وُجد الحُبّ فثمَّ وجه اللَّه ١٢٣
الشيطان ١٤٣
في أعقاب الحفلة الراقصة ٢٢٧
الأب سيرغيه ٢٤٥

مكتبة الفكر الجديد

هذا الكتاب

لطالما تأثر الناس بموت شخص بعينه عوضاً عن تأثرهم بموت مئات الأشخاص من جرّاء حادثة ما. ذلك لأن المرء يستطيع أن يتقمص شخصاً بمفرده ولا يستطيع أن يتقمص عدداً كبيراً من الناس. وقد يصبح الموت في كثير من الأحيان أمراً مألوفاً نتآلف معه ونفقد تأثيره علينا. لأن المرء يعتقد أنه سيموت بعد موت أقرانه ولا يدور في خلده أنه قد يموت قبلهم جميعا. ولكنه لا يأبه بالموت كثيراً رغم أنه قد يقع في براثنه في صباه أحياناً وفي كهولته في أحايين أخرى. هل فقِهتْ براسكوفيا ذلك؟ وهل زكّتْ نفسها وشعرت أنها نجت من الموت الذي اقتنص زوجها المسكين؟ ولكن كم من السنين عاشت بعد مماته؟

مكتبة
الفكر الجديد

ISBN 978-9933351823
9 789933 351823